نصيحة أهل الإسلام

تحليل إسلامي - علمي
لعوامل سقوط الدولة الإسلامية وعوامل نهوضها

للشيخ الإمام المحدث المؤرخ أبي عبد الله
محمد بن شيخ الإسلام أبي الفيض جعفر الكتاني



تقديم
العلامة المجاهد الكبير محمد إبراهيم الكتاني

تحقيق ودراسة
الدكتور إدريس الكتاني

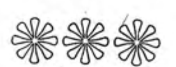
مكتبة بدر
الرباط

نصيحة أهل الإسلام

تحليل إسلامي - علمي
لعوامل سقوط الدولة الإسلامية وعوامل نهوضها

للشيخ الإمام المحدث المؤرخ أبي عبد الله

محمد بن شيخ الإسلام أبي الفيض جعفر الكتاني



تقديم

العلامة المجاهد الكبير محمد إبراهيم الكتاني

تحقيق ودراسة

الدكتور إدريس الكتاني

مكتبة بدر

30 مكرر شارع باستور — الرباط

الهاتف : 89 - 663

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم : العلامة المجاهد الكبير
الاستاذ محمد ابراهيم الكتانى

1) يتناول مؤلف (نصيحة أهل الاسلام ، فيما عرض لهم فى هذا الوقت من داء الكفرة اللئام) ، ما يسميه « مواد العطب والاختلال » ويقصد بها الاسباب التى جعلت المسلمين يفتقدون قوتهم التى كانت لهم، الامر الذى مكن الاعداء من احتلال بلادهم، والسعى الجاد لاحتلال ما زالوا لم يحتلوه منها ، لاستعبادهم ، والعمل لتحويلهم عن الاسلام .

والمؤلف الذى يجعل هذه الاسباب أحد عشر ، يورد فى حديثه عن كل واحد منها الادلة القاطعة عليها من الآيات القرآنية ، وكتب التفسير ، والاحاديث النبوية منسوبة الى مخرجيها من أئمة الحديث ، مع بيان درجتها من الصحة والضعف ، ذاكرا فى بعضها انها تجاوزت مرتبة الصحة والتواتر ، الى درجة (المقاصد الشرعية) المعلومة من دين الاسلام بالضرورة ، بحيث يعتبر منكرها مرتدا عن الاسلام .

كما يورد ما قاله شراح الحديث ، والنصوص الفقهية ، وما قاله شراحها على تعاقب العصور . وينقل من كتب التاريخ والادب والمناقب والتصوف والوعظ ، ويعقب بالنصح والارشاد ، والاغراء والتحذير .

2) واذا كانت مناقشة الاحكام الشرعية التى تضمنتها « النصيحة » ليست من مهمات هذا التقديم ، فاننى سأكتفى بالاشارة الى نقطتين :

الاولى ــ ان الفكرة المسيطرة على « النصيحة » هي ان الاسلام : يقرر : (ان العزة لله ولرسوله وللمومنين) ، ولذلك فهو لا يسمح للمسلمين ــ افرادا كانوا أو جماعات ــ ان يخضعوا لحاكم غير مسلم ، أو لحكم غير اسلامى ، ويقسم الارض الى : دار اسلام ، ودار كفر ، ولكل واحدة منهما أحكامها الشرعية الخاصة .

ومن جملة احكام دار الاسلام انها يجب على جميع المسلمين حمايتها والدفاع عنها بالنفس فما دونها حتى لا يستولى عليها غير المسلمين ، فتصبح دار كفر بعد ان كانت دار اسلام .

لقد كانت روح الاعتزاز بالاسلام تغمر قلب المؤلف ، وتملأ جوانب نفسه .

الثانية ــ انه اذا كان كثير من الاحكام الشرعية الواردة فى نطاق اليقينيات التى لا يدخلها الاجتهاد ، ولا تختلف فيها الانظار ، فان بعض الاحكام الفرعية الاجتهادية من طبيعتها ان تحتمل اكثر من رأى ، فى نطاق منهج الاجتهاد الاسلامى المضبوط بقواعده المقررة ، خصوصا اذا لاحظنا اختلاف الظروف والملابسات التى تتطلب اجتهادا جديدا .

3) الاعتزاز بالاسلام ، هو اعظم هبة يهبها الاسلام للمسلم ، فتمتلىء نفسه شعورا بعزة الاسلام ، وبذلك يكتسب المومن حصانة ضد التأثر بأعداء الاسلام ، فلا تعشى بصره وبصيرته قوة العدو المادية ، ولا تستهويه المكاسب الحرام التى يتمتع بها الخونة المارقون ، ولا تخور عزيمته أمام القمع الذى يمارسه العدو ضده ، مهما تنوعت أشكاله ، وطالت أماده .

هذا الاعتزاز هو من أفتك الاسلحة التى يواجه بها المومنون أعداءهم ، وقد أخبرنى صديقنا المرحوم الاخ محمد الزغارى ، ان جنرالا كان حاكما عسكريا لفاس ، قال له أثناء

حديث بينهما : ان الشيء الذى لا نستطيع تحمله ، هو نظرة الاحتقار التى ينظر بها المغربى الى الفرنسيين مهما علت رتبتهم (1) .

ورضى الله عن الخليفة الراشد أمير المومنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : اننا قوم اعزنا الله بالاسلام ، فمهما نطلب العزة بغيره أذلنا الله .

ورحم الله المناضل الاسلامى الكبير الامير شكيب أرسلان حيث قال : من لا دين له ، لا وطنية له .

4) ومؤلف (النصيحة) لا ينسى – وهو يستنهض همم المسلمين للتصدى لما يدبره لهم اعداؤهم – الاشارة الى ما كان عليه هذا (المغرب الاقصى) قبل هذا الاوان ، من عزة عظيمة ، وسطوة كبيرة ، وقوة منعة ورفعة سلطان ، وما يتمتع به المومنون فيه من قوة عددية وروحية ومادية ، يتمكنون بها من الدفاع عن أنفسهم ، ورد العدوان عليهم .

هذا ، وان اعتزاز المغاربة بوطنهم أمر معروف منذ أقدم العصور ، وتعتبر هذه الفصول التى تشتمل عليها (النصيحة) نماذج من اخلاق المجتمع الاسلامى الاصيل الذى قام عليه بناء الدولة الاسلامية .

ظروف المغرب وقت كتابة « النصيحة » :

5) من المعلوم ان المغرب خاض فى القرن التاسع عشر حربين ضد قوتين اجنبيتين : الاولى حرب « ايسلى » استجابة لاستغاثة الشعب الجزائرى الذى هاجمته الجيوش الفرنسية الصليبية غدرا وعدوانا ، والتى حدثت سنة 1840 م .

---

(1) رحم الله جيل ذلك الزمان ، كان جيل الشعور بالعزة والكرامة الاسلامية ، أما اليوم فنحن نعيش جيل التبعية والخنوع الذى يستمد العزة من غير الله.

وقد طوق الجيش الفرنسى الجيش المغربى من جميع الجهات، ووجه اليه مدافعه فهزمه هزيمة ماحقة ، كانت عواقبها بعيدة الآثار : عسكريا واقتصاديا ونفسيا واجتماعيا ، وبصفة خاصة دوليا ، حيث كاد المغرب يفقد مصداقيته الدولية الى حد كبير .

وطلب قائد الجيش السماح له بتعقب الجيش المغربى قائلا : ان فرنسا لا يمكن ان يقر لها قرار فى الجزائر ما دامت لم تحتل مدينة فاس ، نظرا لما كان المجاهدون الجزائريون يتلقونه من تشجيع معنوى من علماء جامعة القرويين بفاس ، ولكن السياسة الدولية لم تكن قررت السماح لفرنسا باحتلال المغرب بعد ، فلم تستجب دولته لطلبه .

وكانت الحرب الثانية « حرب تطوان » سنة 1860 م احدى هذه الآثار ، وقد هزم فيها الجيش المغربى أيضا ، واحتل الصليبيون الاسبان مدينة تطوان ، وارتكبوا فيها الفظائع ، ونشير بهذه المناسبة ، الى ان جد المؤلف الشريف العالم العدل الموثق المولى ادريس بن الطائع الكتانى كان من بين أسارى هذه الحرب ، فمع أن التقاليد تقضى باعفائه من التجنيد لصفتى الشرف والعلم ، فقد دفعه ايمانه بشرف الجهاد والشهادة فى سبيل الله للتطوع من تلقاء نفسه ، ووقع فى الاسر ، ولم يطلق سراحه الا بعد عقد صلح . وقد ترجم له حفيده (المؤلف) فى موسوعته (سلوة الانفاس) . وكان من افظع آثار هاتين الهزيمتين تدميرا ، استباحة الاعداء حمى المغرب ، وجرأتهم على انتهاك حرماته ، وتسرب جواسيسهم وعملائهم وصنائعهم الى مختلف الميادين ، وخصوصا مراكز المسؤلية مع تظاهرهم بالاخلاص والنصيحة ، الامر الذى جعل الالتباس يحيط بالاشياء ، فيختلط الكفر بالايمان ، والخيانة بالاخلاص .

6) وقد بذل ملوك المغرب ، خلال هذا القرن ، بمساعدة الفقهاء

وبعض المخلصين الواعين جهودا محمودة ــ فى نطاق الامكانيات المحدودة ــ لمواجهة الضغوط الدبلوماسية التهديدية ، ومن أبرزهم عزما ومقدرة واخلاصا المولى الحسن رحمه الله ، وكان يستشير الفقهاء ويستفتيهم ، وعلى رأسهم شيخ الجماعة العلامة الفقيه النوازلى المولى جعفر بن ادريس الكتانى رحمه الله ــ والد المؤلف ــ الذى له فتاوى عديدة تتضمن الدفاع عن المصالح المغربية ضد الاطماع الاجنبية ، وبعضها منشور بخطه فى (أتحاف اعلام الناس) للنقيب المؤرخ ابن زيدان رحمه الله ، ومن أهم آثاره فى الموضوع : « الدواهى المدهية للفرق المحمية » (1) ضد الخضوع للحماية القنصلية الاجنبية ، التى تخرج صاحبها من الخضوع للسلطة الشرعية الاسلامية : وكان رحمه الله يرى عدم وجوب الحج على المغاربة لانهم لا يصلون اليه الا بركوب بواخر غير اسلامية ، وذكر مؤلف (النصيحة) فى ترجمته لنفسه فى (النبذة) ان له جوابا فى حكم الاحتماء بالنصارى ، وآخر فى (وجوب التناصر بين المسلمين على اعدائهم الكافرين) .

الشروع فى احتلال المغرب :

لم تكف فرنسا عن انتقاص المغرب من اطرافه ، واثارة الفتن والمشاكل ، وفى سنة 1310 هـ ــ 1892 م شرعت فى تنفيذ مخططها ، فهاجمت واحتلت المناطق المغربية فى غرب افريقيا . (2) ولم يلبث السلطان العظيم المولى الحسن الاول رحمه الله ان أغتيل فى طريقه من مراكش الى فاس ، وأعلن عن تعيين ولده الصغير المولى عبد العزيز رحمه الله سلطانا من غير حضور أهل الحل والعقد ؟ .

(1) انظر الحديث عنها : محمد المنونى : مظاهر يقظة المغرب .

(2) راجع : محمد ابراهيم الكتانى : مصادر تاريخ افريقيا من خلال المخطوطات المغربية مجلة (الأكاديمية) عدد 4 نونبر 1987 ص 232 ــ 238 الرباط .

وفى عهده احتلت فرنسا اقليـم شنقيط (موريطانيـا) (1) واقاليم صحراء المغرب الشرقية سنة 1900 م : عين صالـح . توات ، تدكلت ، اينغـار ، تيميمون ، الركـان ، سالى المطرقة ، ادرار ، شاروين ، الخ (2) .

7) وامعانا فى استنزاف المغرب وافقاره من الرجال والاموال ، فقد دفع الفرنسيون مغامرا اسمه الجيلالى الزرهونى (بوحمارة) للثورة ضد المولـى عبد العزيز ، مدعيا أنه الولد الاكبر للمولـى الحسن ، ومناديا بالجهاد لتحرير المناطق المحتلة !! . وكـان مستشاره الخاص مغامـرا جزائريا يزعم انه من أبناء الامـير عبد القادر الجزائرى .

ومن المهازل ان كاتبا جزائريا محترما معاصرا كتب عن هذا المغامر أنه كان يريد أن يؤسس خلافة اسلامية فى شمال افريقيا !! مع انـه هلك وهو يحـارب المجاهدين الريفيين مع الجيـش الاسبانـى !! .

ولكي ينفق المسؤولون المغاربة على مقاومة الثورة كان عليهم :

1 ـ ان يجمعوا الاعانات من الشعب ، وحتى من الطبقات الفقيرة المملقة ، مع ما كان يصحب ذلك غالبا من سوء معاملـة .

2 ـ وان يستدينوا من الاعداء الذين دبروا الثورة ، وينفقون عليها ، ويسلحونها .

فاذا توصل المسؤولون بالسلف ، جعلته الايدى المدسوسـة مغنمـا .

---

(1) راجع : محمد الامام الشنقيطى : الجأش الربيط فى النضال عن مغربية شنقيط .

(2) راجع : مارتان : اربعة قرون من تاريخ المغرب (بالفرنسية) .

واحتل الفرنسيون وجدة والدار البيضاء ، وامعنوا فى تقتيل السكــان (1) .

8) واخيرا ، ثار فى مراكش اخ حقيقى لمولاى عبد العزيز هو المولى عبد الحفيظ العالم المشهور ، وقد احيطت هذه الثورة بدعاية واسعة فى الداخل والخارج ، وهى التى بلغت أخبارها للمؤلف فى المدينة المنورة التى كان هاجر اليها بعياله سنة 1325 خوفا من استيلاء العدو على فاس ، لما رأى مخايل ذلك وأسبابه ، ثم رجع لفاس سنة 1326 بعد ما قام اهلها بخلع السلطان عبد العزيــز ، وبيعة أخيه المولى عبد الحفيظ (فاتح ذى الحجة 1325) رغبة فى قيامه بوظيفة الجهاد ، وابعاد العدو عنهم ، حسبما قال فى ترجمته لنفسه فى آخر كتابه « النبذة اليسيرة النافعة ، التى هى لاستار جملة من أحوال الشعبة الكتانية رافعة » .

تلك هى رواية أنصار هذه الثورة من المغاربة ، أما الروايــة الفرنسية ، فينقل جورج اوفيد فى « اليسار الفرنسى والحركــة الوطنية المغربية » (2) عن جريدتى . (لوراديكال) و (لابوتيت رييوبليك) ، انه ــ اى السلطان عبد الحفيظ ــ مدين لاروبا التى أجلسته على العرش .

تلك لمحة مختزلة جدا ، وشديدة التبسيط عن الظروف التى غادر فيها المؤلف المغرب ثانى مــرة ، (3) بعدما ألــف كتــاب « النصيحة » .

---

(1) راجع : بول ازان : تذكار الدار البيضاء .
Paul AZAN : Sevenire de Casablanca. 1912

(2) ج 1 ص 75 الطبعة العربية .

(3) الاولى كانت سنة 1321 بقصد الحج . أما الثالثة والاخيرة فكانــت سنة 1328 مع جميع أعضاء أسرته الخاصة الى المدينة المنورة حيث أقام بها الى سنة 1338 ثم انتقل الى دمشق وبقى بها الى ان عاد الى المغرب سنــة 1345 هـ .

شخصية مؤلف « النصيحة » :

9) ان شخصية الامام محمد بن جعفر الكتانى مؤلف (نصيحة أهل الاسلام) شخصية متعددة الجوانب ، فهو — من الناحية العلمية — فقيه ، وأصولى ، ومحدث ، ومؤرخ ، وصوفى ، وهو مدرس ، ومؤلف ، وخطيب ، ومنشىء لنصوص تعتبر من ادب الوطنية المغربية الاصيلة ، وله فى بعض المسائل آراء يوافقه فيها قوم ويخالفه آخرون .

وكان الى جانب ذلك صلبا فى دينه ، محافظا على الصلوات فى الجماعة ، متهجدا ، ذاكرا ، تاليا لكتاب الله ، عالي الهمة ، بعيدا عن الدنايا والشبهات ، متواضعا ، مهابا كريما ، ناصحا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

وكل هذه النواحى ميادين خصبة لدراسات وبحوث جامعية ، لا يتسع المجال هنا لتناولها .

ولما كانت (العزة الاسلامية) هى الروح المسيطرة على (النصيحة) التى نتناول التقديم لها ، فسنقتصر على الحديث عنها .

لقد سبق ان قلنا : ان روح الاعتزاز بالاسلام كانت تغمر قلب المؤلف ، وتملأ جوانب نفسه .

10) فما ان هاجت عواصف (فاجعة الاحتلال) حتى نادى فى القادرين على الهجرة بمغادرة البلاد فرارا بدينهم وحريتهم ، فهاجر الناس أفواجا حتى أصبحت المدينة المنورة صورة من مدينة فاس ، من كثرة من هاجر اليها من أصحاب الصنائع .

ثم ما ان علم ببيعة سلطان جديد يرجى ان يقوم بابعاد العدو حتى عاد لوطنه ، بعد ان تسابق أهل الغيرة والفضل من هؤلاء المهاجرين بأخذ نسخة من (النصيحة) عن نسخة المؤلف ، ونقلها الى فاس حيث تم طبعها يوم 20 شعبان ، 1326 هـ (17 شتنبر

1908 م) أى بعد مرور ثمانية أشهر وعشرين يوما من بيعة المولى عبد الحفيظ ، وكان يرجو ان ينتفع الناس بها فى عهد السلطـان الجديد .

ثم عاد المؤلف لمغادرة المغرب نهائيا بصحبة عائلته الى المدينة المنورة التى دخلها فى أول شعبان 1328 ، (1910/8/8 م) ، بعد ما زاد الخوف من استيلاء الاعداء على المغرب .

11) وحدث انه لما مر بطنجة فى طريقه الى الحجاز فى رحلته الثانية ، زاره القاضى احمد سكيرج الفاسى — الداعية التجانى المشهور — وذكر له القوة التى شاهدها فى احدى البواخر الحربية الاجنبية ، فأشار عليه المؤلف أن لا يحدث أحدا بذلك خشية دخول الفشل فى القلوب ، وعندما أورد ذلك سكيرج أثناء ترجمته للمؤلف فى فهرسته : « قدم الرسوخ فيما لى من الشيوخ » عقب عليـه بقوله « .. وفاته رضى الله عنه ، ان المدافعة بغير المقابلة بما هو اعظم !! من قبيل القاء الناس انفسهم فى التهلكة !! » .

وهنا تاتى قولة سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام عندما خرج من الشام قاصدا مصر ، ولحق به من حاولوا ارجاعه الى الشام : يا قوم ، انتم فى واد ، ونحن فى واد .

لمـاذا الهجـرة ؟

12) يقرر الفقهاء ان من احتل العدو أرضهم ، وعجزوا عن الدفاع عنها ، يجب عليهم الهجرة منها الى ارض الاسلام التـى يأمنون فيها على دينهم وانفسهم ، وقد ألف فى الموضوع الفقيه المالكى الكبير أبو العباس أحمد بن يحيـى الونشريسى الاصل ، التلمسانى المولـد والطلب ، الفاسى الاقامة والتدريس والتأليف والوفاة (سنة 914 هـ) كتابا سماه (أسنى المتاجر ، فى بيان احكام من غلب على وطنه الكافر ولم يهاجر) ، وقـد أورده بنصه فى

موسوعته الفقهية الحافلة « المعيار المعرب » ج 2 ص 119 – 136 طبعة بيروت 1401 هـ (1) .

13) ذكر الامير شكيب ارسلان رحمه الله فى رسالته « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » – وهو نفس موضوع (نصيحة أهل الاسلام) – انه زار المدينة المنورة رفقة صديقه السيد الامام محمد رشيد رضا ، صاحب المنار ، رحمه الله ، وقاما بزيارة مؤلف (النصيحة) فى بيته ، واثناء الحديث ذكر لهما الحديث النبوى الذى لم يكونا على علم به : « يوشك ان تتداعى عليكم الامم كما تتداعى الاكلة الى قصعتها ، .... بحبكم للدنيا ، وكراهيتكم للموت » ، انه الهم المقعد المقيم الذي يملأ على ثلاثتهم جوانب أنفسهم ، رغم اختلاف مناحى تفكيرهم .

14) فى أثناء الحرب العالمية الاولى انتقل المؤلف من المدينة الى دمشق الشام ، ولما ثار « الغازي » – كما كان يسمى نفسه – مصطفى كمال ضد اليونانيين فى الاناضول بعد انتهاء الحرب ، أشار عليه موجهه – قبل ان يطرده – المجاهد الكبير السيد أحمد السنوسى الشريف رحمه الله ، ان يستدعى المؤلف من الشام ليدعو الجيش بالانتصار عند الدخول فى احدى المعارك ، فارسل لدعوته وفدا صحبه وحاشيته الى تركيا ، ودعا للجيش .

---

(1) الحكم الفقهى هذا ليس على اطلاقه ، بل هو مقيد بطبيعة ظروف كل حالة ، فتجب الهجرة على جميع المسلمين ، فى مثل ظروف ما بعد سقوط غرناطة ، وعزم النصارى على ارغام المسلمين على التنصر والا واجهوا التعذيب والابادة ، وتحرم الهجرة اطلاقا فى مثل ظروف المسلمين عند احتلال اليهود لفلسطين الا عند الضرورة القصوى ، وتجب على العلماء والقادة السياسيين حتى لا يقعوا فى اسر العدو ويستعملهم للضغط والتأثير على شعوبهم ، كما هى وضعية المغرب والبلدان التى وقعت تحت الاحتلال الاستعمارى ، وهذا التقييد هو المطابق لمقاصد الشريعة كما لا يخفى .

(ادريس الكتانى) .

وكــان المجاهدون فى جبال الشام ضــد الاحتلال الفرنسى ، ينزلون فى الليل الى دمشق ، ويزورون المؤلف فى منزله يطلبون منه الدعاء ، فيوصيهم ويثبتهم ويدعو لهم بالنصر .

وعندما قامت حرب التحرير الريفية بقيــادة تلميذ المؤلف البطل السيد محمد بن عبد الكريم الخطابى الريفى رحمه الله . كانت المراسلات بينهما متواصلة ، ولو نشرت تلك الرسائل — ان كانت محفوظة — اكانت فائدتها لا تقدر بالنسبة لموضوعنا .

وان اعظم تكريم يمكن ان يناله المومن بعزة الاسلام ، أن يشهد له عدو بلاده المحتل لها ، أنــه كان معاديا له ، وتلك هــى الشهادة التى ادتها جريدة لوطان (Le temps) الباريسية شبــه الرسميــة عندما أوردت نبــا وفاتــه (15 رمضــان 1345 هـ 1927/3/19) قائلة : « لقد مات أكبر عــدو لفرنسا بالمغرب » رضوان الله عليه .

دور النصيحة فى اوساط المجاهدين المغاربة :

قبل ان أشير الى صدى هذا الموقف النبيل لمؤلف (النصيحة) فى نفوس المسلمين عموما ، والمغاربة بوجه خاص ، انبه الى الدور الذى ساهمت به (النصيحة) فى معركة التحرير بالمغرب .

1 — فى حرب التحرير الريفية :

أخبرنى خطيب الثورة الريفية وأحد مسيريها الفقيه محمد بن على الريفى المعروف ببولحيــة رحمه الله — وهو من تلامــذة المؤلف — عندما اجتمعت به فى منفاه بأسفى ، أنه كان يستعمل فى توجيه الجماهير الريفية كتابين : « نصيحة أهــل الاسلام » ومجموعة العروة الوثقى لجمال الدين الافغانى ، حيث كان يقرأ فصولا منها فى التجمعات الشعبية .

2 — فى معارك الاطلس :

ورد فى كتاب « الكفاح المغربى المسلح فى حلقات » 1900 — 1935 ، لمحمد المعزوزى وهاشم بن الحسن العلوى ، ص 197 — 199 ، منظومة فى 76 بيتا بعنوان : (عبرة أولى الابصــار ، فى وجوب الهجرة من أرض الكفار) ، وفيها 6 فصول ، جاء فى الفصل السادس منهــا :

مقلــدا لليثنــا الغضنفــر — سيدنــا محمــد بن جعفــر
العــارف المحقــق الربانــى — الحسنى المعروف بالكتانـــى
لانـــه ذكــر فى (النصيحة) — كفايــة لمــن لـــه قريحـــة

وجاء فى آخرها :

نظمــه محمد بــن الحســن — مرتجيا مغفــرة المهيمــن

ولم ترد فى الكتاب ترجمة لمحمد بن الحسن هذا رحمه الله ، وكم فى المغرب من جنود مجهولين رحمهم الله .

3 — فى الحركة الوطنية المغربية :

اذا كانت النصيحة — فى عمقها — تهدف — كما قدمنا — الى الحفاظ على العــزة الاسلامية ، ومحاولة الحيلولة دون وقــوع الفاجعة التى وقعت يوم 30 مــارس 1912 المشئوم بتوقيــع المعاهدة اللعينة ، التى كانت انتصارا للصليب ضد الاسلام ، فان اعلان بطل التحرير محمد الخامس رحمه الله يوم 18 نونبــر 1955 ، عند عودته من منفاه منتصرا مظفرا ، بانتهاء عهد الحجر والحماية ، وبزوغ عهد الحرية والاستقلال ، كان انتصارا (للعزة الاسلامية) ضد الصليبية الطاغية ، ذلك الاعلان ، الذى كان فى الواقع تتويجا للمسيرة البطولية التى سارتها (الحركة الوطنيــة المغربية) السرية ، التى أسسناها سنة 1925 ، حيث عاهدنا الله امام المصحف على ان نوقف حياتنا على العمل لاستقلال بلادنا ،

والتضحية فى هذا السبيل ، أى عودة العزة الاسلامية الى وطنها السليب ، وهكذا توالدت « الخلايا » السرية فى كل مكان ، وانطلق فقهاء المسلمين لتدريس السيرة النبوية ، وغزوات الرسول وخلفائه الراشدين ، للطلبة والجماهير ، فى المساجد والبيوت ، لا التماسا لبركاتها كما كان الناس يفعلون من قبل ، ولكن لاتخاذ الاسـوة الحسنة منها كما أمر الله ، وذلك فى نطاق عملية (نقد ذاتى) جريئة وشاملة ، لا يتسع المقام هنا للتوسع فى شرحها .

لقد ظلت جذوة الجهاد والمقاومة والتضحية ، التى ورثهـا الشعب المغربى ، جيلا عن جيل ، والتى أججتها (النصيحة) وعمقت أثرها فى فكـر علماء جامعة القرويين ، وفقهـاء المغرب ورجالـه المخلصين يومئذ ، مشعلا وهاجا أضاء طريق الكفـاح الوطنى ، كأسلوب جديـد للمقاومة ، بعد ثلاثين عاما من الجهاد المسلـح الاسلامى ، ليعلن فى النهاية انتصاره على قوى الاستعمار الصليبى ، ويحقق للمغرب السيادة والوحدة والاستقلال .

العـودة الـى الوطـن :

فى صبيحة ثانى عيد المولد النبوى 13 ربيع الاول 1345 هـ (1926/9/21) وصلـت الباخرة التـى تربط بـين مرسيليا والدار البيضاء وعلى ظهرها السيد الشيخ محمد بن جعفر الكتانى وأعضاء أسرته ، بعد غيبة استمرت حوالى 17 عاما ، وكان قد رافقنى لاستقباله صديقى الاخ محمد غازى رحمه الله ، حيث حضرت جماهير غفيرة من مختلف المدن المغربية لاستقباله ، ونزل ضيفا بدار فى شاطىء البحر قرب ضريح سيدى عبد الرحمن ، وكانت اذ ذاك منطقة غير مسكونة ، وظل الناس يتواردون للسلام عليه نهارا وليلا من كل انحاء المغرب ، طوال الايام التى قضاها هناك ، ولما علم سكان فاس بموعد وصوله اليها ، هرع الناس للتجمهر خارج (باب الفتوح) لاستقباله والترحيب به .

وتأتى الرؤيا المنامية لتتدخل فى الموضوع ، فقد أخبرنى شيخنا العلامة النوازلى سيدى عبد الرحمن الشفشاونى رحمه الله ، انه كانت له أرض فلاحية خارج (باب الفتوح) بالقرب من « اللويزات » ، فرأى فى منامه ليلة انه سار الى أرضه المذكورة ففوجىء بعين جارية لم يكن يعرفها هناك ، ولما سأل عنها قيل له انها كانت هناك من قبل ، ثم غارت ، وها هى عادت اليوم الى مجراها ، فاستيقظ وهو يتذكر الرؤيا ، وخرج فى ذلك الصباح على عادته ، متجها الى ارضه ، فوجد الناس متجمهرين فى « باب الفتوح » ، فسأل عن السبب ، فقيل له : ان سيدى محمد بن جعفر الكتانى قد عاد من المشرق الى المغرب وان الناس هناك تجمعوا لاستقباله ، فقال فى نفسه : هذه هى العين التى غارت ، ثم عادت لمجراها .

ومن الجدير بالذكر ، ان شيخنا الشفشاونى لم يكن من الذين يتاجرون بالمراءى ، كما انه لم تكن تربطه أى رابطة فكرية بالشيخ محمد بن جعفر رحمه الله ، وانما هو التقدير الكبير الذى كان له فى نفوس من يعرفونه ومن لا يعرفونه ، وانما يسمعون به عن بعد .

هذا ، وقد تذكرت بالمناسبة ، ان صديقى الاخ علال الفاسى رحمه الله قد رافقنى الى (باب الفتوح) لاستقبال القادم الكريم، والسلام عليه، بعد ما عدت من استقباله فى الدار البيضاء، وكان يحمل فى يده العدد الذى وصل لفاس ذلك الصباح من جريدة (الشهاب) التى كان يصدرها بقسنطينة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله ، وفيه مقال للاخ علال بعنوان : « اليك رسول الله » كتبه بمناسبة ذكرى المولد النبوى ، وفيه يستعرض صورا مما آل اليه سوء حالة المسلمين ، وقال لي رحمه الله : « لقد حرصت على ان لا أقول فيه شيئا لا يرضى عمك » .

لقد اهتزت فاس هزة عنيفة لرجوع الامام الذى آمن بالعزة الاسلامية ، ودعى للمحافظة عليها ، فتقاطر الناس للسلام عليه ، والاحتفاء به طوال الستة أشهر التى عاشها بعد عودته ، وتقاطرت الوفـــود مـــن مختلف مـــدن المغـــرب وقراه ، وخصوصا مـــن تلامذته والآخذين عنه ، وتجلى ذلك بوجه خاص ، عندما شرع فى تدريس « مسند الامام أحمد بن حنبل » فى جامع القرويين ، حيث كان يمتلىء عن آخره — رغم سعته — كما يقع عند صلاة الجمعة . كما تجلى فى جنازته يوم وفاته ، وكانت جنازة خارقة للعادة ، لم تشهد فاس لها مثيلا .

ومن الواضح ان هذا التقدير الكبير الذى لقيه المؤلف مـــن الجماهير الشعبية لا يستطيع تحمله العدو الصليبى المحتل ، فهو لم ينس ثورة فاس المسلحة . بعد التوقيع على المعاهدة الملعونة ، والتى قمعها جيش الاحتلال بوحشية فظيعة ، لم ينسها السكان بعد ، وما تزال فى البلاد مناطق شاسعة تحمل السلاح ، وتقاوم الاحتلال ، لذلك كان حذرا ، ولم يعطه السكان فرصة للتدخل .

رحم الله مؤلف (النصيحة) رحمة واسعة ، وجزاه عن خدمة الاسلام والمسلمين خير الجزاء .

محمد ابراهيم بن احمد الكتانى

(ابن اخى المؤلف)

مدخل

بقلم ابن المؤلف : الدكتور ادريس الكتانى

« نصيحة أهل الاسلام » ليست فقط كتاب تعريف بالمبادىء والاسس التى قام عليها بنـــاء المجتمع الاسلامى ، والدولـــة الاسلامية ، وتحذير من أخطار الانحرافات التى حدثت ، واستمر حدوثها فى العالم الاسلامى ، دون استيعاب دروسها ، والاسفادة من تجاربها ، ولكنها نتيجة دراسة اجتماعية اسلامية متعمقــة واعية ، لواقع المجتمع الاسلامى عمومــا ، والمجتمع المغربــى بالخصوص ، فى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى ، (أواخر القرن 19 م) . وخلال عهد السلطان المولى عبد العزيـــز (1311 — 1325 هـ) والسلطان المولى عبد الحفيظ (1325 — 1330 هـ) آخر سلاطين عصور الدولة المغربية ، ذات السيادة الكاملة منذ الفتح الاسلامى ، الذى تنازل عن عرش المغرب بعد اربعة اشهر و 17 يوما من توقيعه معاهدة الحماية الفرنسية فى 11 ربيع الثانـــى 1330 هـ (1912/3/30 م) . هذه الدراسة الفريدة بنوعيتها فى تاريخ الدراسات الاسلامية المعاصرة ، قامت بتحديد أسبـــاب وعوامل سقوط « جسم الدولة الاسلامية » انتهت باكتشافنا لـــ « نظرية السقوط » الاجتماعية التى سنتحدث عنها فيما بعد .

و « النصيحة » ـــ كمفهـــوم اسلامـــى فريد ، بمحتوياتـــه الاجتماعية والتربوية والتشريعية والسياسية ـــ تعتبـــر رأس الدين ، وأساس الاسلام ، ولذلك يوجبها الاسلام على جميـــع المسلمين ، ليتحملـــوا مسؤولياتهـــم ، بصفـــة ايجابية ، كأفراد وجماعات ، فى معارضة أى انحراف أو منكر يحدث فى مجتمعاتهم

ويقول المؤلف رحمه الله عن هدفه منها ، كما جاء فى خاتمتها :

« وقد كتبت هذه (النصيحة) قاصدا بها جميع أهل الآفاق من كل المسلمين على الاطلاق ، وخصوصا أهل مغربى ، لكونهم جوار مكسبى ، وأنا اعلم ان الوقت ولابد غير مساعد ولا راض وان الزمان زمن الامارات المؤذنة بالانقراض ، ولكن رجوت النفع بها ولو لبعض الناس ، ممن اراد الله تطهيرهم من الارجاس ، ولم آيس من حصوله للجم الغفير ، أو القطر الكبير ، وربنا على كل شيء قدير .

وقصدت أيضا اظهار العلم والخروج من الكتمان ، وابداء عدم الرضى بما حل فى الزمان ، والاداء لبعض ما يجب من الانكار ، والتغيير والانذار ، على حسب الطاقة والامكان ، وهل يلام اذا أدى بعض ما يجب عليه الانسان ؟ » .

واهتم صاحب « النصيحة » بتحليل « الخلل والعطب الذى أصاب المجتمع الاسلامى » حكومات وشعوبا ، ويركز على أحد عشر خللا خطيرا ، عطل جهاز ومسيرة الدولة الاسلامية من وجهة نظر التفسير الاسلامى ، مدعما ذلك بنصوص القرآن والسنة ، وأقوال العلماء والحكماء ، وتجارب التاريخ القديم والحديث ويقصد من خلال هذا التحليل الذى يتناول فيه موضوعات شديدة الاهمية والحساسية ، الى تنمية شعور المسلم بالاعتزاز بنفسه وبكرامته كمواطن ينتسب الى الامة الاسلامية ، وتقويم سلوكه الاجتماعى تقويما تربويا ، وتصحيح مفاهيمه ومواقفه لتصبح اسلامية فى كل الاحوال .

كما اهتم بالاصلاح الاجتماعى بصفة ملحة ، على اعتبار ان أى تقدم أو نهوض لا يمكن ان يتحقق مع تولية الجهال بشؤون واحكام الشريعة ، وانتشار الرشوة ، وشراء الضمائر ، واتباع عوائد الكفار ، والتمذهب بمذاهبهم ، والعمل بقوانينهم ، وسياساتهم الكفرية .

ونظـرا لظـروف التخلف والانحطاط التـي تعيشها هـذه المجتمعات ، بما فيها المجتمع المغربى ، كان من رأيه عدم الاعتماد فقط على عسكر السلطان ، بل يجب تعبئة الشعب كله ، واعداده اعدادا كاملا ليكون القوة المعنوية والمادية الجاهزة دائما ، لدعم جيش السلطان عند الحاجة .

وقد عدد المؤلف فى أول المبحـث العاشر 37 من المنكـرات والمعاصى الشائعة فى المجتمع الاسلامى ، ولكنه جمعها فى عامل واحد من عوامـل سقوط الدولة تحت عنـوان : « التجاهـر بالمنكرات » ، ولم يشغل نفسه بجزئياتها ، لاهتمامه ب (جسم الدولة) وسياسة الحكم والمال والادارة والحرب ، وكان يبدو شديد الحساسية ضد استبداد الحكام ، وطغيانهم ، واذايتهم الناس ، حيث يلح على تنديد الاسلام الشديد بالظلم والتسلط والافساد ، ويذكر بكرامة المومن ، وان كل المومنين هم أولياء الله ، لقوله تعالى : « الله ولي الذين آمنوا » ، وان كل أخطاء الناس قابلة لمغفرة الله ، الا الشرك بالله ، وظلم الناس ، ويذكر دائما بالقانون الالآهى فى تعامله مع الحكام : اذا طغوا وفسدوا ، سلط الله عليهم العدو ، فكدر معيشتهم ، وأفسد عليهم عيشهم ، وتجرأ عليهم بالاذلال ، وأخذ البلاد والاموال ، وربما أدى ذلك عنـد تماديهم على الطغيان ، الى استئصالهم ، واستيلاء العدو على جميع ما بأيديهم .

وفى « النصيحة » اشارات كثيرة للاسباب المنذرة باحتلال المغرب، كالتهاون فى أخذ الاستعدادات الحربية، والادارية، المادية والمعنوية ، مع ان الخطـر كان ماثلا ومتوقعا خـلال عشرات السنين ، بل منذ احتلال الجزائر .

اهتمام العلماء والباحثين بالنصيحة :

اهتم بكتاب « النصيحة » عدد من العلماء والباحثين المغاربة

نقتصر الآن على ذكر بعضهم فيما يلى :

1 — ذكر الاستاذ المرحـــوم عبد الله الجرارى فى كتابــه « الحافظ الواعية محمد المدنـــى ابن الحسنى » (1) ان شيخــه المذكور ، وهو من أكبر علماء الرباط ، « كتب سنة 1327 هـ — 1909 م شرحا على « نصيحة » العلامة المحدث المؤرخ المرحوم محمد بن جعفر الكتانى ، وهذه « النصيحة » قدمها للمسلمين فى مشارق الارض ومغاربها سنة 1326 هـ بالمدينة المنورة .. وبعد سنة من نشرها اشتغل شيخنا بشرحها ، فجاءت فى أربع مجلدات ضخام مؤلفة من (مائة وأربعة كراريس) استغرق فى شرحهـا اربعة عشر شهرا ، وأتى فيهـا بالآيات البينات ، باذلا طاقتــه العلمية والفنية بحثا وبيانا ووضعا وترتيبا ، وجعل منها معلمة أو دائرة معارف يتردد على فصولها من آونة لأخرى ، ويستفتيها فيما يعترضه من غوامض تسترعى مزيد البحثِ والتثبت ، ونجده غير واقف عند حدود الشرح ، بل تخطى ذلك فصاغها نظمـــا سلسا سهلا فى قالب من مشطور الرجز يقول فى خاتمته :

شـــرح النصيحـــة بـــدا كأنـــه بـــدر هـــدى
لاتيـــه فى تاريخـــه شـــرح النصيحـــة بـــدا

ومن اللطائف البيانية ان التكرار لم يأت عبثا يبعده عن فنيته الهادفة ، بل وقع ليرتب عليه تاريخ وضع الشرح بطريقة أبجدية (لاتيــه فى تاريخــه) فاذا ما جردتـــه حرفا كـــان التاريـــخ (1327 هـ) » .

وقد عبر الاستاذ عبد الله الجرارى بعد ذلك عن أسفه الشديد لكون هذا الشرح والنظم للنصيحة لم ير النور بعد .

2 — خصص صديقنا المؤرخ الباحث الأستاذ محمد المنونى

---

(1) من سلسلة « شخصيات مغربية » : مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة 1397 هـ — 1977 م ص 68 .

فى الجزء الثانى من كتابه : « مظاهر يقظة المغرب الحديث » (1) نحو عشر صفحات للتعريـف بكتاب « النصيحة » ، والتنويـه بقيمته العلمية ، ودعوته الاصلاحية .

3 ـ كما ان الدكتور عبد الله العروى خصص أحد الفصول من اطروحته باللغة الفرنسية : الاصول الاجتماعية والثقافيـة للوطنية المغربية ، (2) لتقديم عرض عن المباحث الاحدى عشرة للنصيحة ، بطريقة مخالفة لادراكنا واحساسنا نحن كقرائها بلغتها العربية ، ومتجاوبين معها كمسلمين ، العروى كان يفهمها ويعبر عنها بفكر ومنطق اللغة الاجنبية التى كان يترجمها اليها ، وبعبارة أوضح ، كان يقـرأ نصوصها كلغة أجنبية عـن فكره ، ويستهلك معانيها وأفكارها مثلما يستهلك (فاقد حاسة الشم والـذوق) الطعام ، يؤدى به الوظيفة الحياتية (البيولوجية) للاكل ، لكنه يفتقد متعة التذوق الانسانية . يقول فى بداية هذا العرض :

« من خلال هذا الخطاب ، يقف الباحث موقف اللائم ملاحظا ان كل المصائب التى يعانى منها اخوانه فى الاسلام ، نابعة مـن تنكرهم للاسلام ، « يا أمة محمد ان الكفار لا يتركون أية فرصة لاضعافكم ... » ومن تعليقاته على بعض فصول الكتاب :

« فى الفصل الاول يركز الكتانى على محاسن الوحدة ومساوىء التفرقة التى يشجعها بكـل الوسائل ، وفى كل الازمنة ، اعـداء الاسلام ، كما يرفض باصرار فكرة الخلاص الفردى التى يدعو اليها « المتدينون » ، فاذا تعاطى الكل الى التجديد ، ألا تصبـح

---

(1) مطبعة الامنية بالرباط سنة 1973 واعيد طبعه فى بيروت .

(2) Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830 -1912) Paris, 1977.

هذه الامة مرادفة (للطائفة الصالحة) التى يمكنها ان تنتصر حسب الحديث الشريف على فرد واحد ؟ ، هذا ما يمكن ان نفهمه من الفصل الاخير ، ومن خلال هذا النموذج ، يمكن تشخيص المسار الذى مر به أهل الدين من منتصف القرن الى حدود الحماية.

يمكن ملاحظة التباس آخر فيما يخص الموقف العملى الذى يجب ان يتخذه المسلم المومن ، فالعدو الكافر يريد ابدال القانون الالآهى بقانون قيصر ، ومع ذلك فهو نفسه اداة للعدالة الالآهية ، فلا يمكن للحكام ان يدافعوا عن الاسلام الا اذا اطيعوا ، هذا مع العلم أنهم أنفسهم يخالفون الشرع ، فكيف يمكن التصرف ؟

الكتانى يجد الحل مؤكدا « غيروا سلوككم والله سينصركم على ظلمتكم فى الداخل ، واعدائكم فى الخارج » ....

والواقع انه لا يعارض بنفس الحجم كل الناس ، فله عدو رئيسى وهو التاجر الذى اغتنى من تجارته مع الاروبيين ، أو الذين تعاقدوا مع الاروبيين فى المغرب ، هذه الملاحظة يؤكدها الاسلوب الذى يستعمله الكتانى عندما يتكلم عن « قيم الترف » ، والمكانة المركزية التى يحتلها فى الكتاب مشكل مصاحبة الكفار ، فالتجار هم الذين اضعفوا روح الجهاد لأنهم جشعون ، وتدخل النموذج الاجتماعى مخالف للمثالية الاسلامية ، فهذه الطبقة هى التى تضعف المجتمع لانها بسبب حبها للمال تسمح الاروبيين بإفسادها . ولأنها تتعاقد معهم ، تتعلم لغتهم ، تثق فى علمهم ، وتفضل قوانينهم، فالتجار الاغنياء هم وكلاء وعملاء الأجانب » ؟!.

هذه نماذج من ملاحظات العروى على النصيحة ، نترك

لقرائها اليوم الحكم عليها ، بل لا اذكر ان كلمات التاجر والتجار وتعاقدهم مع الاروبيين ، جرى ذكرها فى النصيحة ، وكذلك القول بان التجار هم الذين اضعفوا روح الجهاد ؟ !

ولاشك ان المسافة طويلة جدا بين نظرة عالم اسلامى كبير كالشيخ محمد المدنى ابن الحسنى للنصيحة ، ونظرة باحث ماركسى علمانى كالدكتور عبد الله العروى .

الظروف التاريخية التى فرضت صدور « النصيحة » :

كتب اخى العلامة المرحوم الشيخ محمد الزمزمى الكتانى فى مذكراته التاريخية الهامة عن حياة والدنا يقول :

« ... وجلس على سدة الحكم سنة 1290 هـ السلطان الصالح الحسن بن محمد بن عبد الرحمن ، فأحكم فى الملك وأحسن فيه ، الا انه تولى الحكم بعده ابنه الصغير السلطان عبد العزيز سنة 1311 هـ ، فحكم وزيره الوصى عليه أحمد بن موسى (اباحماد) باسمه ، لكنه لما مات فى محرم سنة 1318 هـ ساءت الاحوال وتغلب الفرنسيون على نواح من البلاد ، فحاول أهل فاس (سكان عاصمة المغرب يومئذ) مقابلة السلطان ، وراموا التوصل الى ذلك باعيان العلماء ، وقصدوا سيدى الوالد ، فكانوا يترددون عليه فرادى وجماعات ، فى حالة من الهياج والتمرد ، لكنه لم يلتفت الى كلامهم ، ولم يعول على شىء من اخلاقهم ، فلما تكرر طلبهم ، وتفاحش أمرهم ، قال لهم مجيبا :

« نحن العلماء سيوفنا السنتنا ، فان شئتم قصدت السلطان ،

وقابلته ، وذكرت له انتقاداتكم عليه ، ومضاركم منه ، وأخبرته بما وصلت اليه الحالة ، وما هو عليه المغرب من الفوضى والانحلال ، مما يخشى ان يكون سببا لتدخل العدو » ، فاتفقوا على هذا الرأي .

ثم ان الوالد استأذن السلطان فى الدخول عليه ، وابداء النصائح اليه ، على شرط ان لا يستعمل معه شيئا من الرسوم المخزنية المعتادة ، فقبل منه السلطان ذلك مغتبطا ، وعقد له موعدا، وهو صبيحة يوم الخميس ، حيث لا مخزنية ولا احكام ، فذهب الوالد فى الموعد المحدد ، ودخل على السلطان مولاى عبد العزيز المذكور ، فاقتبله بخير اقتبال ، وهش وبش ، وعامله بكل حفاوة واكرام ، واحترمه غاية الاحترام ، واهتبل به أى اهتبال ، وظل معه اليوم كله ، وكان السلطان يصغى لنصائه وارشاداته بكل تعطش ، ويستفهم ما لم يفهمه ، ويسترشد عما خفي ، فلم يدع رضى الله عنه شاذة ولا فاذة الا ذكرها ، ولا شيئا مما فيه النصح للأمير والمسلمين ، وتقوية شأنهم الا وقرره ، ولا ما يوهن الدين ، ويضعف شوكة المسلمين الا ذمه ونفر عنه ، وحذر منه .

وبدأ الوالد حديثه مع السلطان ، بعد ان تبادل معه التحية والسلام كالعادة ، قائلا : جئتك لثلاثة أمور :

الاول : لزيارتك والتبرك بك ، واظهار الطاعة لك والمحبة ، فأجابه السلطان : هذا شىء لا شك عندنا فيه . ثم قال الوالد :

ثانيها : أداء أمر قلدنا الله اياه ، وجعله فى عنقنا ، ولم يقبل منا فيه عذرا ، وهو النصيحة لله ولرسوله ولكم ، قال عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

ثالثها : اخباركم بما هو واقع مما قديكون مكتوما وغائبا عنكم ، وهو شىء أنكره عليه السكان من الاجانب الذين

يجدونه وسيلة لاحتلال البلاد ، والاستيلاء عليها ، وعاب عليه أيضا تسليم قطر توات لفرنسا ، والسكوت عن احتلال وجدة ، واهمال حياطة المسلمين والتفكير فى المحافظة عليهم .

واستغرق مع السلطان سائر النهار ، يأكل معه ويشرب ويصلى ، وقد اخبره بجميع ما هو واقع فى المملكة ، وما الأمة عازمة عليه ، ان ظل الحال على ما هو عليه ، فكان السلطان يصغى لنصائحه ومواعظه ، وكان مما قال له السلطان :

هل يساعدنا الناس ؟

فأجابه بقوله :

ان علم الناس ان كل ما يدفعونه سيصرف فى سبيل اعلاء كلمة الله ، وحفظ المغرب ، وان دفعتم اموال المسلمين لمن يستحق القيام عليها ، ويصرفها فى مصارفها ، فأموالنا وأموال المسلمين كلها لله ولرسوله ولكم ، وأنا أول من يدفع كل ما املكه ، وهو دار سكناي وسكنى أولادى ، ادفعها لبيت المال ، واذهب بعيالى لمصلى فاس بباب الفتوح (1) ، أدق فيها خباء الى جوار اهلى ، اما بقية اموال المسلمين فنحن المتكلفون بها ، وان كانت أموال المسلمين ستدفع لمن يستعين بها على معصية الله ، وما لا يرضاه ، فسوف لا يعطى أحد شيئا .

ثم قال الوالد للسلطان :

لا تقسر المغرب على المشاق ، فالمغرب جاء محمولا على رأس النبي صلى الله عليه وسلم وكتفيه ، بخلاف المشرق ، فانه جاء مدفوعا الى قدمى النبى ، فتعجب السلطان من ذلك وقال : ما سمعت به قط ! ،

---

(1) باب الفتوح أحد ابواب مدينة فاس ، وخارجها مقبرة كبيرة فى اعلاها مصلى العيدين ، وبها عشرات القبب المبنية على اضرحة الاولياء والعلماء بينها قبة اجداد الاسرة .

ثم قال الوالد :

جاء عن جدك عليه السلام انه قــال : ان الله ما بعث نبيــا ولا خليفة الا وجعل له بطانتين : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تالوه خبالا ، ومن يوق بطانة السوء فقد وقي .

فقال له السلطان :

أخبرني عن رأيك في هؤلاء الوزراء ، يعنى وزراءه وارباب دولته ، ونظره فيهم صلاحا وفسادا .

فقال له الوالد :

الناس يقولون : عقول الملوك ملوك العقول ، فكل من رأيتموه من ارباب الدولة يهتم بأمور المسلمين ، ويسعى فى صلاحهــم ، ويبذل قصارى طاقته فى نفعهــم ونجاحهم ، وكمال استقلالهــم قربوه وأعينوه ، وخذوا بيده واجعلوه واسطة عِقد دولتكم ، ومن كان عدا ذلك فاضربوا به عرض الحائط ، ونزهوا ساحتكم عنه وعن امثالــه .

كتاب (النصيحة) وجه أولا للسلطان عبد العزيز :

وأخيرا قال الوالد للسلطان :

انى كتبت لكم (نصيحة) هامة ، ان عملتم بها أغنتكم ، يعنى بها كتابــه المسمى « نصيحة اهــل الاسلام فى مشارق الارض ومغاربها الخاص منهم والعام » والتى لما اطلع عليها بعض اعيان العلماء العارفين قال عنها : ما أحقها ان تسمى « الدين الخالص » ضمنها الوالد أحد عشر سببا من الأسباب التى استوجبت انحطاط المسلمين وتدهورهم ، ثم اعقب ذلك باضدادها من أسباب النجاح .
فقال له السلطان :

اجعلها فى ظرف ، واطبع عليها باسمى طابعك الخاص لكــى

لا تفتح ، ففعل ، وارسل منها نسخة له ... الى ان قال : ففرح السلطان بذلك » .

بعد هذه المقابلة ، يبدو ان الاحداث تطورت بسرعة وزادت سوءا ، ولم يظهر فى الافق ما يدل على الاصلاح أو التغيير ، فعزم الوالد على الهجرة بعياله للحج سنة 1325 ، (وهى حجته الثانية الاولى كانت سنة 1321) « خوفا من استيلاء العدو على فاس ، لما رأيت مخايل ذلك واسبابه » كما جاء فى ترجمته لنفسه ، « واقمت بالمدينة قريبا من السنة ، ثم رجعت الى فاس بعد ما قام اهلها على السلطان المولى عبد العزيز ، ونصروا أخاه المولى عبد الحفيظ رغبة فى قيامه بوظيفة الجهاد ، وابعاد العدو عنهم » (1) .

كانت بيعة السلطان عبد الحفيظ بالعاصمة فاس يوم فاتح ذى الحجة عام 1325 ، الا ان انقلابه على أخيه السلطان عبد العزيز بدأ قبل هذا التاريخ بخمسة أشهر ، حسب الوقائع التالية :

ـ بعد احجام حكومة السلطان عبد العزيز عن الدفاع عن وجدة والدار البيضاء ، وتركها الجيش الفرنسى يواصل عمليات الاحتلال بمنطقة الشاوية ، أعلن المولى عبد الحفيظ ، خليفته بمراكش ، عن استعداده للدفاع عن البلاد ، فبادر سكانها الى خلع أخيه المولى عبد العزيز وبيعته يوم الجمعة 6 رجب 1325 »

ـ انتهز ممثلو احياء العاصمة فرصة خروج السلطان عبد العزيز لحرب أخيه المبايع بمراكش ، فكتبوا رسالة لهيأة كبار العلماء بفاس يعددون فيها مواقف ضعف حكومته عن الدفاع لحماية البلاد ويستفتونهم فى جواز خلعه ، جاء فى طليعتها :

(1) من ترجمته الذاتية لنفسه فى كتابه الخاص بتاريخ الاسرة الكتانية ، وهو ضمن قائمة مؤلفاته المذكورة فى ملحق خاص آخر هذا الكتاب .

« وبعد فلا يخفاكم ما حل بهذا القطر المغربى من احتلال بعض الاجانب جل نواحيه ، كتوات وفجيج وعيون بنى مظهر ومدينة وجدة وثغر الدار البيضاء ، موضعا بعد آخر ، احتلالا نشأ عن اختلال الاحكام ، وتقاعد الولاة عن الاستعداد ، وموالاتهم لبعض أجناس الاجانب ، حتى عقدوا معهم شروطا تؤدى الى ادخال المسلمين تحت حكمهم ، وبسط يد التصرف لهم فى سائر القرى والامصار ، بما تسبب عنه من اسقاط الاحكام الشرعية ، كابدال الزكاة بالترتيب (ضرائب على الانتاج الفلاحى) ، واحداث البنك المؤدى الى ادخال الربى فى سائر المعاملات ، وغير ذلك مما هو معلوم ، لدى الخصوص والعموم ، كاستلاف الاموال العظيمة من الاجانب وصرفها فى غير مصالحها ، زيادة على خلاء بيت مال المسلمين بعد عمارته ، وانزال البوليس ببعض المراسى الذى من اعظم دواهيه سلب السلاح من يد كل مسلم ، وغير ذلك من الامور التى يعلمها كل واحد من ابناء الايالة المغربية ، كتجهيز جيش وتوجيهه لمقاتلة الغزاة اهل قبيلة الشاوية ، اعانة لجيش احتلال الدار البيضاء ، وانتصارا له .. » .

ـ عزز ممثلو فاس ، وعددهم 25 عضوا ، استفتاءهم السابق بشهادة وقعها أكثر من مائة شخص من اعيان فاس وشرفائها ورماتها ورؤسائها وتجارها وغيرهم ، يشهدون فيها بصحة الاتهامات الواردة فى الاستفتاء السابق ، فى اليوم التالى لتاريخها .

ـ جواب العلماء وهو عبارة عن فتوى شرعية قانونية بوجوب خلع السلطان المذكور للاسباب المذكورة ، وقد وقعها 18 من كبار العلماء .

ـ على اثرها تم اعلان الخلع من طرف العلماء والشرفاء

وجمهور اعيـان وممثلى العاصمة فاس . (1) يـوم الجمعة 22 ذى القعدة عام 1325 ، وبعد أسبوع من الاجراءات والاعـداد تمت بيعة السلطان المولى عبد الحفيظ يوم فاتح ذى الحجة 1925 ، ان المرء ليندهش اليوم من مستوى الفكر الشورى والدستورى الاسلامى الذى كانت تمثله نخبة العلماء والشرفاء والاعيـان بالعاصمة فـاس ، مـن خلال مواقفها السياسية تجـاه خطـر الاستعمار الذى أخذ يحكم قبضته على المغرب ، ولم يبق بينـه وبين السقوط الا نحو اربع سنوات !

الطبعة الاولى لكتاب (النصيحة) :

مرت هذه الاحداث التى عرفها المغرب أواسط سنة 1325 ، ومؤلف النصيحة بالمدينة المنورة ، لكن لم يمض على بيعة السلطان عبد الحفيظ الا نحو شهرين حتـى قام اثنان مـن الشخصيات المغربيـة المؤمنة الغيـورة هما الشريـف الفقيـه الاديـب السيد محمد بن احمد التبر الحسنى ومولاى على التلمسانـى بزيارته فى المدينة ، واستنساخ (النصيحة) من نسخة المؤلـف بخطه ، حيث تم الفراغ منها وقوبلت باصلها يوم عاشر ربيـع الاول عام 1326 ، ولم تمض خمسة اشهر من هذا التاريخ حتى انجزا طبعها فى المطبعة الحجرية بفاس فى 20 شعبان 1326 (1908/9/17 م) ، وقام بتصحيحها أخو المؤلف العالم الشاعر عبد الرحمن الكتانى الذى كتب كلمة عنها فى نهاية الكتاب .

ولاشك ان السلطان عبد الحفيظ قد قرأ « النصيحة » ، وهو العالم الشاعر الذى أمر بنشر عدد من كتب الفقه والحديث ، ومنها كتاب المؤلف : « نظم المتناثر من الحديث المتواتر » الذى أمـر

(1) انظر نصوص هذه الوثائق موزعة فى اتحاف اعلام الناس للمؤرخ العلامة مولاى عبد الرحمن ابن زيدان ج 1 ص 448 ، وفى ترجمة الشيخ محمد الكتانى الشهيد ص 192 — 198 .

بطبعه فى المطبعة المولوية بفاس سنة 1328 ، الا ان الظـروف السياسية ، واخطار الاحتلال الفرنسى المستمرة للبلاد لم تتغير ، وخابت آمال العلماء ونخبة الشعب فى تحقيق عملية الانقاذ التى تبين انها اصبحت مستحيلة .

علاقة مؤلف « النصيحة » بالسلطان عبد الحفيظ :

هذه العلاقة ، سجلها أخى الشيخ محمد الزمزمى فى اربعين صفحة ، جوابا عن سؤال بعث اليه به مؤرخ الدولة العلوية العلامة المرحوم مولاى عبد الرحمن ابن زيدان سنة 1346 ، وهو يكتب تاريخه : « اتحاف اعلام الناس » ، الذى لم يصدر منه الا خمس مجلدات فى عهد الحماية ، والصفحات القليلة التى انقلها من هذا الجواب ، لا تقدم لنـا جانبا من شخصية مؤلـف (النصيحة) ، واسلوب تعامله مـع الملوك والامراء فى المغرب والمشرق فقط ، وانما ايضا أثـر (النصيحة) وشخصية صاحبها عـلى السلطان عبد الحفيظ ـ ولو أنه ظهر متأخرا ـ بعد تنازله عن الملك ، اذهى فتـرة مراجعـة ومحاسبـة للانسـان مع نفسـه ، وليس كـل انسان كان ملكا ، بقادر على ان يصبح الرجل العابد المتبتل المتوسل الى الله ، كما اصبح المولى عبد الحفيظ .

يقول أخـى الشيخ محمد الزمزمى الكتانـى فى جوابه عـن السلطان عبد الحفيظ ـ بعد ان أثنى عـلى شخصيته العلميـة ، وشهامته وشجاعتـه ، ومحبته للعلمـاء ، وولوعه بمجالستهـم ومذاكرتهم واكرامهم ، مع حدة مزاج وسرعة غضب .

« .. كان أول تعارفنا معه بفاس أيام سلطنته ، بعد ان رجعنا من الحجاز ، رجعتنا الاولى عام 1326 ، صادف ان خرج الناس

لاستقبالنا بوادي فاس خفافا وركبانا ، فرأى من نوافذ قصره بدار المخزن (الحكومة) من كثرتهم ما هاله ، فأرسل للاستفسار فارسين ، فلما وصلا وسألا : ما الخبر ؟ ، قيل لهما ان الشيخ سيدى محمد بن جعفر الكتانى قدم من غيبته الحجازية ، فكرا راجعين يحملان الخبر ، ثم رجعا فطلبا منه رحمه الله ان يزور جلالة السلطان فى حينه ، ولما كان حاله فى التباعد من الملوك والامراء مشرقا ومغربا ، منذ شب ، معروفا لدى العموم ، اعتذر لهما على ان يزوره ان قدر فى وقت آخر .. الى ان وقعت كارثة أبناء العم الشهيرة ، (1) وحصل القبض على جميعهم ، وكان من جملة من شملها القبض عمتنا أخت الجد المولى جعفر ، لكن هذه لما بلغ خبرها السلطان أمر بارسالها حالا للوالد ، أتى بها المولى الكامل الامرانى على بغلة ، ووصلت الدار ليلا على حالة يرثى لها ، فكانت اعظم حامل للوالد على المغامرة بنفسه والتفكير فى مسألة الشفاعة لدى السلطان ، لعظم الهول ، وخطر الاجر ، ولكنه رحمه الله صار يتريث لتسكن حدة السلطان وسورته ، ومع كل أسف لم يمض على الواقعة أيام حتى نفذ القضاء والقدر فى المرحوم الشهيد سيدى محمد بن عبد الكبير الكتانى الذى رثت لموته السماء والارض ، حتى مات كثير من الناس غما منها وحزنا ، ولكن ذلك لم يثن من عزم الوالد على الشفاعة فيمن بقى على الرغم مما كان شائعا من عزمهم على القبض حتى عليه رحمه الله ، فاستأذن فى زيارة السلطان الذى رحب بمقدمه ، واظهر له كل حفاوة ، وصادف وقت قراءة العلماء للحديث مع السلطان ، فطلب منه مداومة الحضور لدرس الحديث معهم كل يوم فاعتذر له ، ثم اصطلحا على ان يحضر معهم مرة كل اسبوع ، وكانت له الكلمة

---

(1) الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتانى مؤسس وشيخ الطريقة الكتانية ذات النفوذ الواسع يومئذ ، خاصة فى المناطق البربرية ، كان محل تقدير كبير من السلطان عبد الحفيظ الذى كتب اليه خطابا رسميا بعد اربعة أيام

من بيعته سلطانا فى مراكش ، يخبره باسباب وتفاصيل هـذه البيعة ، ويقول فى ختامها : « واعلمناك بهذا لتأخذ حظك من الفرح »، وتوجـه بيعتك لشريف حضرتنا ، سائلين منكم صالح الادعية باعزاز هذا الدين الشريف وتأييده ، واعانة جنابنا على القيام بامـور المسلمين ، والله يوفقكم لما فيه رضاه والسلام ، فى 10 رجب الفرد 1325 » ، وفعلا قام الشيخ محمد بـن عبد الكبير الكتانـى بدور كبير فى الدعـوة لبيعـة السلطان عبد الحفيـظ بفـاس والاقاليم الشماليـة ، وخلع أخيـه السلطان عبد العزيز ، داعيا للجهاد تحـت رايته ، وارسال الامـوال اليه ، وتحرير البلاد من الاحتلال الاجنبى ، وهكذا دخل حلبة التنافس والصراع السياسى ، وتعقبته شبكة المخابرات الفرنسية .

وبعد 15 شهرا من بيعـة السلطان عبد الحفيظ بفاس ـــ حدثـت اثناءها خلافات سياسية ، وفقهية وعقيديـة ، بين السلطان والشيـخ المذكور ، ابتداء من الشروط الدستورية التى ادخلها الشيخ فى نص بيعة السلطان ، وانتهاء بمعارضته لتمسك السلطان بمذهب الظاهريـة فى مسألة الزيادة على اربع فى الزواج ـــ أبدى الشيخ لاعضاء أسرتـه ونفر من تلاميذه رغبته فى هجرة فاس ، والسكنى بدار متواضعة فى قبيلة ءآيت يوسي فى جبال الاطلس يعتكف فيها ويقوم بالدعوة الى الله ، وغادر المدينة مع اعضاء أسرته صبيحة يوم الخميس 24 صفر 1327 راكبين الخيـل والبغـال ، وكـان أول مـن علـم بالخبـر ، وأسرع الـى القصر طالبا مقابلة مستعجلة مع السلطان فى ذلك الصباح ، للايقـاع بالشيخ ، واتهامه بانه خرج للقيام بالثورة ، هنرى كايار قنصل فرنسا بفاس ، ورئيس شبكة المخابرات الفرنسية بها ، بشهادة احد كتـاب القصر الملكـى ، وبعض المؤرخـين الفرنسيين ، ونجحت الوشايـة الاستعمارية ، فأرسل السلطان كتيبة عسكرية اعادت اعضـاء اسرة الشيخ ومرافقيه مكبلين بالقيود والسلاسل ، وصدر الامر باعتقالهم ؛ بعد مقابلة وحوار بـين السلطان والشيخ حضرها بعض العلماء ، وبعـد اسبوعين أمر بجلـده 2000 جلدة فى سـاحـة القصر قريبا من والـده الشيخ عبد الكبير وولده الشيخ محمد المهدى ، وشقيقه الشيخ عبد الحي، لكن لم ينفذ منها الا 500 ، وضع بعدها فى غرفة منعزلة ، ليموت بعد ايام متأثرا بجراحه ، كواحد من أكبر شهداء الدعوة الى الجهاد ، واقامة نظام دستورى ، قبل توقيع عقد الحماية بثلاث سنوات ، قال عنه قائد الثورة الريفية محمد بن عبد الكريم الخطابى : « .. لقد اقترن استشهاد هذا العالم الجليل ، باستشهاد أمة كاملة ، وهى أمة المغرب ، كما هو معلوم عند كل احد من المغاربة المعاصرين مثلى للشيخ الشهيد ، وللقضية باكملها .. » . (بايجاز من كتـاب : « ترجمة الشيخ محمد الكتانـى الشهيد » لابنه العلامة الشيخ محمد الباقر الكتانى) .

المسموعة والنفوذ التام فى المذاكرات ، ثم لم يزل ينتهز المناسبة ، الى ان شافه السلطان بشفاعته فى الاشراف اعضاء أسرة ألمرحوم الشيخ محمد بن عبد الكبير وهم والده وابناؤه واخوته فقبل شفاعته وسرحهم تدريجيا بدون قيد ولا شرط » .

تأليفه كتاب « الرسالة المستطرفة » :

ويتابع أخى فى مذكراته قائلا :

« وفى هذه الاثناء طلب جلالته من السيد الوالد شفاهيا ان يكتب له فهرسا شاملا لاسماء الكتب الحديثية حسب تصنيفاتها لمن يريد الخوض فى ذلك العلم الشريف ، ثم جدد جلالته هذا الطلب بواسطة أحد خاصته اذ ذاك ، وهو العلامة السيد احمد الشامى ، هذا نصه بعد الحمدلة والتصلية :

« سيدنا وعمدتنا شريف العلماء وعالم الشرفاء الفقيه البركة المحدث الحجة النفاع العابد الناسك الذاكر الشاكر أبا عبد الله سيدى محمد بن سيدنا الشريف العلامة المقدس مولاى جعفر الادريسى الحسنى الكتانى رعاك الله وحفظك واعاد علينا من بركاتك آمين .

وبعد فان سيدنا اعزه الله طلب منك ان تجمع له تقييدا شاملا يجمع الكتب الحديثية التى يتوقف عليها المحدث ، من شروح وحواش وسيرة ورواة ومتن وغير ذلك من كل ما له تعلق بالحديث ، وتستوعب فيه جميعها استيعابا لا تدع فيه فردا واحدا ، بارك الله فيك ، وادام النفع بك ، وعلى المحبة والسلام فى 23 رجب 1327 . احمد الشامى لطف الله به

فكتب رحمه الله تاليفه الشهير المطبوع فى بيروت ، والذى سارت بخبره الركبان ، المسمى : « الرسالة المستطرفة لبيان

مشهور كتب السنة المشرفة » ، (1) كتبها فى نحو خمسة عشر يوما ، ثم ارسلها له فحازت كل قبول ، وانما لم يذكر الوالد هذا فى طالعة الكتاب ، ولا حصل منه تبجج به ، ولا تعرض له أصلا ، كما يفعل غيره من المؤلفين للخلفاء والملوك والسلاطين ، لانه انما يقصد باعماله كلها وجه الله والدار الآخرة .

دعوته لوداع الجيش الذاهب لقتال « بوحمارة » :

ثم بعد هذا التاريخ بقليل استدعى جلالته أيضا الوالد لقصره السلطانى ، فلما دخل عليه قام له واخذ بيده فقبلها ، ثم أجلسه حذاءه على سرير ملكه ، وكانت تلك عادته كلما دخل عليه ، ثم أخذوا فى المذاكرة فى اطراف الحديث وفنون العلوم والاحوال الوقتية ، والسياسات الدولية فطال المجلس ، وكان كلما هم الوالد بالقيام استعطفه فى الجلوس والزيادة ، ثم طلب منه الاكل بمعيته ، وبعد الفراغ رجعا لما كانا عليه من المذاكرة الى ان وصلت العشى فهناك قال له : أريد ان اطلب منك أمرا . ان تلك (المحلة) « فرقة عسكرية » واشار له من نافذة القصر الى جيش بمصلى وادي فاس ، أريد ان لا تبرح من عندى حتى يتم نهوضها لقتال هذا الثائر الفتان (أبى حمارة) ليحصل لها النصر والظفر بعناية الله ، ودعائكم الصالح ، وارسل لقواد (المحلة) فحضروا ، وامرهم بالسفر حالا لقتال الثائر ، وحضهم على الشجاعة والنجدة ، ووعدهم وحذرهم ، ولم يقم الوالد من عند السلطان الا بعد سفر آخر جندي من تلك (المحلة) ، ومن حسن الحظ لم تمض أيام فى قتال الثائر المذكور ، حتى انهزم جيشه ووقع أسيرا ، فجاءوا به فى قفص حديدى كما هو مشهور ، يوم

(1) طبع هذا الكتاب حتى الآن ست طبعات ، وانتشر فى العالم الاسلامى ، ويدرس فى جامعة عليكرة الاسلامية بالهند ، والجامعات الاسلامية فى الباكستان .

الاحد 5 شعبان عام 1327 ، فكان ذلك آخر العهد بأبى حمارة وفتنته التى طال أمدها منذ سنة 1320 .

وبهذه الكرامة وشبهها مما شاهده المولى عبد الحفيظ بسبب حســن نيته ، وصلاح طويته ، ازداد محبــة فى الوالد واعتقادا وغبطة حتى بلغ فى امره أنه أمر عياله بالسلام عليه ، والتبرك به .

هجرته الثانية للمدينة المنورة :

ويتابع أخى الشيخ محمد الزمزمى :

... ثم انه لما رأى أن احوال المغرب آئلة الى الفساد والانهيار، صار يفكر فى العودة الى الحجاز ، ولكنه كان يتوقع منع السلطان له من ذلك ، فلما تم عزمه استأذنه فمنعه أولا منعا باتا وقــال له : « آش عالمنا وبركة مغربنا ، فمع من نبقى ان هربت عنا ؟ ! ولكن الوالد ما زال يتلطف معه ، ويتوسل اليه حتى أذن له من باب الحياء ، ولما وصل موعد السفر قام جلالته بجميع اللوازم والضروريات بل والكماليات ، واعطانا أفــراك (قبة خشبيــة لوقاية العائلة وسترتها فى الطريق ، وما يناسب من (الفرايكية) والحمارة والخيالة والعسكر والخدم ، وأصدر ظهيرا سلطانيا يأمر فيه قواد الطريق من فاس لطنجة وقبائلها بتموين الجميع وعلفه والعسة ليلا عليه ، وارسله للوالد وهذا نصه :

« نأمر الواقف عليه من خدامنا وولاة شريف امرنا عمــالا وخلائف ان يكرم ضيافة حامله الشريف الفقيه السيد محمد بن جعفر الكتانى ليلة مبيته عنده فى طريق توجهه من فاس لطنجــة المحروسة ، ويقوم بمؤونته ومن معه وعلف بهائمه والعسة عليه حتى يتوجه من عنده بسلام والسلام ، فى 28 جمادى الاولــى عام 1328 » .

ولما توصل الوالد بهذا الظهير خبأه بجيبه وقال : لا يراه أحد ،

أنريد ان ننزل على الناس كالمخزن ؟ ، ثم صار رحمه الله يصرف على الجميع ، ويمون الكل علفا وغيره ، ولما وصلنا لطنجة وجدنا الاوامر السلطانية بانزالنا وخدمتنا والاعتناء بناقد سبقت ، فحللنا بالقصبة بدار المخزن منها ، ثم وقف ولاة الامر معنا الى ان ركبنا البابور بكل عز واكرام .

وبعد وصولنا للمدينة المنورة صارت ترد علينا الأخبار بتردى الاحوال بالمغرب ، وتحقق ما كان يتفرس فيه مولانا الوالد ، فلا زالت احواله فى اضطراب الى ان تم الاحتلال ، وتخلى الجناب الحفيظى عن الملك ، وأقام بمدينة طنجة ، (1) .

المولى عبد الحفيظ يلتحق بصاحب (النصيحة) فى المدينة :

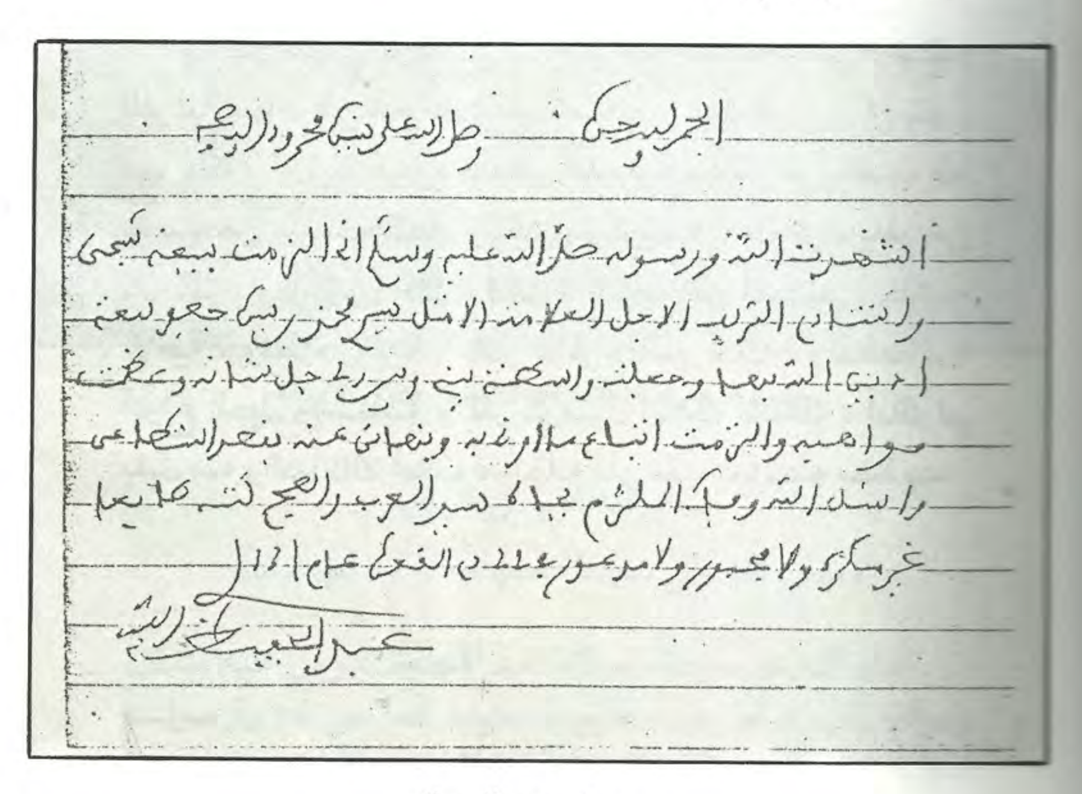
وفى السنة التالية 1331 ، عزم على الحج والزيارة ، فجاء على طريق الشام ليصل للمدينة على طريق السكة الحديدية ، وأول ما صنعه بعد زيارته الحجرة المقدسة ، زيارة الوالد بداره ، ولما دخل عليه قابله بما يقابل به الضيف ، ولكن مع برودة وانكماش لم يخفيا على الجناب الحفيظى ولكنه كان حكيما فأبدى من التساقط بين يديه ، والانقياد له ، كالغريق يريد الانقاذ ، مما أوجب عطف الوالد وشفقته عليه ، فقال له : ان هذه الحضرة يعنى المدينة المنورة ، يأتى اليها الناس للايمان والاسلام ، فان اردت أنى اقبلك فاذهب لسيدنا صلى الله عليه وسلم ، وتب الى الله من جميع ما صدر منك باعتابه الشريفة ثم انو اداء جميع الحقوق ورد المظالم ، ثم جدد ايمانك واسلامك فاجابه بالقبول والاذعان ثم استأذن وخرج فغاب ثم رجع وقال : فعلت كل ما امرتنى به ، ولما فهم منه الصدق ، وظهرت عليه امارات التوبة

---

(1) بعد توقيعه على معاهدة الحماية فى 11 ربيع الثانى 1330 (1912/3/30) ارغم على نقل العاصمة للرباط فى 20 جمادى الثانية 1330 (1912/7/6) حيث شعر بتجريده من السلطة فتنازل عن العرش فى 28 شعبان 1330 (1912/8/11) .

والاخلاص ، عند ذلك توجه له ، وصار يلاحظه ويرشده الـــى ما فيه صلاح دينه ودنياه .

ثـــم ان المولى عبد الحفيظ أشرب محبـــة الوالد وتعظيمه وحصل لـــه فيه الاستغراق الكلى ، وصـــار ينظر اليه بعـــين الخليفة المحمدى ، والقطب الجامع الفردى ، والمرشد الكامل فأراد ان ينخرط فى سلك تلاميذه المخلصين انخراط تربية وسلب ارادة وتحكيم على طريقة الصوفية الاقدمين ، فطلب منه ان يعامله بتلك المعاملة ، ولكن همة المولى عبد الحفيظ دفعته ليكتب عهدا يبايع فيه الوالد ، ويظهر به تسليم نفسه للتحكيم وسلب الارادة هذا نصه بخط يده :



الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله الكريم

أشهد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أني التزمت بيعة شيخي

وأستاذي الشريف الاجل العلامة الامثل سيدي محمد بن سيدي جعفر [illegible]

أحبني الله بها وجعلت [illegible] بيني وبين ربي حبل [illegible] وعظم

مواعيده والتزمت اتباع ما أمر به ونهاني عنه [illegible]

[illegible] الله ورسوله [illegible]

غير مكره ولا مجبور ولا [illegible] بـ 22 ذي القعدة عام [illegible]

عبد الحفيظ [illegible] الله

صورة عهد البيعة

الحمد لله وحده		وصلى الله على سيدنا محمد و آله وصحبه

اشهدت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم انى الزمت بيعة شيخى واستاذى الشريف الاجل العلامة الامثل سيدى محمد بن جعفر بيعة ادين الله بها ، وجعلته واسطة بينى وبين ربى جل شأنه ، وعظمت مواهبه ، والتزمت اتباع ما أمرنى به ونهانى عنه ، بقصد استطاعتى ، وأسأل الله وفاء الملتزم ، بجاه سيد العرب والعجم ، كتبه طائعا غير مكره ولا مجبور ولا مدعور فى 22 ذى القعدة عام 1331 .		عبد الحفيظ الله له

ولما كان سيدى الوالد من أهل العبودية المحضة ، التى لا شائبة للفردية فيها ، على قدم جده عليه السلام ، حيث خير بين ان يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا ، فاختار العبودية ، لذلك لم ينتصب قط لمنصب من مناصب الجاه والظهور والرياسة ، بل تراه ينفر من كل ذلك ، وما يؤول لذلك ، نفرة السليم من المجذوم ، خلقة الآهية ، وفطرة ربانية ، بقدر تسارع الغير لذلك ، واستعماله أنواع الحيل والسياسة والمكر للوصول لهاتيك المسالك ، لذلك لم يقبل منه والدنا ذلك الطلب ، واجابه على طلبه بما نصه بخط يده

صورة جواب الشيخ الكتانى حول البيعة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وسلم تسليما

ادام الله عز سيدنا ومولانا عبد الحفيظ ، ومن عليه بشكره ودوام ذكره ، أما بعد ، فالبيعة حقيقة انما هى لله ولرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لا لزيد ولا لعمرو ، لحقارة كل ما سوى الله ورسوله وسوى ما اليهما ، وقد قال تعالـى فى كتابه : « ولو انهـم اذ ظلموا أنفسهـم جاءوك فاستغفروا الله

واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » وقال : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » الآية ، وقال : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم» الآية ، وقال : «ورحمتى وسعت كل شىء» ، وقال فى حق سيدنا : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » ، فالرحمة واسعة ، والفضل عام ، والمومن ، كما فى الحديث ، واه راقع ، فسعيد من هلك على رقعه ، والاعمال بالخواتم ، وأسأل الله ان يمن علينا واياكم بالقبول ، ويجعل الجميع منا فى حمى هذا النبى الرسول ، وان يختم لنا ولكم بخاتمة الحسنى والزيادة ويجعلنا من أهل محبته وحزبه فى الدارين ، وان يثبتنا ويربط حبلنا بحبل نبيه وحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، واسطة الكون وقاب دائرته ، امين والسلام .

عبيد ربه وأسير كسبه

محمد بن جعفر جبر الله صدعه آمين

ثم ان المولى عبد الحفيظ لم يزل مثابرا على حضور مجالس والدى ، سواء العامية أو غيرها ، فى الحرم النبوى أو الدار أو غيرهما ، مستعملا معه غاية الادب ، اذا دخل عليه يكشف رأسه تأدبا على عادة المخزن ، ثم يقبل يده ، ويجلس أمامه جلوس المريد بين يدي الشيخ ، غاضا طرفه ، مقبلا على ما يسمعه منه ، أو ما يلقى اليه ، ملازما للاوراد والاذكار ، مثابرا على الصلوات الخمس أو جلها بالحرم النبوى ، وزيارة الحضرة النبوية والآثار المصطفوية ، مواسيا للفقراء ، مكرما المساكين ، مؤثرا لابناء السبيل ، أغرق اهل الحرمين الشريفين بوابل من المنح والعطايا والاموال والهدايا ، مما لم يجد عليهم بمثله ملك من ملوك العصر ، مما رفع شأن المغرب واهله فى نظر الشرقيين كثير الاهتمام بشعبه المغربى ، باكيا على ما حل به ، داعيا الله له ، منوها بقدر سيدنا الوالد ، معددا لمزاياه ومفاخره ، ويصرح

للجميع بأنه لا فضل عليه الا لله ، ثم للشيخ سيدى محمد بن جعفر الكتانى ... وهكذا كانت حالته مدة جلوسه بالمدينة المنورة وهى نحو الشهرين » .

ويسترسل أخى فى وصف مسهب لسلوك المولى عبد الحفيظ الجديد ، وتعلقه الشديد بالوالد ، والحاحه عليه – عندما وصل وقت الحج – فى ان يحج معه ، ولكن الوالد اعتذر له برغبته فى الاستراحة هذه السنة ، فتوسل لاقناعه بالشريف مولاى محمد الامرانى المجاور معه فى المدينة ، وكان يحبه ويعتقده ، فبذل جهده فى اقناعه ، لكن الوالد اشترط ان يكون سفره مستقلا ، وان لا يكون بينهما سوى المزاورة ، لمشورته فى امور مناسك الحج ، فطلب منه حينئذ ان يكون فى رفقته ابنه الكبير الشيخ محمد الزمزمى فوافق .

ويصف اخى رحلة الحج هذه باسلوب بالغ الروعة ، ذلك ان أمير الحجاز الشريف حسين عامل المولى عبد الحفيظ معاملة الملوك على عروشهم ، حيث أرسل ابناءه الامراء الاربعة من مكة الى المدينة ليرافقوه فى رحلته وهم : على وفيصل وعبد الله (ملوك العراق وسورية والاردن فيما بعد) وزيد ، وعندما كانوا يدخلون عليه بحضرة الوالد ، يشير لهم ببداية السلام من الوالد ، ثم به ثانيا فيفعلون ، وقد مشوا فى ركابه ، واتخذ لركوبه مع رفيقه الخاص الشيخ الزمزمى « شكدفا » فاذا تعبا منه ركبا « محفة » ، واكترى قافلة من الجمال لركوب حاشيته وعدد من الفقراء والمساكين ، وعند وصولهم لمكة كان شريف مكة وأميرها الشريف حسين قد اعد استقبالا حافلا فى موكبه الرسمى للسلطان السابق عبد الحفيظ ، وقام باستعراض الجيوش الحامية بمكة التركية والعربية على اختلافها ، بمدافعها وءالاتها الحربية ،

والقى خطابا رحب فيه بالسلطان نيابة عن الخليفة الاعظم ، يعنى السلطان محمد رشاد العثمانى بالاستانة » .

وبعد اتمام شعائــر الحج بمكة ، كان هناك موكب الحــج الرسمى الحافل لشريف مكــة ، مع عربة ملكية اخــرى للمولى عبد الحفيظ ورفيقه الدائم ، قطعوا فيها طريق منى وعرفات بين الجند والموسيقى ، وفى عرفات اصيب المولى عبد الحفيظ بصدمة عندما بحث عن الوالد فلم يجد له أثرا ، وكانت رغبته الملحة ان يقف معه بعرفات ، فلم يملك نفسه ان ركب جوادا مع ثلاثة أنفار ، وصار يطوف بنفسه على الموقف ، ولم يظفر به الا بعد العصر ، فهناك أبدى له ما حصل له من التعب والعرق فى طلبه ، واستعطفه فى المرافقة والجلوس معه فى مخيمه ، الى ان خرجوا للموقف باكين متضرعين مبتهلين داعين الله لهم وللأمة الاسلامية كلها الــى ان غربت الشمس .

رأي السلطان عبد الحفيظ فى الحماية :

يقول أخى فى خاتمة جوابه :

« .. ان قضية قتله للشيخ محمد الكتانى لم نثرها معه أصلا لوضوح امرها ، وعظم مصابها ، واما قضية تسليم المغرب فقد باحثناه بشأنها مباحثات طويلة ، فى مجالس متعددة ، وفى كــل مرة يتبرأ منها تبرؤ الذئب من قميص يوسف ، وينسب المسؤولية على من كــان قبله ، وعلى الوزراء والعلمــاء والخاصة والعامة ، ويقول : انه وجد كل الناس خونة له ، وجواسيس العدو ضده ، حتى من حشمه وخاصته ، ويأتى على هذا الأمر بالادلة والبراهين ، وقد نظم ذلك فى قصائد وأشعار يطول ذكرها ، ومطبوع كثيرها ، منها قوله :

آآمــر بالجهاد وجل قومــى يرى ان الحماية فرض عــين

فى أبيات من هذه القافية يبرىء فيها ساحته من التواطىء مع الفرنج ضد المغرب وأهله ، ويستدل على ذلك بأنه عندما غلب على أمره وأكره على قبول الحماية استعفى من الملك ، وألقى الحبل على الغارب ، وهذا دليل واضح ، وربك أعلم بالحقائق وما تخفيه الصدور ، والى الله تصير الامور » .

رسائل المولى عبد الحفيظ لصاحب (النصيحة) :

وفى ختام هذه الرحلة ، وبعد عودة المولى عبد الحفيظ لطنجة ، يضيف أخى فى مذكرته الجوابية :

« .. وهكذا بقي يكاتبنا برسائل لوجمعت لجاءت مجلدا أو أكثر ، كلها استرشاد واستعطاف لشيخه الوالد الذى يجيبه برسائل تكتب بسواد العيون ، لو جمعت لجاء بها كتاب وعظ وارشاد كرسائل الحراق ونحوها .

وبالجملة فالرجل بعد رجوعه من الحج اشرقت على قلبه انوار الهداية واليقين ، وارتوى من كأس المعرفة والتمكين » .

وننشر فيما يلى أول رسالة بعثها لصاحب (النصيحة) اثر عودته لطنجة ـ كنموذج لرسائله المذكورة ـ تعبر عن مدى تعلقه وارتباطه الروحى ، واستجابته لنصائح شيخه الجديدة ، كتعويض عما فاته العمل به فى (نصيحته) القديمة :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على خاتم الانبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

[illegible] بعد الله [illegible] الحضرة والانوار وكنز [illegible] الواصل والكامل
[illegible] المتوكل على الله [illegible] على الله [illegible]
الشيخ الامام [illegible] الشيخ الامام [illegible]
[illegible]
[illegible] مولانا الشيخ [illegible]
[illegible]
[illegible] على ما [illegible]
[illegible] الكريمة [illegible]
[illegible] على الله [illegible]
[illegible]
[illegible] جميع [illegible]
مولانا الشيخ [illegible] اشتملت عليه [illegible]
[illegible]
[illegible] مولانا الشيخ
[illegible]
[illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] الله عنا سيدنا الشيخ [illegible]
الحمد والشكر [illegible]
[illegible] ما ارشدنا اليه مولانا الشيخ [illegible]
[illegible]
سيدي الله [illegible]
[illegible]
[illegible] الله [illegible]
[illegible] الله [illegible]
[illegible] ما ارشدنا اليه مولانا الشيخ [illegible]
[illegible]
[illegible] مولانا الشيخ [illegible] سيدنا الاعظم صلى الله عليه وسلم [illegible]
[illegible] عليه [illegible]
[illegible] مولانا الشيخ [illegible]
[illegible]
الشيخ [illegible]

الا دات الشريفة وانشا ما سكلا مولانا الشيخ عمراد كلهم من ناحية التجانية السفيفيين من سولهم في هطابهم ليس منا
تلميذ في شيخ وانما في احوال في بمبين بلاسـ عن مولانا الشيخ ان او بالخصوص كانت جوارحهم سكنهم من كثير [illegible]
وغير منهم بالله من الاحوال والتحقيق وانا من كان مثل الحسن بلا مطمع لديه مثل الحبارات وانا من نية نبسم
ينال كم ميسرات ميسرات وبسا انا لان عير تلميذا احبوا من الله العناية تحصل بكم منكم بسا
ورعاية وانشا ما رابح عند مين الشيخ من التجرفة لسائر المنابير اعني مقلي كتم الولاية الا لعارض ومقبل
الحضرة بالخطار منا ميلاد محصور بكم لا زال تحبوا في كليهما لم نتيم للاسر ما دار الحضر بلتمسوا علينه
وامحوه بمقلا مركبكم فبارك الجمعة فيما نفسي بلا مكرها الكعب الايابي وتنوا الكم الرسالة بها لباو مستحيل
محبينا انا يا سر في خرم المشتاق من الشيخ والا شبان لا زال مولانا الشيخ من صفة مولانا لم في الا زد بيلاد
كما لها لكل انبيل وفي سعادة بجلاله جل شمع العباد دامي ابي لا لارض بر احبكم حتى يخلو جماد الكلها امينا
منزا وجنا الخير في مولانا الشيخ ولا ثوبه سبوح المبارك اكرا سما منزي ملا ثيابهم سواسكة بنسا
ذلكل الجسم الجمع بسر مما اشتد عليهم ان ينوموا لكل تلذيب الحصار بما الى ان نحل الشر المذكور بسر جد بكم
الحبوه عملي التملاح غير الا فضح ومنه وكذلك بعشا فسرني الشيخ الا نكاح بزوجه تلغرما كما لبا من بسر كذا
وسنزية ان يا حققر بسر التبسول وانا ابن زهودنا من طلب ادعيته الكاملة بنيل الحسنى والسول وخصوصا عند
مراجعة منهم من كلامكم طل الله عليه سلم ونيسلم بلائه واحسه على مولانا الشيخ جميع اتباعنا وخدامهم
ومن شيعهم في الابعتنه خصوصا الشريف مولاي المومن والكاتب تلميذكم عبد الملك الحبوك
نسلم وحم على اخوينا السعيدي الا بجدي بسر محمد الزموري واخينا بسر محمد الملكي وانسا الكتوي لم لشرح مبغي
دبع صاحبه الذي بكتب سرتكم نيشرا وبرهاح بم الختام ادبلا الا بر سبع اصلا ملا كو السلام وبشى[21]
صبرا لخير مسلم 332 ا هـ واعلم بسيدي اني عبدك وخديمك وتلميذك وارجوا الله ببركتك صلاح الدين والدنيا
كما اطلب منك عنايتك في الظاهر والباطنة وان عليك اليوم محبتك وله منتصح وعار على حامي الحمى ربحسو
فادركنا اخو عبيدكم واصفيا تلميذك عبد الحفيظ الله

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على خاتم الانبياء
والمرسلين وعلى ءاله وصحبه وسلم تسليما

حضرة سيدى وشيخى وعمادى ، ومن عليه بعد الله اعتمادى ، بحر المعارف والانوار ، وكنز الحقائق والاسرار ، القطب الواصل ، والهمام الفاضل ، الزاهد العابد البركة ، ألمتوكل على الله فى السكون والحركة ، الدال بهمته على الله ، المراقب له فى سره ونجواه ، الشيخ الامام الناصح ، القدوة المفلح الرابح ، أبى المواهب ، ومنتهى الرغائب ، سيدى محمد بن الشيخ الامام ، ومفيد الانام ، سيدى جعفر الكتانى ، لازالت مجادتكم راقية فى أوج العرفان من حضرة الواهب الصمدانى ، وسلام كريم يفوق العبير شذاه ، يعم مقامكم السامى بعناية الله .

أما بعد مزيد السؤال عن ذات مولانا الشيخ زاد المولى فى اشراق بهجتها ، ومتع الوجود ببقاء طلعتها ، والاستخبار عن احوالها ومتعلقاتها ، مع أداء ما يجب لسموها من اجلالها وتكريماتها . فعبيدكم يحمد الله ويشكره على ما أولاه من النعم ، وخوله من جزيل الاحسان والكرم ، بنافذ همتكم النورانية ، وصادق عطفتكم المحمدية ، ويعرض على مسامعكم الكريمة انه تشرف بمكتوبكم الاشرف الجامع المفيد ، الدال على الله بمقاله لكل طالب ومستفيد ، المؤرخ فى 19 من الشهر الفارط جوابا عن التلغراف الذى بعثناه لمولانا الشيخ اعلاما بوصولنا للمحل ، واجتماع الشمل بالاهل ، المفصح عن دعواتكم الجليلة لنا ، ودوام استحضاركم معنا ، وان اقواما سروا بسرعة وصولنا ، وعجبوا من تيسره لنا فى اقرب وقت قلما تيسر قبل لأحد ، واستقصينا تقريرات مولانا الشيخ وتأملناها بالحرف ، واستوعبنا ما اشتملت عليه من خالص الارشاد وحسن اللطف ، وليسمح جنابكم الاكرم باعارة بعض الاصغاء منكم لهذا العبيد المنكسر الخاطر ،

الذى أسلم زمام نفسه الامارة اليكم فى الباطن والظاهر ، مستمنحا منكم ان تبلوه من طل بحركـم الزخار ، وتمدوه من فيضكـم المعطار ، ليعلم مولانا الشيخ ان ما اكرم به المولى محسوبكم من تيسير الوصول الذى عجب لسرعته أقوام ، فذلك من جملة انعامات الملك العلام ، المسداة الينا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطتكم ، فجزى الله عنا سيدنا الشيخ بأفضل الجزاء ، فله الحمد والشكر ، على ما أولانا بوجودكم من المزية والفخر ، وغاية ما فى استطاعتى ان اقول سبحانك لا احصى ثناء عليك ياذا المنة والطول .

وأمـا مـا ارشدنـا اليـه مولانـا الشيخ مـن مداومة الاستغفار والتوبة ، وتجديد النـدم ، مع ترديد كلمـة الاخلاص ، ومخالطة الاخيار والاشتغال بما يعود علينا بالنفع ، فقد سعد حظنا سيدى والله بهذا الالتفات النورانى منكم نحونا ، وحسبنا أنفسنا من السعداء بهذا الهدى والارشاد ، الكفيل فى الدلالة على الله بكل خـير واسعاد ، فالمولى هو الـذى يتولـى مكافأتكم على ما اسديتموه الينا من حسن السلوك ، فى الوصول لرب الارباب ومالك الملوك ، والعبيد ان شاء الله لا يالو جهده فى امتثال أوامر ربه ، والتضرع اليه فى الوصول لقربه ، مع المحافظة على الاوقات ، والندم على ما فات ، وفقنا الله لطاعته ، وجعلنا من الساعين وراء مرضاته ، امين .

وأما ما أرشدنا اليـه مولانا الشيخ من اجتناب مخالطـة من لا تنهض احواله ، ولا يدل على الله مقاله ، فعلى هذه الاشارة تمشى العبد الضعيف ، راجيا من المولى حفظه بعطفتكم مـن الوقوع فى الخطإ والتحريف .

وأما ما حضنا عليه مولانا الشيخ فى جانب سيدنا الاعظـم صلى الله عليه وسلم من الاعتقاد ، فذاك هو معتقد العبيد ، والله أسأل ان يثبتنا عليه دنيا ويوم المعاد .

واما ما أشار اليه مولانا الشيخ من الرمز لأطوار بعض احواله الكمالية ، التى هى حالة التبرى من الحول والقوة أمام الحضرة الربانية ، فتلك حالة ذوى الفتح والكمال ، من عظماء السادات والرجال ، زاد الله فى معانى مولانا الشيخ وقواه على ما هو بصدده لدى المولى من تلقى الامدادات المحمدية ، والمعارف الصمدية ، وأمدنا من فيض امداداته القدسية .

وأما ما حكاه مولانا الشيخ عمن ادركهم من مشايخ التربية الحقيقية من قولهم لاصحابهم : ليس فينا تلميذ ولا شيخ ، وانما نحن اخوان الخ فغير خاف عن علم مولانا الشيخ أن أولئك قوم كانت جوارحهم مطهرة من الذنوب ، ونفوسهم سالمة من الأدران والعيوب ، وأما من كان مثل العبيد فلا مطمع له فى هذه الصفات ، وان حدثته نفسه يقال له هيهات هيهات ، وما أنا الا عبيد وتلميذ ارجو من الله العناية ، بحصول نظرة منكم فينا ورعاية .

وأما ما أفصح عنه سيدنا الشيخ من التفرقة لما بين المقامين أعنى مقام كتم الولاية الا لعارض ، ومقام التحدث باظهارها ، فان محسوبكم لازال محجوبا عن كليهما لم يشم لأحدهما رائحة ، فلتمنوا عليه وامنحوه فضلا من كرمكم تجارة رابحة ، فها نحن باسطون الاكف والايدى ، ولنوالكم الربانى طالب ومستجدى .

فبحياتك يا سيدى لا تحرم المشتاق من المنح والاشفاق ، لازال مولانا الشيخ من حضرة مولاه فى الازدياد ، ظافرا بكل نيل واسعاد ، بجاه جده شفيع العباد .

ءآمين ءآمين لا ارضى بواحدة　　حتى يضاف لها ءآلاف ءآمينا

هذا وقد وجهنا لحضرة مولانا الشيخ فى أواخر الاسبوع الفارط اكراما قدره مائة لويز بواسطة بنك أنكل اجبش المصرى ، بعدما اشترط عليهم ان يقوموا بكل ما يجب فى المصاريف الى ان

يحل القدر المذكور بيد جنابكم المحبوب على التمام من غير نقص شيء منه ، واذلك بعثنا لمولانا الشيخ الاعلام بذلك تلغرافيا ، طالبا من سيدنا وسندنا ان يلاحظه بعين القبول ، وان يزودنا من صالح ادعيته الكفيلة بنيل المنى والسول ، وخصوصا عند مواجهة قبر سيدنا الاعظم صلى الله عليه وسلم .

ويسلم بأتمه وأطيبه على مولانا الشيخ أتباعنا وخاصتهم ومن قدم فى الرفقة ، خصوصا الشريف مولاى المامون ، والكاتب تلميذكم عبد الهادى السلوى ، كما نسلم وهم على اخوينا السعيدين الأمجدين سيدى محمد الزمزمى وأخيه سيدى محمد المكى ، واما المكتوب المفتوح ، فقد دفع لصاحبه الذى بطيب حديثكم يغدو ويروح .

وفى الختام أقبل الأيدى مع اهداء عاطر السلام وفى 21 صفر الخير عام 1332 ، واعلم سيدى أنى عبدك وخديمك وتلميذك وارجو الله ببركتك صلاح الدين والدنيا ، كما اطلب منك عنايتك بى الظاهرة والباطنة وإنى عليك اليوم محسوب ، ولك منسوب ، وعار على حامى الحمى وهو قادر بما أخص عبيدك وأصدق تلميذك .

عبد الحفيظ الله له

ويلاحظ ان المولى عبد الحفيظ بعد ان أملى الرسالة على كاتبه الخاص السيد عبد الهادى السلاوى ، كتب الاسطر الثلاثة الاخيرة بخط يده مع توقيعه .

هذه الرسالة تقدم لنا الشخصية الصوفية الجديدة ، لآخر سلاطين المغرب فى عهد سيادته الكاملة ، واستقلاله السابق لفترة الاحتلال الفرنسى ، هذه الشخصية الجديدة لا يعرف عنها شيء حتى الآن ، وهى جديرة بالدراسة والبحث . ومن الخطإ ان يعتقد قارىء ما ان الهدف من نشرها ، كغيرها من المواقف

السابقة ، يدخل فى باب الفخر العائلى ، هذه نظرة جزئية قصيرة متخلفة ، تجاوزها الفكر الاجتماعى القائم على النظرة التركيبية الشاملة ، اهدافنا الحقيقية منهـا علميـة واسلامية وسياسيـة فى آن واحد ، نحن هنا امام ظاهرة نفسية نادرة فى تاريخ الحكام والرؤساء ، مليئة بالعبر والدروس على كل المستويات ، وعلى مستوى دور علماء السنة بصفة خاصة ، جديرة بدراسة الباحثين والمؤرخين ، فقد كانت مجالس السلطان عبد الحفيظ العلمية تضم نخبة من كبار علماء جامعة القرويين ، ومع ذلك فها هو يحملهـم مسؤولية قبوله للحماية ، كما يحملها لوزرائه وحاشيته ؛ لانهم سايروا تيار الوزراء والحاشية ، الذى لم يكن بعيدا عن دسائس ومساومات المخابرات الاستعمارية يومئذ ، وشغلوا وقته الثمين فى دروسه اليومية معهم ، بمجادلاتهم الفقهية ، وخلافاتهم العقيمة فى العقائد ، من مثل : هل الانبياء احياء فى قبورهم ام اموات ؟ ! ، فى الوقت الذى كانت فيه الجيوش الفرنسية تحتل مدنا مغربية ، وتواصل زحفها فى منطقة الشاوية ، بدل تحريضه على الجهاد ، وانذار الشعب بالخطر الداهم ، وتعبئة جميع قواته لمواجهتها ! ولنا أن نتساءل أيضا : لماذا أعرض السلطان بعد محنته القاسية ، التى فقد فيها عرشه ، وفقد وطنـه سيادته ، عن أولئك العلمـاء الاوفياء فى مجالسه العلمية ، واختار فقط الرجل الزاهد العابد ، البعيد عن جو الرياء والنفاق ، ليبدأ معه حياة المعرفة والايمان من جديد ، فى ارض الهجرة النبوية والتوحيد ؟ ! .

وقد لا نبتعد عـن الحقيقة اذا قلنا ان الشيـخ محمد بن عبد الكبير الكتانى مؤسس الطريقة الكتانية كان يختلف عن أولئك العلماء بوعيه السياسى المتقدم ، وبشعبيته التى اكتسبها بفضل طريقته الصوفية ، فضلا عن مؤهلاته الشخصية ، وهذه المزايـا بالذات هى التى خلقت له خصوما مذهبيين ومنافسين من بينهم ، كان بعضهم يحرض السلطان عليه ، ودفعت المخابرات الفرنسية

لاحكام خطتها الاستراتيجية المتخلص منه ، كما دفعت اعوانهـا للسير فى هذا الاتجاه ، وتشكيك السلطان فى صدق نوايا رجل لبى دعوته ، وقام بنصرته وتعبئة الشعب للجهاد ، وهكذا ذهب ضحية الطرفين ، وكانت هذه النهاية المحزنة .

(النصيحة) تحدد أسباب وعوامل سقوط الدولة الاسلامية :

بعد ان ألقينا ـــ فى هذا المدخل ـــ نظرة اجمالية على الظروف التاريخية التى صدرت فيها « النصيحة » ، وعلى شخصية صاحبها من خلال هذه الظروف ، نعود الآن لالقاء نظرة اجمالية أخرى على قيمة (النصيحة) من وجهة « منهج البحث العلمى » ، ومدى مطابقته لوجهة « اصول الفكر الاسلامى » .

فعلى خلاف اغلب العلماء المعاصرين لمؤلف (النصيحة) فى المغرب أو المشرق ، أو الذين جاءوا من بعده ، ممن قاموا بالدعوة السلفيـــة ، واهتموا بالتركيز عـــلى مقاومة البدع والشعـــوذة والطوائف الضالة ، والطرق الصوفية المنحرفـــة ، وعلى خـــلاف بعض الحركات الاسلامية المعاصرة لنا ، التى اهتمت بالتركيز على العبادات والعقائد ، والفروع الفقهية الهامشية ، وتغافلت عن موقف الاسلام مـــن الانظمة الاقتصادية والماليـــة والتعليميـــة والتشريعية والاعلامية القائمة ، حتى لا تصطدم مع سياســـات حكوماتها ، على خلاف أغلب هؤلاء العلماء السابقين واللاحقين ، نجد النظرة الاصلاحية لمؤلف (النصيحة) اتجهت بالدرجة الاولى ، الى تشخيـــص « عوامل الخلـــل والانحلال ، ومناطق العطـــب والانهيار » فى « جسم الدولة الاسلامية » و « الامة الاسلامية » فكانت السبب فى سقوطها فى الاندلس ، كما ستكون السبـــب فى سقوطها فى اقطار المغـــرب والمشرق ، ووقوعها تحـــت الاحتلال الاستعمارى الصليبى .

« النصيحة » اذن ، كانت (خطابا اسلاميا سياسيا جامعا) ـــ

طالما ان الاسلام لا يفرق بين الدين والدنيا، ولا بين الدين والدولة — موجها لعموم المسلمين ، شعوبا وحكومات ، لتحذيرهم من « عوامل سقوط » دولهم الاسلامية فى قبضة الكفر ، شارحا — بعملية مسح احصاءى — لهذه الاسباب والعوامل ، فى احد عشر عاملا أو سببا للسقوط ، يمكن ان نقدمها بتعريف اجتماعى مجمل ، يشرح وظيفة كل منها ودوره الاجتماعى فى بناء الامة والدولة الاسلامية :

المبحث 1 — اختلاف كلمة اهل الاسلام :

كانت « الخلافة الاسلامية » كنظام سياسى وحدوى ، تجسد وحدة الامة الاسلامية التى تمثل « قوة عالمية » فاعلة تجاه كل اعداء الاسلام ، وفى مطالع القرن العشرين ، توصلت الخبرة الاستعمارية البريطانية ، بالتعاون مع الحركة الصهيونية ، الى قناعة كاملة :

1 — بأن الحروب العسكرية لا يمكن ان تقهر الأمة الاسلامية الموحدة تحت (نظام الخلافة) .

2 — وإن افضل أسلوب لنسف هذه الوحدة يجب ان يتم من داخلها ، ويتمثل فى تشجيع «القوميات الاقليمية الاسلامية » لضرب بعضها ببعض (1) ، وهكذا نجحت بريطانيا خلال الحرب العالمية الاولى ، فى جر القوميين العرب لمساندة الحلفاء فى اسقاط الخلافة العثمانية ، ولعب اليهود دورا كبيرا فى المؤامرة ، ودخلت الاحزاب القومية الحاكمة فى صراع مع شعوبها الاسلامية ، ثم مع القوميات الاسلامية الاخرى ، وتوقف الجميع عن محاربة اسرائيل ! .

---

(1) انظر المذكرات البريطانية السرية التى نشرت سنة 1980 ، ونقلتها جريدة العلم المغربية بتاريخ 1980/4/7 عن مجلة (درع الوطن) لدولة الامارات العربية .

ولما كان العرب قد فقدوا مشاعر الارتباط الروحى ، والتعاون السياسى مع العالم الاسلامى ، كخلفاء وسادة ، منذ 12 قرنا ، واصبحوا تابعين ومحكومين ، بعد ان كانوا حاكمين ومتبوعين ، فقد ضعف عندهم الحس ب « الاممية الاسلامية » ، ورحبــوا بالبديل الذى قدمته لهم بريطانيا : « الجامعة العربية » و « الفكر القومى » ، وبعد نصف قرن من التجربة المرة ، اكتشفت الشعوب العربية أنها امام « جثة هامدة » ، وان « الفكر القومى » الذى عجز عن بعث الروح فى جسدها ، نجح فقط فى احياء العصبيات والصراعات القبلية والطائفية والمذهبية العربية ، وانتهى به مطاف التبعية ، وتشتت الكلمة وشعور الضعف والعجز المعنوى ، الى حد اعترافه اليوم باسرائيل ، وشرعية اغتصابها افلسطين ، وهكذا يبدو جليا ان اختلاف كلمة المسلمين ، يمثل العامل الاول الــذى قصم ظهرهم ، وها هو يقصم ظهر العرب أمة الاسلام الاولى ، التى لم تعرف الوحدة قبــل الاسلام ، ولن تعرفها الا فى ظــل الاســلام .

المبحث 2 ــ ترك الاستعداد الحربى :

ترك الاستعداد الحربى لدولة ، اذا كان يعنى عمليا ضعــف وانهيار قوتها المادية ، فهو يعنى معنويا عدم شعورها بمسؤولية الدفاع عن نفسها ، أو تواكلها واعتمادها على غيرها ، وفى كــلا الحالتين تبرهن بذلك على انها ليست أهلا للبقاء ولا للسيــادة ، وعليها ان تنتظر يوم السقوط ، والاستعداد الحربى لا يعنى حتما الدخول فى حرب ، بل هو فى حد ذاته يمنع من الحرب ، أى يمنع الآخرين من محاولة الاقدام على العدوان ، وبذلك فانه كثيــرا ما يحقق الهدف منه دون حرب ، والاستعداد الحربى لا يعنى اعداد آلة الحرب فقط ، بل يعنى اعداد الانسان المحارب ، الانســان المومن برسالة ربه ، يعمل بها فى حياته ، ويموت دفاعا عنها ، اذا

تعرضت امته أو وطنه الاسلامى للعدوان ، ان غيبة هذا الاستعداد كانت أحد العوامل الرئيسية فى سقوط الدول العربية والاسلامية قديما وحديثا .

لنأخذ مثلا حديثا من عالمنا : ان العرب الذين اعتبروا قضية اغتصاب فلسطين قضيتهم الاولى ، قضوا اربعين سنة منذ قيام اسرائيل ، دون ان يجدوا أنفسهم مستعدين للدخول فى حرب معها ، الحروب التى حدثت شنتها اسرائيل عليهم ، وحرب 1973 لم تكن لالحاق الهزيمة باسرائيل ، بل الدخول فى مفاوضات معها من (مركز قوة !) كما صرح بذلك انور السادات .

المبحث 3 ــ تــرك الجهاد :

للجهاد فى الاسلام اهداف ووظائف متعددة جدا ، لكنها ترمى كلها لغاية سامية واحدة : اعلاء كلمة الله فى الارض ، بنشر دينه الحنيف ، وتبليغ دعوته الى جميع الناس ، وفى اطار هذه الغاية ، تتحقق للمسلمين اهداف نفسية واجتماعية واقتصادية وحضارية ، لا يسعنا المقام لشرحها ، اذ تجعل الامة دائما فى حالة طوارىء ، لا تستنيم الى الدعة والسلام والخمول ، ولذلك قال عليه السلام : « ما ترك قوم الجهاد الا أصابهم الله بالذل » ، وهل عرف العرب الذل والهوان فى حياتهم التاريخية كلها أكثــر مما عرفوه مــع اسرائيل الــتى جعات سمعتهم وكرامتهم امــام دول العالم فى فى الحضيض ، باذلالها وذبحها للفلسطينيين ، وتقتيلها لاطفالهم المتواصل منذ سنة ، بينما لا يكون ردهم ، مع ذلك ، الا المزيد من الاستسلام ، واستجداء السلام ! . وترك الجهاد يعنى من الوجهة العسكرية ضعف وانهيار قوة الدفاع المادية .

المبحث 4 ــ اسناد أمور الدين الى غير أهلها :

نؤكد مرة أخرى بأن كلمة الدين فى اصطلاح الاسلام ، تعنى

الدنيا أيضا ، على خلاف المفهوم المسيحى فى الغرب ، وظاهـرة اسنـاد المناصب الاداريـة والقيادية فى الدولـة الـى أهـل الثقة من الانصار ، لا الى أهل الخبرة والمعرفة والكفاءة من ابناء الشعب ، ظاهرة معروفة فى المجتمعات المتخلفة . وكانت سبب هزيمة الجيش المصرى فى 5 يونيه 1967 ، لان قيادته بلغت قمة الاستهتار بالمسؤوليات الخطيرة الموكولة اليها ، بل هى لم تكن قط فى مستوى هذه المسؤوليات ، ويعتبر هذا العامل من أخطـر عوامل السقوط والتخلف فى العالم العربى بصفة خاصة ، هـذا العالم ، رغم حضارته وامجاده التاريخية ، لم يستطع رغم قوته البشرية والمالية المعاصرة ، ان يتقدم خطوة الى الامام فى ميادين الوحدة والحرية والشورى ومحاربة الامية ، أو فى مجالات البحث العلمى ، والصناعة الثقيلة ، والتقدم الاقتصادى والاجتماعى ، ليس لأنه لا يملك الرجال الاكفاء المخلصين ، ولكن لانه يعتمد على أهل الثقة ، من المنافقين والمرتزقة ، وهذا يعنى ضعف وانهيـار الاطر القيادية .

المبحث 5 ـ مصافاة الكفار واتخاذهم اصدقاء :

يجب ان لا يفهم من مبدإ (معاداة الكفار) وعدم موالاتهم ، انه تعصب دينى ، وان على المسلمين ان يعلنوا الحرب عليهم لمجرد انهم كفار ، فهذا ليس من مقاصد الاسلام ، بدليل قوله تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذيـن قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم مـن دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ، ان تولوهم ، ومن يتولهـم فأولئك هم الظالمون » (9 / الممتحنة) .

فهذه الآية الكريمة كأنما تتحدث عن عصرنا هذا ، لتؤكد بأن جميع الذين اعترفـوا باغتصاب اسرائيل لفلسطين وساندوهـا

وظاهروها على اخراج سكانها وتقتيلهم وتشريدهم ، والذين اعترفوا وساندوا الاحتلال الروسى لافغانستان ، وظاهروا على اخراج سكانها وتقتيلهم ، هؤلاء وأمثالهم فى كل مكان على ظهر الارض ، هم الكفار الذين نهى الاسلام عن مصافاتهم وصداقاتهم من صليبيين واستعماريين وصهيونيين وشيوعيين وملاحدة ومجوس ، لا نعبد ما يعبدون ، لهم دينهم ولنا ديننا ، وكل من يخرج عن هذا النهي الالآهى ، فيصافيهم ويواليهم ، ويعترف بشرعية اغتصابهم للارض الاسلامية ، وسيادتهم عليها ، فانه منهم بنص القرآن فى قوله تعالى : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم » (51 / المائدة) ، لانه يصبح عمليا حايفا لهم ، يخدم مصالحهم ضد المسلمين ، وهذا العامل يمثل ضعف وانهيار العزة الاسلامية التى تتحول تدريجيا من مهادنة الكافر الى مصافاته ، ومن صداقته الى محالفته .

المبحث 6 ـ اتباع عوائد الكفار ومذاهبهم وقوانينهم :

يعبر هذا العامل عما نسميه اليوم بالغزو الفكرى ، حيث يبدو انه صاحب الاحتلال العسكرى لاقطار العالم العربى ، منذ القرن الماضى ، ولاشك ان المؤلف شاهد أثره وخطورته فى أقطار الشرق الاوسط ، أكثر مما كان عليه الوضع فى المغرب قبيل الغزو الفرنسى ، ولو شاهد وضعنا اليوم ، لكان حكمه الذى هو حكم الاسلام أشد وأقسى ، ومع ذلك فالفكر التقدمى الماركسى لا يقنع بهذا الغزو ، وانما يطالبنا بان نتخلى عن ايماننا بالوحي والدين واللغة العربية ، وننذمج فى حضارة الغرب ، اذا شئنا أن نتقدم وننهض ، ونحن فعلا نسير فى هذا الاتجاه ، باسم الثقافة الجديدة ، والتفتح على الثقافات العالمية ، كل قيمنا الاخلاقية ، ومبادئنا الاسلامية ، تراجعت وانكمشت تحت كابوس الانظمة

التربوية والثقافية والاعلامية الغربية ، التى سيطرت على حياتنا الفكرية ، ومحيطنا الثقافى .

وهذا العامل يعنى بوضوح ضعف وانهيار الشخصية الثقافية الاسلامية .

المبحث 7 ـ الاضرار بالمسلمين بالتسلط والظلم :

هذه احدى العوامل الكبرى لسقوط الدولة الاسلامية التى تعجز عن اقامة الحكم بما أنزل الله ، وضمان العدالة ، واداء الحقوق ، وتطبيق الشورى ، فى المجتمع الاسلامى ، وقديما قالوا : العدل أساس الملك ، أساس تماسك والتحام نظام الدولة ، فاذا شاع الظلم ، والاستبداد ، والاستغلال ، والفساد ، والرشوة ، اهتز النظام ، وتداعى للسقوط . ويمثل هذا العامل ضعف وانهيار العدالة والشورى .

المبحث 8 ـ الاشتغال باللهو والطرب وتبذير الاموال :

كان المفروض ان المجتمعات العربية ـ الاسلامية التى واجهت قديما ، ولا تزال تواجه كل أنواع الغزو والسيطرة والقهر الاستعمارى ، أن تفرض على نفسها (حالة الطوارىء) لأنها تعيش فعلا حالة حرب معلنة ، او هدنة مؤقتة ، أو حرب متوقعة ، بالتزام سياسة التقشف ، وتعبئة الشعب لمضاعفة العمل والانتاج ، وحماية الشباب من التفسخ والانحلال والميوعة ، لكن عندما يحصل العكس ، وتتجند وسائل الاعلام لنشر واشاعة كل رذائل وجرائم الحضارة الغربية وفواحشها ، وتعليمهم السير على نسقها ، واغرائهم بتجربتها ، باعتبار أنها تمثل طموح الشباب ومغامراته البطولية ، فيعم الفساد ، ويتضخم الاجرام والانحراف ، وتنتشر الخمور والمخدرات ، ألا يدل هذا على ضعف وانهيار الطاقة

الانتاجية والاقتصادية للمجتمع الاسلامى ؟ واستعمال السقوط الاخلاقى أداة للسقوط الاقتصادى ؟

المبحث 9 ـ الاعراض عن العمل بالكتاب والسنة :

هذا العامل ، يشكل جذور ظاهرة التخلف فى المجتمع الاسلامى ، ولا يمكننا ان نقوم بتحليل أسباب هذا الاعراض هنا ، لكن خطورته تتمثل فى ان المسافة بين الاسلام وأغلب المسلمين تزداد بعدا وعمقا ، ويتجلى أثرها فى ضعف وانهيار الحس الدينى ، فهذا العالم العربى يشاهد يوميا على الشاشة منذ سنة ، كيف يقاتل أطفال فلسطين المغتصبين اليهود بالحجارة ، سلاحهم الوحيد ، بينما عدوهم يقتلهم بالرصاص ، وبالغازات السامة ، وبالعصي يكسر بها عظامهم ، وفوق ذلك ينسف بيوتهم ، حقدا وغطرسة وانتقاما ، مشاهد لم يتقدم لها نظير فى تاريخ البشرية قاطبة ، تمر كل يوم امام 150 مليون من العرب ، وبعدها مباشرة تأتى مشاهد الرقص والخلاعة والفولكلور ، لتأكيد غيبة (الحس الدينى) بل (الحس الانسانى) ! ، وللسخرية ممن يعجبهم الحديث عن : الكرامة والشهامة والقومية العربية . ويمثل هذا العامل ضعف وانهيار الشخصية الاسلامية .

المبحث 10 ـ التجاهر بالمنكرات والمعاصى :

يرتبط هذا العامل بعلاقة مشتركة مع العامل الثامن ؛ لكن التجاهر بالمعاصي والمنكرات الاخلاقية داخل المجتمع الاسلامى ، يمثل قمة التحدى لمبادىء هذا المجتمع ، وعجز المجتمع ، أو تقبله ورضاه بهذا التحدى ، أو فقط عدم مبالاته بما يجرى حوله ، وفى كل الاحوال ، يدل التجاهر بالمنكرات لا على غيبة (القانون) ، وغيبة (الرقابة الاجتماعية) فقط ، بل وأيضا غيبة (الرأى العام)، وبهذا الاعتبار يصبح التجاهر بالمنكرات عاملا من عوامل سقوط

الدولة الاسلامية، يدل على ضعف وانهيار شخصيتها الاخلاقية، التى يفرض دينها احترام القانون ، ورقابة افراد الشعب لهذا الاحترام ، وقيام رأي عام يمثل وجود هذه الرقابة ، وهذا لا يعنى ان التجاهر بالمنكرات فى دولة غير اسلامية يعتبر أيضا من عوامل سقوطها ، طالما انه تقبلها ، وأصبحت جزءا من اعرافه واخلاقه .
ومن منا لا يحفظ قول أمير الشعراء :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا ؟

المبحث 11 ـ ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر :

منح القرآن الامة الاسلامية المكانة الفضلى على جميع الامم، لتميزها بصفتين :

الاولى : انها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

والثانية : انها تومن بالله .

وذلك بقوله تعالى : « كنتم خير أمة اخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله » (110 / ءال عمران)، فهو اذن أفضل الفضائل الانسانية على الاطلاق ، بل هو جماعها ، وقد قدمه الله تعالى حتى على الايمان به ، ولا يوجد فى غير هذه الامة المحمدية ، لذلك كان التخلى عنه من أخطر عوامل سقوطها ، لانها به تتميز ، وبه تفضل الامم الأخرى ، اذ يتحمل كل فرد فى المجتمع مسؤولية القيام بمراقبة السلوك المثالى ، وحض الناس عليه ، ونهيهم عن المنكر اذا اتجه الناس اليه . ومن شأن هذه المسؤولية الشعبية الفريدة من نوعها ، ان تضمن بفعالية وسرعة ، حقوق الناس وحرياتهم ، وممارسة العدالة والمساواة بينهم ، فى حياتهم اليومية ، حتى لا تطغى حرية الفرد على حساب الجماعة ، ولا سلطة الجماعة على حرية الفرد .

وبالتأمل فى هذه العوامل ، نلاحظ ان « جسم الدولة الاسلامية » سيسقط لامحالة ، كليا ، مع توفرها جميعا ، وجزئيا ، مع وجود بعضها .

ونقدم فيما يلى : جدولا بيانيا يتضمن « عوامل السقوط » المشروحة فى فصول (النصيحة) الآنفة الذكر ، والمصنفة حسب منهج علمى استقراءى من طرف المؤلف ، مع العلم بان نسبة تأثير كل عامل منها ، والدور الذى يلعبه فى خلخلة (بناء الدولة الاسلامية) تحتاج الى دراسة اجتماعية معمقة ، ما احوجنا اليها ، ولو على سبيل التقريب ، ولكن نماذج هذا السقوط ، فى مستوياته ونسبه المختلفة ، قائمة أمامنا حيث اتجهنا فى اقطار العالم العربى ، واغلب اقطار العالم الاسلامى ، وقد ارفقنا بهذه العوامل مدلولها السياسى - العلمى ، قصد توضيح المفاهيم والمصطلحات الاسلامية ، بنظيرتها السياسية - الاجتماعية المعاصرة ، كما قابلناها بعوامل النهوض المضادة لها ، اذ بالقضاء على عوامل السقوط ، تتحقق عوامل النهوض التى هى الهدف الاسمى لكتاب (النصيحة) .

هنا نجد أنفسنا أمام « مشروع كامل » لبناء الدولة الاسلامية على المدى البعيد ، لكنه سيكون بناء راسخا مضمون النتائج ، يحدد خطوطها السياسية والعسكرية والادارية والثقافية والدينية والقانونية والشورية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية .

عوامل سقوط الدولة الاسلامية وعوامل نهوضها
حسب منهج (النصيحة)

رقم المبحث	عوامل السقوط	مدلولها السياسى والعلمى	عوامل النهوض	مدلولها السياسي والعلمي	نوع العامل
1	اختلاف كلمة أهل الاسلام	انهيار القوة المعنوية	وحدة كلمة أهل الاسلام	بناء القوة المعنوية	سياسى
2	ترك الاستعداد الحربى	انهيار القوة المادية	الاستعداد الحربى	بناء القوة المادية	عسكرى
3	ترك الجهاد	انهيار القوة الدفاعية	الجهـــاد	بناء القوة الدفاعية	عسكرى
4	اسناد أمور الدين لغير مستحقيها	انهيار الاطر القيادية	اسناد أمـــور الدين لمستحقيها	بناء الاطر القيادية	ادارى
5	مصافاة الكفار وموالاتهم	انهيـــار العـــزة الاسلامية	معاداة الكفار	بنـــاء العـــزة الاسلامية	اسلامى
6	اتبـــاع عوائدهـــم ومذاهبهم وقوانينهم	انهيـــار الشخصية الثقافية	رفـــض عوائدهـــم ومذاهبهم وقوانينهم	بنـــاء الشخصيـــة الثقافيـــة	ثقافى

7	الاضرار بالمسلمين بالتسلط والظلم	انهيار العدالة والشورى	خدمة المسلمين بالاخوة والاحسان	بناء العدالة والشورى	قانونى شورى
8	الاشتغال بالطرب وتبذير الاموال	انهيار الطاقة الانتاجية	القيام بالاعمال الجادة والتنمية الاقتصادية	بناء الطاقة الانتاجية	اخلاقى اقتصادى
9	الاعراض عن العمل بالكتاب والسنة	انهيار الشخصية الاسلامية	العمل بالكتاب والسنة	بناء الشخصية الاسلامية	اسلامى
10	التجاهر بالمنكرات والمعاصى	انهيار الشخصية الاخلاقية	الاعتصام بمكارم الاخلاق	بناء الشخصية الاخلاقية	اخلاقى
11	ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر	انهيار الرقابة الاجتماعية	الامر بالمعروف والنهي عن المنكر	بناء الرقابة الاجتماعية	اجتماعى

« نظرية اجتماعية » لتفسير ظاهرة سقوط الدولة الاسلامية :

كان خطر سقوط المغرب تحت الاحتلال الفرنسي الوشيك الهاجس المقيم المقعد للمؤلف، وقد عاش مراحل المخاض الاخيرة له ، مع السلطان عبد العزيز وأخيه السلطان عبد الحفيظ ، فاندفع لتحليل أسبابه وعوامله الاساسية من وجهة نظر العمق الاسلامي ، وبالاستناد الى نصوص القرآن والسنة ؛ وحصرها في أحد عشر عاملا وسببا ، وخص كل واحد منها بمبحث مستقل .

وفي المبحث الاول رأى المؤلف ضرورة التذكير بسقوط الاندلس ، ودور النصارى في تحريك أسباب الخلاف بين المسلمين وغدر الاسبان ، وعدم الثقة بشروط معاهدتهم بالقدر الذى يكفي للتحذير من خطر ابرام المغرب لمعاهدة مع فرنسا ، كيفما كانت شروطها براقة ، لكن المؤلف لم يقل ان عوامل الاختلال والعطب المؤدية للسقوط خاصة بالمغرب ، بل وضعها في صيغة عامة تشمل كل الشعوب الاسلامية بما فيها شعب الاندلس .

وهكذا اكتشفنا ، ونحن نتأمل منهج المؤلف في (النصيحة) ، انه فعلا قام بعملية مسح شاملة لعوامل « سقوط الدولة الاسلامية » تعتمد على الملاحظة العلمية لتطور احداث المغرب التي عاصرها حتى ليلة سقوطه . وعلى سوابقها التاريخية خاصة احداث الاندلس ، كما تعتمد على منهج الاستقراء لهذه العوامل (1) ، داخل مجتمعاتنا المتداعية السقوط ؛ بالمقارنة مع مجتمعات الاسلام في الصدر الاول ، ذات البناء القوي الملتحم ؛ وفي نفس الوقت قام بتحليل أثر وخطورة كل عامل من وجهة نظر النصوص الاسلامية ، التي لا تختلف اطلاقا مع التحليل النفسي ــ الاجتماعي ، للسلوك الانساني ، أو مع الخطط الحربية ،

---

1) لقد حاولت عبثا العثور على عامل آخر للسقوط يحمل رقم 12 ، اذ ما من عامل يخطر بالبال ، الا ويندرج في احد العوامل (11) السابقة .

أو الانظمة السياسية أو الاقتصادية ، ذات الاهداف الانسانية :

وبذلك فإن المؤلف قدم لنا بعمله المنهجى (1) هذا « نظرية اجتماعية » هى الاولى من نوعها فى الدراسات الاجتماعية (السوسيولوجية) المعاصرة ، فيما اعلم ، لتفسير « ظاهرة سقوط الدولة الاسلامية » ، التى تكررت خلال التاريخ ، وعايشها أيضا بسقوط المملكة المغربية تحت الاحتلال ، بعد 12 قرنا من الاستقلال ، وتتكرر اليوم مع العرب فى فلسطين ، ونعنى بسقوط الدولة الاسلامية ، زوال وانحسار الحكم الاسلامى والشريعة الاسلامية عنها ، سواء بوقوعها تحت حكم استعمار كافر ، أو بقيام انقلاب عليها من الداخل ، أو بازالتها جملة واخراجها من ارضها . كما حدث فى الاندلس أمس ، وفى فلسطين اليوم ، وكما أشرنا آنفا ، فان هذا السقوط قد يكون كليا ، اذا توفرت جميع العوامل ، وقد يكون جزئيا بتوفر بعضها فقط .

عبد الله عنان لم يستوعب (عوامل سقوط الاندلس) :

وقد فوجئت ــ عندما انتهيت من تسجيل الملاحظات السابقة ــ

---

(1) اثنى علماء المغرب ، كما أثنى المستشرقون على دقة المنهج العلمى الذى سبق ان استعمله المؤلف فى تاريخه الكبير « سلوة الانفاس فيمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس » ، وخاصة منهم كايو وليفى بروفنصال وروني باصى مدير المدرسة العليا للآداب بباريس الذى كتب بحثا عنه فى 100 صفحة القاه فى مؤتمر المستشرقين الدولى الذى انعقد بالجزائر سنة 1904 ، وبدأت بتعريبه ونشره مجلة (العبقرية) التى كان يصدرها بتلمسان صديقنا الاستاذ عبد الوهاب بن منصور فى عددها الخامس (شوال 1366) .

وقال الدكتور ليفى بروفنصال فى كتابه (مؤرخو الاشراف) عن صاحب (السلوة) : « ان عنايته بالتحقيق لم يعهد وجودها الى مثل هذا الحد البعيد فى المغرب » .. واعتبره « مجددا بالأمراء » فى تخطيطه ومنهجه فى البحث وقال : ان السلوة « تكون خير القواميس المغربية لتراجم الرجال .. وستبقى وثيقة من الطراز الاول لمن شاء الكتابة عن تاريخ اعلام مدينة فاس » ، وتمنى ان تنشر ترجمتها قريبا ، لانها أفيد بكثير مما ترجم من صنفها من مؤلفات أقدم » :

وأنا اتصفح كتاب العربى : « اندلسيات » الذى تفضلت مجلة العربى الكويتية بارساله الي مشكورة فى الوقت المناسب تماما ، وهو يضم مجموعة من مقالات وأبحاث المؤرخ الاستاذ عبد الله عنان عن الاندلس ، بالحاجه فى ان تقوم لجنة خاصة من العلماء المتخصصين فى تاريخ المغرب والاندلس ، ذات طابع دولى عربى اسلامى ، لدراسة « عوامل سقوط الاندلس وظروفه » ويصف مهمة اللجنة بأنها قد تستغرق اعواما ، وتملأ كتبا ، وانها تفوق طاقة المجهود الشخصى .

عبد الله عنان الذى قضى أكثر من ثلاثين عاما فى دراسة تاريخ الاندلس وحضارتها ، وانجز أكبر موسوعة معاصرة عنها ، يطالب قبل وفاته بانشاء مثل هذه اللجنة ، التى يقترح ان تعمل لحساب الدول العربية والاسلامية ، طالما انها ستقدم لهذه الدول السر المجهول الذى يتمثل فى « عوامل سقوط الاندلس » ! ، ماذا يعنى بهذه العوامل ، مع انه ذكر الكثير منها ، وأيد اصحابها من امراء الطوائف ، وبرر اعمالهم ، ونوه بمواقفهم الخيانية ؟ !

ومن جهة اخرى نراه يتحدث عن الامام ابن حزم المؤرخ الفيلسوف والفقيه المجتهد بكثير من التقدير ، وقد عاش عصر انحلال الخلافة الاندلسية ، وقيام دول الطوائف ، وشاهد من مثالبهم ، وبغيهم واستهتارهم ، ما هز مشاعره الى الاعماق ، وكان عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى شامل .

وينقل تعليق ابن حزم وسخريته من قيام اربع خلافات بالاندلس فى وقت واحد ، ورسالته فى الرد على أسماعيل بن نغرالة اليهودى وزير غرناطة الذى الف رسالة عن الاسلام رأى فيها ابن حزم طعنا فى بعض آيات القرآن ، ورأى تقصير باديس بن حبوس أمير غرناطة فى ردع وزيره ، وفى الدفاع عن الدين ، ولم تكن هذه سوى ناحية واحدة من نواحى استهتار ملوك الطوائف وفسادهم ، وقد جاء فى رسالة ابن حزم هذه الدعاء التالي :

« اللهم انا نشكو اليك تشاغل اهـل الممالك من اهل ملتنـا بدنياهم عن اقامة دينهم ؛ وبعمارة قصور يتركونها عما قريب ، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم ، وبجمع اموال ربما كانت سببا الى انقراض اعمارهم ، وعونا لاعدائهم عليهـم ، عن حياطـة ملتهم الـتى بها عـزوا فى عاجلتهـم ، وبها يرجون الفوز فى آجلتهم .... » (1) .

ويتابع عنان عرضه لما جاء فى بعض رسائل ابن حزم الاخرى ، حيث يصدر حكمه الشامل على اولئك الامراء ، وعلى سياستهـم الداخلية والخارجية ، وعلى تصرفاتهم الباغية فى حق رعاياهم .. وذلك الفساد الشامل الذى يسود ممالكهم ، وذلك الجور الفادح الذى ينزلونه بشعوبهم ، يجعلون منهم عبيدا يستصفون ثرواتهم، وثمار كدهم ارضاء لشهواتهم فى انشاء القصور الباذخة ، واقتناء الجوارى والعبيد ، والانهماك فى حياة الترف الناعم ، والاغراق على الصحب والمنافقين ، هـذا فضلا عن حشد الجند لتأييـد سلطانهم ، وتدعيم طغيانهـم ، وما ترتب على ذلك من انهيـار المعايير الدينية والاخلاقية ، واختلاط الحق بالباطل ، والحلال بالحرام ، كل ذلك يجمله لنا ابن حزم فى كلمة واحدة ــ المحنة أو الفتنة ــ ثم يصور انا تلك المحنة أو فتنة الطوائف فى « رسالـة التلخيص لوجوه التخليص » .

ويقول عن الفقهاء فى هذا العصر ، بأنهم كانوا أكبر عضـد لأمراء الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم ، وتزكية تصرفاتهـم الجائرة ، وابتزازهم لاموال الرعية ، وقد كانوا ياكلون على كل مائدة ، ويتقلبون فى خدمة كل قصر ، ليحرزوا النفوذ والمـال ، ويضعون خدماتهـم الدينية والفقهية لتأييـد الظلم والجور ، وخديعة الناس باسم الشرع ، وقد انفسح لهم ، فى ظل الطوائف

---

(1) عبد الله عنان : « اندلسيات » ص 52 ــ 57 كتاب العربى 20 الكويت 15 يوليه 1988 .

خاصة مجال العمل والدس والاستغلال ، واحتضنهم الامـراء الطغاة ، واغدقوا عليهم العطـاء . وقد فطن لذلك ، الى جانـب ابن حزم قرينه ومعاصره المؤرخ ابن حيان ، فحمل على الفقهاء ، وندد بصمتهم عن فضح الظلم الذى يرتكبه الامراء ، لانهـم « قد اصبحوا بين آكل من حلوائهم ، وخابط فى اهوائهم » .

وبعد ان استعرض عبد الله عنان عددا من الصور القاتمة التى سجلها ابن حزم لمجتمع الطوائف وأمرائهم الذين بلغ من ولائهم للنصارى ، وهتك شرائع الاسلام ، وحل عراه عروة عـروة ، واحداث دين جديد ، والتخلى عن الله عز وجل ، الشىء الذى جعل ابن حزم يقسم قائلا :

« والله لو علموا ان فى عبادة الصلبان تمشية لامورهم لبادروا اليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى ، فيمكنونهم مـن حرم المسلمين وابنائهم ورجالهم ، يحملونهم أسارى الى بلادهم .. وربما اعطوهم المدن والقـلاع طوعا ، فأخلوها من الاسـلام ، وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفا من سيوفه » ، بعد ذلك تساءل عنان :

ـ « فهل كان ابن حزم مبالغا ؟ وهل كان بالاخص متحاملا ؟

ـ هذا ما لا نعتقد ، لقد كان ابن حزم يشير بأسلوبه القـوى اللاذع الى وقائع وظروف تؤيدها كل الروايات والوثائق المعاصرة ؛ وكان بحكم مركزه الاجتماعى الممتاز ، ورفيع مكانته العلميـة والدينية ، يستطيع ان يرى من أوضاع الامور ما لا يستطيـع ان يراه غيره ..

وقد توفى ابن حزم فى سنة 456 هـ (1064 م) ، وممالك الطوائف فى ابان قوتها وازدهارهـا ، وقبل ان تنحدر الى مـا انحدرت اليه فيما بعد من الانحلال المعنوى الشامل ، بل لقد كان كل ما انتهت اليه تلك « الفتنة » القومية ـ فتنة الطوائف على

حد قول ابن حزم ــ من سقوط طايطلة حصن الاندلس الشمالى ، وانخذال ممالك الطوائــف ، ووقوعها جميعا تحت رحمة مالــك قشتالة ، كان ذلك كله مما يؤيد اقوال ابن حزم وتنبؤاته ، ولو شهد الفيلسوف هذه المرحلة الاخيرة من انحلال ممالك الطوائف ، لكان بلا ريب فى نظراته واحكامه ، أشد قسوة وعنفا .

لقد كان ابن حزم مؤرخا عظيما ، كما كان فيلسوفا عظيما واماما من اعظم أئمة التفكير الاسلامى » .

هذه شهادة مؤرخ الاندلس المعاصر لنا عبد الله عنان ، لمؤرخ الاندلس ابن حزم الذى شغل عصر الطوائف من حياته نحو ثمانين عاما ، وشغل حياته منذ فتوته الى وفاته .

نتساءل بعدها :

ــ هل استوعب عنان « عوامل سقوط الاندلس » من خلال ابن حزم وابن حيان ، وابن بسام ، وابن خاقان ، وغيرهم ، وبالمعايير الاسلامية ، العلمية ، التاريخية ؟ .

ام له نظرته الخاصة المتأثرة بالفكر الغربــى ، ومفاهيمــه الماديــة ، ومصطلحاته الخاصة بالحريــة ، والوطنية الضيقــة ، والاستقلال الاقليمــى ، يحكم مــن خلالها ، وبمعاييرها عــلى عصور واحداث ومجتمعات اسلامية مضت منذ الف عام ؟ .

لنأخذ بعض الامثلة :

1 ــ يصف عهد حكم المرابطين والموحدين بالاندلس بأنــه نوع من الحكــم الدينى المتزمت كمــا يصف المرابطين بانهــم يضطرمون بالافكار الرجعية العتيقة ، لأن دولة التفكير والادب التى كانت مزدهرة فى عهد الطوائف ، ركدت فى عهدهم ، ويقول عن عبد الله بــن ياســين الجزولى ، مؤســس مدرسة « التربيــة الاسلامية » التى تكون فيها المربطون ، بأنه « فقيه من الغلاة » ،

لكنه يعترف بازدهار الثقافة والعلوم فى عهد الموحدين » (1) .

نلاحظ هنا ان عبد الله عنان ـ مثل جيل من المثقفين المتغربين ـ مفهومهم عن الاسلام ، هو مفهوم الغربيين اللادينيين ، للدين المسيحى : طقوس وممارسات دينية لاعقلانية ، تمثل الرجعية والتزمت والتخلف الفكرى ، هؤلاء عاجزون ، أو هم يرفضون مسبقا ، تصور ان الاسلام دين ودولة وحضارة انسانية عالمية خالدة ، وان المسلمين أمة واحدة فى العالم ، تومن بوحدة البشرية ، ووحدة الالوهية .

2 ـ يقول أيضا « .. ولبثت الانداس تحت حكم المرابطين ثم الموحدين أكثر من مائة وخمسين عاما ، محيت خلالها صحيفة الاندلس من الوجود ، ولبثت مستعمرة مغربية ، واصبحت الاندلس لا تعرف الا بأنها مستعمرة مغربية تحت حكم الموحدين ، ومحيت الاندلس من الوجود ككيان مستقل ، ولبثت تابعة فى وجودها لحكومة الموحدين ، وهى التى تمثلها ، وتتحدث باسمها » (2) .

وهنا يؤكد عنان تجاهله وانكاره للدور الاسلامى التاريخى العظيم الذى قام به المرابطون والموحدون فى الاندلس ، وينزل الى مستوى « الفكر الوطنى » و « التحرير والاستقلال » الاقليمى المزيف ، الذى أخذه عن الغرب فى عصور سقوطنا الاخيرة ، ويعتبر المرابطين والموحدين « محتلين » للاندلس ، لا حماة شعبها ودينها وحضارتها ، كما يقول زملاؤه من تلاميذ الفكر الماركسى : ان الخلافة العثمانية قامت باحتلال شرق اروبا تحت غطاء نشر الدين ، وانها كذلك احتلت العالم العربى ، لكنهم اليوم لا يستطيعون ان ينكروا ان السلطان عبد الحميد رفض سنة

(1) المرجع السابق ص 29 ــ 30 .
(2) المرجع السابق ص 153 .

1895 م عرض هرتزل السماح لليهود بانشاء مستوطنات يهودية بفلسطين ، مقابل 150 مليون ليرة انجليزية قائلا : « ان الاوطان لا تباع » ، وقال فى مذكراته : اننى ادرك اطماعهم جيدا ، وانهم اذا استوطنوا أرضا استعمروها ، ولا يمكن ان اتخلى عن شبر واحد من فلسطين ، وكان هذا الموقف الصارم سبب عزله عن عرش الخلافة من طرف الاتحاديين الذين كان اغلبهم من اليهود ، واليوم يوجد الثوريون والتقدميون العرب فى طليعة المعترفين بدولة اسرائيل ، وشرعية اغتصابها 80 ٪ من أرض فلسطين المقدسة ،مقابل وهم ساذج بأن تعترف اسرائيل بدولة فلسطينية مستقلة على 20 ٪ من الارض المحتلة ! ، الم يكن عبد الله عنان على حق ، عندما طالب المؤسسات الجامعية والدول العربية بدراسة « عوامل سقوط الاندلس » ؟ ! ، لو كانوا فعلوا ووعوا درسها جيدا ، كما شرحه ابن حزم فى « رسائله » ، وفصله ابن جعفر فى «نصيحته»، ما سقطت«الارض المقدسة»،ولكن العرب آثروا العمل والتمسك بفضيلة « السلام » الدولى ، شعار طغاة الحروب ، وموقدى نارها فى العالم ، مكتفين بالتفرج على « حرب الحجارة » التى يخوضها اطفال فلسطين .

3 ـ يقول فى مقال آخر : « حينما عبر المرابطون ، سادة المغرب ، بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين ، فى أوائل سنة (479 هـ 1086 م) شبه الجزيرة الاسبانية استجابة لصريخ « ملوك الطوائف » عقب سقوط طليطلة فى يد اسبانيا النصرانية ، وانقاذا للاندلس مما كان يتهددها من خطر السقوط والفناء ، كان المفروض ان يكون هذا العبور للجحافل المغربية ، جهادا فى سبيل الله ، وعمل انقاذ محض ، تغادر بعده شبه الجزيرة الى بلادها .

وقد تم هذا الانقاذ بانتصار الجيوش المرابطية والاندلسية المتحدة على جيوش اسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة الحاسمة (رجب 479 هـ) وانقشع الخطر الذى كان يهدد الاندلس

وملوك الطوائف الى حين ، وعاد البطل المرابطى يوسف بن تاشفين على راس قواته ، مكللا بغار الظفر .

بيد انه لم تمض أعوام قلائل ، حتى انقلب الاخوة المنقذون الى فاتحين ، وعبر يوسف فى قواته الى شبه الجزيرة مرة أخرى . وقامت جيوشه بافتتاح ممالك الطوائف واحدة بعد اخرى ، وهكذا بسط المرابطون حكمهم على الاندلس ، وغدت الاندلس بعد ذلك ولاية مغربية من ولايات الدولة المرابطية الكبرى » (1) .

نتساءل : هل موقف عبد الله عنان هذا ، يعبر عن سذاجة سياسية ، أو هو محاولة تافهة للطعن فى صدق نية الجهاد عند المرابطين ، وانهم جاءوا فقط لاحتلال البلاد ، فى الوقت الذى يعترف فيه بانهم استجابوا لصريخ ملوك الطوائف الذين أحسوا بالخطر عليهم جميعا ، وانهم فعلا عادوا للمغرب بعد انتصارهم الساحق فى معركة « الزلاقة » ، دون ان يفكر يوسف بن تاشفين فى استغلال انتصاره هذا ، كمبرر لفرض نوع من الحماية أو السيطرة على الاندلس ، طالما ان ملوكها عاجزون عن مقاومة اعدائهم، كما يحدث فى عالمنا اليوم، ويتجاهل عنان عمدا هنا أسباب عبور يوسف بن تاشفين الثانى للاندلس ، التى ذكرها هو فى كتابه « دول الطوائف » (2) حيث عاد ملوك الطوائف الى الاستنجاد به ، وقام المعتمد بن عباد نفسه بالعبور للمغرب ، والالحاح عليه فى ذلك ، ولم يقرر يوسف بن تاشفين القضاء على (نظام ملوك الطوائف) الا فى عبوره الثالث للاندلس ، بعد ان تأكد من عجز هذا النظام وفساده ، وعودة هؤلاء الملوك للتحالف مع النصارى ، بسبب ضعف دينهم ، وسقوط اخلاقهم ، وبعد ان تلقى فتاوى فقهاء المغرب والاندلس بوجوب خلعهم ، بل وحتى

---

(1) المرجع السابق ص 81 .
(2) طبعة 2 ص 337 مكتبة الخانجى بالقاهرة ، 1969 .

من أكابر فقهاء المشرق كالامام الغزالى وأبى بكر الطرطوشى وغيرهما ، فضلا عن العامل الدفاعى الاستراتيجى الذى جعل يوسف بن تاشفين يدرك ان الاندلس لا تستطيع فى ظل امرائها المترفين المتخاذلين الدفاع عن نفسها ، وستسقط حتما فى قبضة ملك قشتالة ، وسقوط الاندلس معناه تهديد المغرب من طرف اسبانيا النصرانية .

ان قرار المرابطين بوضع حد لنظام الطوائف بالاندلس ، وضمها لدولة المغرب الاسلامية ، كان واحدا من اعظم وأحكم القرارات السياسية الناجحة التى اتخذها قادة المسلمين العظام فى التاريخ ، ليس فقط لانه ضمن استمرار وجود الدولة الاسلامية فى الاندلس اربعة قرون أخرى (479 — 897 هـ) (1086 — 1492 م) ، وانما أيضا لان هذه القرون الاربعة بدورها اكسبت المغرب كمؤسس لهذه الدولة ، وحام لظهرها — نفوذا وهيبة فى الغرب الصليبى ، واخرت احتلال أراضيه الوطنية من طرف دولتين صليبيتين متعاونتين — فرنسا واسبانيا — أربعة قرون أخرى (897 — 1330 هـ) (1492 — 1912 م) ، اذ ليست مجرد صدفة ، ان يكون المغرب آخر دولة فى شمال افريقيا تقدم فرنسا على غزوها ، بعد احتلال الجزائر سنة 1830 م ، وتونس سنة 1880 م ، وآخر دولة عربية يقتنع الغرب الصليبى بان الوقت قد حان للقضاء على سيادتها .

هل كان المؤرخ عبد الله عنان يملك النظرة التركيبية الشاملة لاستيعاب احداث التاريخ ، وتفسيرها انطلاقا من واقع مستوى الفكر السياسى لصانعى هذه الاحداث وهم فى أوج عظمتهم ، لا من واقع مستوى الفكر ، بعد تسعة قرون من هذا التاريخ ، واصحابه فى آخر سلم الانحطاط ؟

4 — بعد ان تحدث طويلا عن ثورة محمد بن سعد بن مردنيش

فى شرق الاندلس ، ومملكته الطائفية فى بلنسية ومرسية ، التى حاربت المرابطين والموحدين معا زهاء عشرين سنة ، وتأكد لديه ان ابن مردنيش هذا اسبانى الاصل ، وانه — حسب الرواية العربية ! — كان شغوفا بالتشبه بالنصارى (القشتاليين) فى الزي والملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ويؤثر التحدث بها ، وكان جيشه يضم كثيرا من النصارى كالمرتزقة من القشتاليين والكطلان والبشكنس ، يبتنى لهم الاحياء والمعسكرات ويزودها باسباب الرفاهية والحانات وكان يغدق عليهم الصلات الوفيرة من المال والاقطاعات ، بعد ان اشتط فى فرض المغارم والرسوم المختلفة على رعاياه المسلمين ، اضاف قائلا :

« .. وكان وقوعها (ثورة ابن مردنيش) على مقربة من الممالك النصرانيـة ، يفتح لها باب الاتصال المستمر بالملوك النصارى ، ومحالفتهم والإستنصار بهم ، وكانت هذه الوسيلة تعتبر فى تلك الآونة من الخطط المشروعة ، فى مقاومة المرابطين والموحدين » (1) .

وختم بحثه معلقا :

« .. ولم يكن ثمة ما ينتقص من افعال ابن مردنيش من الناحية المعنوية سوى عامل واحد ، هو اسراف ابن مردنيش فى مصادقة النصارى ومحالفتهم ، واعتماده على عونهم ، بيد ان هذا العامل كانت تبرره من بعض النواحى ، وتلطف من وقعه ومؤثراته ، احداث العصر وظروفه !! ، ومن ثم فان المؤرخ يستطيع على ضوء هذه الاحداث والظروف ان يصف ابن مردنيش بزعيم التيار الاندلسى !! (2) .

---

(1) المرجع السابق ص 84 — 86 .
(2) المرجع السابق ص 92 .

تعليق عبد الله عنان هنا يعبر أيضا عن فكره المتغرب ، فهو لا يرى بأسا فى كل خيانات ابن مردنيش ، وعمالاته للنصارى ، ومحاربته لدولة المرابطين الاسلامية ، ثم لدولة الموحدين نحو عشرين عاما ، وانحرافه عن كل المبادىء الاسلامية ، ان كل ذلك ليس بمهم ، ويمكن تبريره بظروف العصر ، طالما انه يتميز بفضيلة كبرى تغطى جميع عيوبه فهو زعيم (تيار الحرية والاستقلال الاندلسى !) .

5 ــ قبل سقوط الاندلس النهاءى سنة 1492 م بنحو قرنين ، تحدث عبد الله عنان عما صنعه احد ملوك الطوائف المتأخرين هو السلطان محمد بن الاحمر الكبير مؤسس مملكة غرناطة الذى كان « يخشى على مملكته الفتية الناشة من عدوان قشتالة واطماعها ، وكانت حركة الاسترداد الاسبانية بعد الاستيلاء على قواعد الاندلس الكبرى : قرطبة ، بلنسية ، مرسية ، شاطبة ، جيان ، اشبيلية ، فى نحو خمسة عشر عاما فقط (633 — 646 هـ 1236 — 1248 م) تندفع بعنف نحو الاستيلاء على قواعد واراض جديدة ، ولم يكن امامها من القوى الاندلسية المتماسكة ، سوى مملكة غرناطة الناشئة ، التى اجتمعت حولها أشلاء الاندلس الباقية ، .. وكان ابن الاحمر يرقب هذا التيار الجارف جزعا ، ويحاول ان يقف فى سبيله بسائر الوسائل ، ومنها وفى مقدمتها مصانعة ملك قشتالة القوى فرناندو الثالث ، وقد ذهب ابن الاحمر فى هذه المصانعة الى حد ان ارتضى فى معاهدة المهادنة والصلح التى عقدها مع هذا الملك القاهر ، ان يعترف بحمايته ، وان يحكم اراضيه باسم ملك قشتالة ، وان يؤدى له الجزية ، وان يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابى (الكورتيس) باعتباره من الامراء التابعين للعرش ، وأخيرا ان يعاونه فى حروبه ببعض قواته ، بل لقد ارتضى ابن الاحمر ، تنفيذا لهذا الاتفاق ، ان يعاون قشتالة ببعض قواته فى محاصرة أشبيلية ، وان يشترك بذلك فى افتتاح

هذه الحاضرة الاندلسية التالدة لحساب النصارى .. وقد تضمنت معاهدة الهدنة والصداقة فوق ذلك كله ، أن يتنازل الملك المسلم الى ملك قشتالة عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شريش ، والمدينة ، والقلعة ، وقادس وغيرها ، وقيل ان ما نزل عنه ابن الاحمر يومئذ للنصارى قد بلغ أكثر من مائة موضع ، معظمها فى غربى الاندلس ، وكان ذلك فى سنة 665 هـ (1267 م) .

وهكذا فقدت الاندلس معظم قواعدها التالدة فى نحو ثلاثين عاما فقط (627 – 655 هـ) فى وابل مروع من الاحداث والمحن ، واستحال الوطن الاندلسى الذى كان قبل قرن فقط يشغل نحو نصف الجزيرة الاسبانية ، الى رقعة متواضعة ، هى مملكة غرناطة الصغيرة » (1) .

هذا نموذج آخر متأخر من ملوك الطوائف وانظمتهم المتهرئة، اللا اسلامية التى ظل عبد الله عنان يدافع عن استقلالها ، ثم انهارت بفعل (عوامل السقوط) التى لم يكتشفها ، أو لم يؤمن بها رغم كل ما ذكره ابن حزم عنها ، وأيده هو فى صحة آرائه وتنبؤاته عنها ، ويبدو أنه لم يستخلص العبرة – فى آخر المطاف – من سقوط من سماهم بزعماء (التيار الاندلسى) الواحد بعد الآخر ، فى حالة من الذل والخزي ، وزوال ممالكهم جملة وتفصيلا ، لم يتحسر عليهم ولم يرث لحالهم ، لأنهم لم يجدوا هذه المرة فى المغرب « مرابطين » ولا « يوسف بن تاشفين » ، ولا حتى « مدرسة الفقيه المتزمت » عبد الله بن ياسين !

لقد حاول عبد الله عنان فى مقالاته هذه ، كمؤرخ ، ان يقوم بـ (قراءة جديدة لتاريخ الاندلس) ، مثلما يقوم الآخرون ، كفلاسفة ، بـ (قراءات جديدة للفكر العربى) ، فلم يكن مؤهلا

---

(1) المرجع السابق ص 129 – 130 .

لأن يقدم للعرب آى درس من هذا التاريخ الطويل ، كما لم يكن أولئك أهلا لتقديم أى فكر من فلسفاتهم المادية الالحادية ، للأمة العربية الاسلامية ، وفاقد الشىء لا يعطيه .

ولأن العرب لم يستوعبوا الدرس من مأساة (اندلس القرن الخامس عشر) ، كان لابد ان تتكرر المأساة فى (فلسطين القــرن العشرين) ، فى الوقت الذى شاء القدر الالآهى ان يقدم للعرب المسلمين « نموذجا حيا للاسلام المحرر للشعوب » من المسلمين غير العرب ، يتمثل فى شعب افغانستان العظيم ، معجزة الاسلام فى القرن العشرين ، لكن علينا ان لا ننسى أيضا درس (الثورة الاسلامية الجزائرية) التى خاضها العرب والبربر معا ملتحمين باسم الاسلام فانتصروا ، وعندما يكون الجهاد لاعلاء كلمة الله يكون الانتصار محققا مهما كانت قوة العدو .

وحتى نتجنب ، نحن العــرب المسلمين ، المزيد من سقــوط أوطاننا المهددة ، ونحرر ما سقط منها ، ها هى « نصيحة اهل الاسلام » ، وهى خلاصة اكثر من 170 مرجعا من اصول الفكر الاسلامى ، تقدم لنا فى احد عشر مبحثا ، المنهج العملى لاحياء المؤسسات والمبادىء العليــا للحضارة الانسانية الــتى أقامهــا الاسلام ، والتى ارتبط وجودها بقوة الدولة الاسلامية وعظمتها كما ارتبطت غيبتها بانهيار الدولة وانحطاطها .

ترجمـــة المؤلـــف :

لم احاول فى هذا (المدخل) كتابة ترجمة لوالدى رحمه الله للاسباب التاليـــة :

أولا ــ لانه ترجم من طرف عدد كبير من تلاميذه ، ومـــن أصحاب المعاجم ، اذكر من بينهم :

1) طبقات المالكية للشيخ مخلوف
2) معجم الاعلام للزركلى .
3) دائرة المعارف البريطانية .
4) قاموس (المنجــد)
5) معجم الشيوخ للقاضى عبد الحفيظ الفاسى .
6) فهرس الفهارس ومعجم المعاجم للشيخ عبد الحي الكتانى.
7) فهرست الشيخ راغب الطباخ .
8) الدر الفريد الجامع لمتفرقات الاسانيد للشيخ عبد الواسع ابن يحيى الواسعى اليمنى .
9) الدرر البهية للشيخ مولاى ادريس الفضيلى .
10) نيل المراد فى معرفة رجال الاسنـــاد للشيخ الحجوجـــى البيضاوي
11) كنز اليواقيت الغالية فى الانساب العالية ، له أيضا .
12) اليواقيت الثمينة فى اعيان مذهب عالم المدينة ج 2 للشيخ محمد البشير ظافر الازهري .
13) أعلام المغرب للاستاذ عبد الوهاب بن منصور .
14) تاريخ تطوان للشيخ احمد الرهونى (فى نحو 80 صفحة) مخطوط .

15) بحث جامعى لنيل الاجازة فى كلية الشريعة بفاس سنـــة 1404 بعنوان : تقديم مؤلفات العلامة محمد بن جعفر الكتانى للطالب محمد ابـــلا .

16) فى مقدمة الطبعات الاخيرة لكتاب « الرسالة المستطرفة » للمؤلف ، بقلم حفيده الشيخ محمد المنتصر الكتانى .

17) فى مقالين بمجلة (الرسالة) المصرية فى عهد مديرهـــا المرحوم أحمد حسن الزيات
عـــدد 221 بتاريخ 1937/9/27 وعـــدد 222 بتاريخ 1937/10/4 .

18) فى مقدمة فهرس « سلوة الانفاس » ، للمؤلف ، الـــذى وضعته الخزانة العامة بالرباط سنة (1386 هـ 1966) بقلم حفيده المرحوم الشيخ محمد الناصر الكتانى .

19) فهرست القاضى احمد سكيرج « قدم الرسوخ فيما لى من الشيوخ » .

20) ترجمته الذاتية لنفسه ضمن كتابه الخاص بتاريخ الاسرة الكتانية « النبذة اليسيرة النافعة » المخطوط ، وهـــى فى نحو 60 صفحة .

ثانيـــا : ان اخـــى الاكبر العلامة المرحوم الشيخ محمـــد الزمزمى ألف كتابا خاصا عن حياته ، فضلا عن مذكرة تاريخية خاصة فى نحو 40 صفحة عـــن « علاقة السلطان عبد الحفيـــظ بالشيخ محمد بن جعفر الكتانى » فى عهد سلطنته بفاس ، وبعده فى الحرمين الشريفين ، كتبها بطلب من المؤرخ المرحوم مولاى عبد الرحمن بن زيدان ، لكن كتابه « اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس » توقف طبعه فى المجلد الخامس ، ومن هذه المذكرة التى تتوفر على معلومات مجهولة لدى المؤرخين والكتاب

المعاصرين عن شخصية السلطان عبد الحفيظ ، ومواقفه بعـد تخليه عن الملك ، نقلت بعض الفقرات السابقة .

ثالثـا : اننى ولدت بدمشق قبل عودة والدى مع الاسرة الى المغرب ووفاته بنحو ثلاث سنوات ، من زوجته الثانية ، فكنت اصغر سنا من بعض احفاده من زوجته الاولى ، واذلك لا اذكر حتى صورته ، ــ وهو لم يسمح قط بأخذ صور شمسية له ورعا ــ ومعلوماتى عنه مستقاة من الاسرة واصدقائها ، ولم تسمح لـى ظروفى مع الاسف بدراسة مؤلفاته دراســة جامعية تؤهلنـى للكتابة عن حياته ومؤلفاته ، ومع ذلك ، ففى هذا المدخل والمقدمة التى كتبها تلميذه وابن اخيه الاستاذ العلامة المجاهد الشيخ محمد ابراهيم بن العلامة الشيخ احمد بن جعفر الكتانى الاستاذ بكلية الآداب ومحافظ قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط سابقا ، صفحات معبرة اصدق تعبير عن شخصيته وحياته ، لم تنشر من قبل ، ولاعطاء فكرة عن انتاجه العلمى ، أضفت فى خاتمة هـذا الكتاب ملحقا بأسماء مؤلفاته مصنفة حسب الموضوعات ، وبالله التوفيق ، ومنه نستمد العون والهداية .

الرباط فى 20 رجــب 1409

28 بيرايــر 1989

د. ادريس الكتانى

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

مقدمة

النصيحة رأس الديـن واساس الاسـلام

أحمد الله الذى لا اله الا هو حق حمده ، وأصلى واسلم على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله وعبده ، وعلى آله واصحابه ليوث الورى وأسد الله وجنده ، ومـن تلاهم بالنصح العـام والانتصار لملة الاسلام الى يوم لقاء الله ورفده .

أما بعد فهذه ان شاء الله تعالى : (نصيحة أهل الاسلام) ، فى مشارق الارض ومغاربها الخاص منهم والعام ، فيما عرض لهم فى هـذا الوقت مـن داء الكفـرة اللئـام ، أعـداء اللـه تعالى وأعداء رسوله عليـه الصلاة والسلام ، نصيحة مختصرة جامعة ، موفية بالمقصود نافعة ، مؤدية للحـق المفترض ، قائمة ببيـان السبب فى البلاء الـذى عرض ، معلنة بمـا فيه الشفاء والعلاج ، مظهرة لما يحصل به السرور والابتهاج ، راجيا بها من الله تعالى جزيل الاجر والثواب ، طالبا منه سبحانه ان يحصل اليه الرجوع والاياب ، فانه على ذلك قدير ، وبالاجابة له حقيق وجدير ، آمـين .

وقد أخبر الحق تعالى فى كتابه ، بما يبعث على القيام بوظيفة النصح لعلى جنابه ، وهو حصول النفع به للمسلمين فقال تعالى : « وذكر فان الذكرى تنفع المومنـين » ، فالنفع به والحمـد لله لا محالة حاصل ، وان لم يحصل للكل حصل لاهل التقوى والخشية

الاماثل ، فان التقى كما قيل ذو نهية اذا نهى انتهى واذا أمـر ائتمر ، واذا ذكر بالله ورسوله انفعل وتذكر ، لقوة ايمانه وشدة ثباته فى الدين وايقانه ، ولذا قال تعالى مخبرا عن مريم حين رات جبريل عليهما السلام : « انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا » وقال : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » وقال : « فذكر ان نفعت الذكرى سيذكر من يخشى » ، ثم ذم من لا يقبل التذكرة ووصفه بالشقاوة وأوعده بالنار الكبرى فقال : « ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى » ، وذم أيضا من يانف عنها ويتكبر عن سماعها واوعده بجهنم فقال : « واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبيس المهاد » ومن ثم حط اكابر الصحابة فمن دونهم من السلف الصالح وفضلاء الملوك والوزراء والرؤساء رءوسهم ونفوسهم لمن يذكرهم بالله . أو يتلو عليهم آية من كتاب الله ، أو يرفع لهم حديثا الى المصطفى خير خلق الله ، ولو كان المذكر أو التالى او الرافع أصغر منهم سنا وقدرا ، واحط جاها ومكانة وفخرا ، لعلمهم بعظمة المذكور ، وأنه ممن تتصاغر عنده الجبال الشم وتلين له الصخور ؛ وذلك لان المذكر لم يذكرهم بنفسه ، ولا ذكر لهم شيئا عن جنابـه وحسه ، وانما ذكر لهم كلام شديد القوى ، أو رسوله الذي أخبر تعالى انه لا ينطق عن الهوى ، وقد اخرج البهيقى فى الشعب عن ابن مسعود مرفوعا : « ان ابغض الكلام الى الله عز وجل ان يقول الرجل للرجل اتق الله، فيقول : عليك بنفسك ، واخرج أيضا عنه قال : ان من اكبر الذنب عند الله ان يقول الرجل لاخيه اتق الله فيقول : عليك بنفسك ، انت تامرنى ؟ ، وأخرج أيضا عن سفيان قال : قال رجل لمالك بن مغول : اتق الله فوضع خده على الارض تواضعا لله ، وأخرج احمد فى الزهد عن الحسن : ان رجلا قال لعمر بن الخطاب اتق الله ، فذهب الرجل ، فقال عمر : وما فينا خير ان لم نقبلها ، وما فيهم خير ان لم يقولوها لنا ، وأخرج

ابن المنذر عن سلمان بن حبيب المحاربى قال : من وجد للذكرى فى قلبه موقعا فليعلم انه مومن ، قال الله تعالى : « وذكر فان الذكرى تنفع المومنين » فهنيئا لمن وفقه الله تعالى لقبول النصائح ، وجعله أهلا للتمسك بهاتيك المنائح ، وشكر مهديها اليه الشكر العظيم ، وجازاه عليها الجزاء العميم ، ووالله ثم والله انه السعيد حقا ، الحائز لكل الكمالات صدقا ، اذ ذلك عنوان صلاحه ، وادل دليل على توفيقه وهدايته ورشده وفلاحه ، وفقنا الله تعالى القبول ، وانعم علينا بجميع المنى والسول ، وكفانا شؤم انفسنا ، ووقانا شر خواطرنا وهواجسنا ، آمين .

العلماء الاتقياء حراس الشريعة

وقد جعل الله تعالى العلماء والابرار والاتقياء ، حراسا لشريعة سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، حافظين لها من التبديل والتغيير ، قائمين على من يريد شينها بالتهويل والتنفير ، فهم حماة هذا الدين ، والسلاح على اعداء الله المعتدين ، قال عليه الصلاة والسلام : « يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين » خرجه غير واحد عن جماعة من الصحابة ، وقال سيدى رضوان بن عبد الله الجنوي رضى الله عنه : نحن ان شاء الله تعالى حراس الشريعة ومن الحافظين لها ما استطعنا وانشد :

فنحن كلاب الدار طبعا ولم نزل ... نحب مواليها ونحرس بابها
نسبنا لهم اذ كانوا أهل عناية ... فان كرام العرب تحمى كلابها
اذا طردت يوما كلاب قبيلة ... فقومى كرام لا تهين كلابها

واخذ تبارك وتعالى أيضا الميثاق والعهد على أهل العلم ان يبينوه للناس ولا يكتموه فقال تعالى : « واذ أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » وأخرج ابن

عساكر فى تاريخه عن معاذ بن جبل مرفوعا : « اذا ظهرت البدع ، ولعن آخر هذه الامة أولها ، فمن كان عنده علم فلينشره فان كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد » وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عنه أيضا مرفوعا : « اذا ظهرت البدع فى أمتى ، وشتم أصحابى فليظهر العالم عامه ، فإن لم يفعل فعليه لعنة الله » . وهذا بمعنى ما تقرر ، وشاع وتكرر ، من ان العالم سيفه لسانه ، وانه رمحه الذى به طعنه وبيانه ، وانه اذا ظهرت البدعة وسكت مع قدرته واغنائه ، فعليه لعنة الله واوليائه ، واورده بعضهم حديثا مرفوعا بلفظ : « اذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله » واخرج ابو نعيم فى حليته وغيره عن ابن عباس مرفوعا : « من ادى الى امتى حديثا لتقام به سنة أو تثلم به بدعة ، فله الجنة » .

وجوب النصيحة على المسلمين

وأوجب عليهم أيضا النصيحة الخاصة والعامة ، وجعلها من دعائم الدين ، وكمال الاستقامة ، ففى صحيح مسلم وغيره عن تميم الدارى مرفوعا : « ان الدين النصيحة ، قالها ثلاثا ، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأيمة المسلمين وعامتهم » ، وهو حديث عظيم الشان ، وعليه مدار الدين والايمان، ولا يصح ما قيل انه احد ارباع الاسلام، بل المدار عليه وحده، وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال : اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : ابايعك على الاسلام ، فشرط على والنصح لكل مسلم ، فبايعته على ذلك ، واخرج احمد عن أبى أمامة مرفوعا قال الله عز وجل : احب ما تعبد لى به عبدى النصح ، واخرج ابن النجار عن جابر مرفوعا : « المومن اخو المومن لا يدع نصيحته على كل حال » ، واخرج الطبرانى عن حذيفة بن اليمان مرفوعا : « من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، ومن لم يصبح ويمس ناصحا

لله ولرسوله ولكتابه ولامامه ولعامة المسلمين فليس منهم » ، واخرج عبد الــرزاق والخليلى فى الاربعين عــن انس رفعه : « المومنون بعضهم ابعض نصحة وادون وان افترقت منازلهم ، وابدانهم ، والفجرة بعضهم لبعض غششة متخاذلون وان اجتمعت منازلهم وابدانهم » ، وأخرج الدارقطنى فى الأفراد والديلمى عن على مرفوعا : « لا يزال المومن فى فسحة من دينه ما محــض اخاه النصيحة فاذا حاد عن ذلك سلب التوفيق ، واخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن انس رفعه : السلطان ظل الله ورمحه فى الارض فمن نصحه ودعا له اهتدى ومن دعا عليه ولم ينصحه ضل » ، وقالوا : النصيحة رأس الدين وأساس الاسلام ، ولها بعثت الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومن لا نصيحة له لا دين له ، والناصح مشفق محب ، وغيره غاش مبغض ، وفى الحكمة : ودك من نصحك، وقلاك من مشى فى هواك، وفيها أيضا : من نصحك فقد احبك ، ومن داهنك فقد غشك ، وعن عمر رضى الله عنه قال : لا خير فى قوم ليسوا بناصحــين ، ولا خير فى قوم لا يحبــون الناصحين ، ودخل عليه مرة حذيفة بن اليمان فرءاه مهموما حزينا فقال : ما أهمك يا أمير المومنين ، فقال : أخاف ان اقع فى منكر فلا ينهانى أحد منكم تعظيما لى ، فقال حذيفة والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك ، فان لم تنته ضربناك بالسيف ، ففرح عمر وقــال : الحمد لله الذى جعــل لى اصحابا يقوموننى اذا اعوججت ، وفى رواية أخرى انه قال من رأى في اعوجاجا فليذكر لى ذلك ، فقام اليه بلال أو سلمان أو هما أو غيرهما من الصحابة فقال : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا فقال : الحمد لله الذى جعل فى هذه الامة من اذا رأى في اعوجاجا قومنى بسيفه .

والمومن يا عباد الله تعالى أخو المومن ، ومرءاته ، ولأخيــه المومن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وهو من أهل الايمان ، بمنزلة الرأس من الجسد ، فيألم لأهل الايمان كما يألم الجسد لما فى

الرأس ، والمومنون كجسد واحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، كما ياتى كل ذلك قريبا ان شاء الله تعالى فى احاديث متفرقة .

هجوم الاستعمار على الاقطار الاسلامية

وانه يا أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد نزل بنا من قبل أعداء الله تعالى ، وأعداء رسوله صلى الله عليه وسلم ، واعدائنا ، ما هو غير خاف عليكم ، بل هو معلوم بالتواتر والعيان لديكم ، فانهم دمرهم الله قاموا على ساق الجد والاجتهاد ، فى أخذ الاهبة والاستعداد ، وقصدوا بلاد المسلمين فى كل جهة ، وانتحوا نحوها على كل وجهة ، لا يرون فرصة فى الاسلام الا انتهزوها ، ولا شاردة فيه الا أخذوها واقتنصوها ، ولا حكومة ضعيفة اسلامية ليس لها حام الا محوها وضبطوها ، ولا حيلة أو خديعة تضر بالمسلمين ، وتوهن قواهم ، الا اجروها وفعلوها ، ولا طائفة من جهلة المومنين امكنهم ادخالها فى التنصر الا نصروها وكفروها ، ولا طريقا تنتهى الى معادن الثروة ومنابع الغنى الا سلكوها ، لا يقفون فى ذلك عند حد ، ولا ينتهون فيه الى عد ، حتى ان الامة الاسلامية التى كانت متركبة من ثلاثمائة مليون نفس تركيبا لم يبق منها الآن (1326 هـ 1908 م) على حال الحرية والاستقلال الا نحو من الثلث تقريبا ، والباقون قد الجأهم اشتغالهم بما يوهن قواهم ، وانباعهم لحال نفوسهم وهواهم ، أو مجرد ضعف دينهم ، وقلة ايمانهم ويقينهم ، الى تجرع كاسات الذل والهوان والصغار ، بالدخول تحت أسر أعداء الله الكفار .

التحذير من احتلال المغرب الاقصى

وقد كان هذا المغرب الاقصى قبل هذا الأوان فى عزة عظيمة وسطوة كبيرة وقوة منعة ورفعة سلطان ، والآن قد وجهوا وجه

التوجهات بسياستهم الكفرية اليه ، وقصدوا نحوه من كل جهة وخيموا عليه ، طامعين فى الانفس والبلاد ، قاصدين الاستيلاء على ما فيه من الاموال والاهل والاولاد ، عامدين الى اظهار الخمر والخنزير والصليب ، والتحكم فى الشريف والمشروف والأمير والمامور والبعيد والقريب ، عازمين على اطفاء نور الاسلام ، واستيصال امة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ويابى الله ذلك ورسوله والمومنون ، « يريدون ليطفئوانور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » ، « هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ، كيف واهل الاسلام والحمد لله ، ببلادنا وغيرها ، لا يحصون كثرة وعددا ، ونور الاسلام فى قلوبهم يربو أبدا ، والاموال والخيول والاسلحة متيسرة ، والقوة حاصلة وليست متعذرة ، فكيف معها نتحمل الذل والهوان ، ونخضع لعبدة الصلبان ؟ أو نجعل لهم السبيل الينا ، ونرضى بظهور كلمتهم وبولايتهم علينا ؟ كلا والله لا يرضى بهذا ذو همة دنية ، فضلا عن ارباب الهمم العلية .

توقـــع الحـــوادث قبـــل وقوعهـــا

والعاقل يا أيتها الامة المباركة من مثل فى نفسه الشدائد قبل نزولها ، واستعد للمصائب قبل حلولها ، وقام على ساق الجد والاجتهاد ، فى نصرة ديـــن رب الخلائق والعباد ، وصان دينه ونفسه ومهجته ، وباعد من عباد الصليب وأهل الفسق والطغيان عواله كلها وجملته ، وقد قيل :

يمثـــل ذو اللـــب فى عقلـــه ... شدائد مـــن قبـــل ان تنـــزلا
فـــان نزلـــت بغتـــة لم ترعـــه ... لما كـــان فى نفسه مثـــلا
رأى الامر يفضى الى آخـــر ... فصيـــر آخـــره أولا
وذو الجهـــل يأمـــن ايامـــه ... وينسى مصارع مـــن قد خلا
فان دهمتـــه صروف الزمـــان ... ببعـــض مصائبـــه عـــولا

ولو قدم الحزم فى نفسه　　　لعلمه الصبر عند البلا

ولا مصيبة يا عباد الله اعظم من مصيبة الدين ، اذ هى اشد من الجذام والبرص والجنون ، وفقد المال والاهل والبنين ، ومن أصيب فى دينه فهو المصاب على التحقيق ، ومن خذل فى ايمانه فهو المخذول عند ذوى التوفيق ، ولذلك ورد فى الحديث : « لن يبتلى عبد بشىء ، يعنى من البلاء ، أشد من الشرك » ، أخرجه البزار عن حذيفة مرفوعا ، وفى التنزيل: « ان الله لا يغفر ان يشرك به » وفيه : « لقد جئتم شيئا ادا يكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا » ، ومن المتقرر المعلوم لدى كل احد من خاصة الدين وعامته ، انه لا رذيلة اقبح من رذيلة الكفر وطريقته ، اعاذنا الله منهما بمنه ، وان فسادهما لا يعدله فى الدنيا فساد ، لجرهما الى بث الشرك والتثليث ، ونسخ كلمة التوحيد ، ومحق اثر قائلها من الارض والبلاد .

الدين أحد الكليات الخمس

ومن المتقرر أيضا ان الدين هو احد الكليات الخمس التى أجمع العقلاء واهل الملل على وجوب حفظها ، والدفاع عن ساحتها ، وعلى انه اعظمها جلالة وحرمة ، وأولاها صيانة وكرامة وعصمة ، كيف ولا نجاة فى العقبى الا به ، ولا حياة حقيقية فى الدنيا الا بسببه ، وهو النعمة التى تغنى عن غيرها من سائر النعم ، ولا يغنى غيرها عنها وان كثر وعم ، ولم ينعم الحق تبارك وتعالى على عبده بنعمة اعظم من نعمة الايمان والاسلام ، ولا امتن عليه بشىء اولى من منة الدخول فى امة حبيبه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فانها أساس السلامات واصل جميع الخيرات والكرامات ، اما السلامات فبها تكون ان شاء الله تعالى النجاة من اهوال الموت والقبر والحشر والقيامة ، ومن الطرد

والبعد والغضب وكل بلية خاصة وعامة . واما الكرامات فبهـا بفضل الله ينال الروح والريحان وجنة النعيم ، ويتمتع بالنظر فيها الى وجه الله الكريم ، وقد سمع المصطفى صلى الله عليه وسلم من يقول : الحمد لله على نعمة الايمان ، فقال : « انـك لتحمد الله على نعمة عظيمة » ، وقيل : لا كلمة احب الى الله ولا اعظم عنده شكرا من قول العبد الحمد لله الذى انعم علينا وهدانا للاسلام ، وقد قال الخليل « واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام » ، وقال يوسف : « توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » ، وقـال أصحاب موسى : « ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » ، ولا شيء أعز عند المومن من هذه النعمة العظيمة ، والمنة الجسيمة الفخيمة ، عرفنا الله قدرها ، واظهر علينا فضلها وعزها وفخرها ، واهلنا للقيام بحقها وشديد الضنين عليها ، والذب عن ساحتها ، والقيام على ساق الجد فى حياطة عزتها ، ورحم الله عبدا مومنا جعل الله بيده شيئا من امور المسلمين ، فبادر لحسم مواد الكفر واسباب العطب والفساد ، وعجل بتدارك هذا الامر العظيم الذى نزل بنا قبل البعاد ، فان السيل قد بلغ الزبا والغاية قد حصلت ، والناس على شفا وارواحهم الى الحلقوم وصلت ، والغرق قـد كاد ، والاستيصال باد ، والقائم بذلك خصوصا فى هذا الزمان ، له من الفضل والخير والاجر ما لا يقدر قدره الا المنان ، ويحشر يوم القيامة مع النبيئين والمرسلين ، ويكتب فى زمرة الصديقين والشهداء والصالحين ، ويعلو بين الانام قدره ، ويمتاز على كل ذى فخار فى الدنيا والآخرة فخره ، وفقنا الله لصالح الاعمال ، والهمنا رشدنا فى جميع الاحوال ، وتداركنا بالطافه ، واسبل علينا اردية حلمه واسعافه ، بمنه وكرمه ، وجوده وحرمه ، آمين .

المبحث الاول

اختلاف كلمة أهل الاسلام

وليعلم ان مواد العطب والاختلال لدينا كثيرة ، وأسباب الشر وتبدل الاحوال بنادينا جمة شهيرة ، منها وهو المبحث الاول من أبحاث هذه النصيحة ، وهى احد عشر ، وما قبلها كالمقدمة ، وما بعدها كالخاتمة . والتتمة ، اختلاف كلمة أهل الاسلام ، وعدم حصول الألفة بينهم والالتئام ، وتنازعهم وتنافرهم وتخاذلهم وتناثرهم ، وتفرق جماعتهم وتناكر قلوبهم وافئدتهم ، واعراض بعضهم عن بعض ، وعدم رجوع بعضهم الى بعض حتى فى اقامة الدين ، ومحاربة من أمر الله بمحاربته من المعتدين ، وحتى ان المومن الكامل منهم لا يكاد يجد له على نصرة الدين واقامة شعائره ظهيرا ولا معينا ، وانما يجد من يخذله فيه خذلانا مبينا ، مع ان الله تعالى جعلهم اخوة فى الدين والاسلام ، رحماء اذلة بينهم أشداء أعزة على الكفرة اللئام ، وامرهم بالاعتصام جميعا بحبله ، والتألف وكل ما يجر لنيله ، ونهاهم عن التفرق والتشتت والتنازع والاختلاف ، وحذرهم من كل ما يؤدي الى التباغض والتقاطع والاعتساف ، وامرهم أيضا على لسان أشرف خلقه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ان يكونوا كالبنيان المرصوص ، وكالجسد الواحد المخصوص ، وان يتعاضدوا ويتناصروا ، ويتعاونوا ويتكاثروا ، ويكونوا على من سواهم من أهل الاديان الباطلة يدا واحدة ، وجماعة ملتئمة متحدة ، حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وحتى يكون الاسلام عاليا غير معلى عليه ، والكفر منحطا تجرى أسباب الذل والصغار اليه ، قال تعالى : « انما المومنون اخوة » : أى يجمعهم دين واحد وكلمة

واحدة ، وهى كلمة التقوى (لا اله الا الله محمد رسول الله) .

الاخـــوة الدينيـــة

قال العلماء : والاخوة الدينية اعظم واوثق واشد من الحقيقية ، لأن ثمرة الثانية دنيوية والاولى أخروية ، قال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » ، وقال : « فسوف ياتى الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المومنين اعزة على الكافرين » ، وقال : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » أى شدة ، وقـــال : « جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » ، وقال « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » وقال : « هو الذى ايدك بنصره وبالمومنين وألف بـــين قلوبهم ، لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ، ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم » قال بعضهم : ظاهر هذه الآية العموم وإن ائتلاف قلوب المومنين من أسباب النصر التى ايد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ه ، وقال : « واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا (أى تختلفوا) فتفشلوا (أى تضعفوا وتجبنوا عن عدوكم) وتذهب ريحكم (اى قوتكم وحدتكم وقيل نصركم ، وقيل دولتكم وقيل حربكم) واخرج الطبرانى فى الكبير عن حبيب بن خراش مرفوعا « المسلمون اخوة » واخرج أحمد عن سويد بن الحنظلية مرفوعا : « المسلم أخو المسلم » ، وأخرج أيضا والبخارى فى الادب المفرد وابوداوود والترمذى عن أبى هريرة مرفوعـــا : « المومن مرآة المومن والمومن أخو المومـــن ، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائـــه » ، واخرج مسلم عنـــه أيضـــا مرفوعا : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبـــع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخوانا ، المسلم أخـــو

المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا (ويشير الى صدره ثلاث مرات) ، بحسب امرء من الشر ان يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » ، واخرج مالك فى الموطإ، والبخارى ومسلم وابوداوود والترمذى وغيرهم عن انس مرفوعا : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا ، ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث » ، قال مالك : لا احسب التدابر الا الاعراض عن اخيك المسلم تدبر عنه بوجهك ، وقال القرطبى : فى معنى قوله وكونوا عباد الله اخوانا : اكتسبوا ما تصيرون به كاخوان النسب فى الشفقة والرحمة والمحبة والمواساة والمعاونة والنصيحة ، وقال النووى : أى تعاملوا وتعاشروا معاملة الاخوة ومعاشرتهم فى المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون فى الخير ونحو ذلك ، مع صفاء القلوب ، والنصيحة لكل احد ، واخرجوا أيضا عن ابى هريرة مرفوعا : « اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا » زاد مسلم فى رواية : كما امركم الله ، واخرج ابن ابى الدنيا فى كتاب التقوى عن رجل من بنى سليط قال : اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : المسلم اخو المسلم لا يخذله ولا يظلمه ، التقوى هاهنا ، التقوى هاهنا ، وأومأ بيده الى صدره . واخرج الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر مرفوعا : « ان المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه فى مصيبة نزلت به » الحديث .

واخرج ابو نعيم عن ابى بن كعب قال : خرج قوم يريدون سفرا فأضلوا الطريق فعاينوا الموت أو كادوا فلبسوا أكفانهم واضجعوا للموت ، فخرج جني من خلال الشجر وقال : انا بقية النفر الذين استمعوا القرآن على محمد سمعته يقول : المومن اخو المومن لا يخذله ، هذا الماء وهذا الطريق ، واخرج الشيخان

والترمذي والنساءي عن ابى موسى مرفوعا : « المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبك بين اصابعه » .

واخرج احمد عن سهل بن سعد مرفوعا : المومن من اهل الايمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المومن لاهل الأيمان كما يألم الجسد لما فى الرأس » . واخرج أيضا ومسلم عن النعمان بن بشير مرفوعا : « المومنون كرجل واحد ان اشتكى رأسه اشتكى كله ، وان اشتكى عينه اشتكى كله » ، وأخرج أيضا والشيخان عنه ايضا مرفوعا : « مثل المومنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وأخرج أيضا وابوداوود وابن ماجة وغيرهم عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده مرفوعا : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم ، ويجير عليهم اقصاهم وهم يد على من سواهم » . واخرج أيضا والنساءي والحاكم فى المستدرك وصححه عن على مرفوعا : « المومنون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم » ، الحديث .

وأخرج ابن ماجة والطبرانى فى الكبير عن معقل بن يسار مرفوعا : «المسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم»، ومعنى كونهم يدا على من سواهم انهم جماعة واحدة يتعاونون على اعدائهم من اهل الملل ، ولا يسعهم التخاذل ، وقيل معناه انهم مع كثرتهم قد جمعتهم اخوة الاسلام وجعلتهم فى وجوب الاتفاق بينهم تعاونا وتعاضدا على من آذاهم أو عاداهم كيد واحدة ، فيجب ان ينصر كل اخاه على من آذاه أو عاداه .

وقد قيل فى قوله تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ان القوة اتفاق الكلمة ، وفى قوله : (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) انها التنازع والاختلاف ، وفى قوله : (واتقوا فتنة

لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة) انها افتراق الكلمة ، حكاه فى الكشاف .

وقال الخازن : قال ابن زيد : اراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا اه . وفى قوله عليه الصلاة والسلام : « ولن تغلب اثنا عشر الفا من قلة » ان معناه اذا اجتمعت كلمتهم ، وبوب البخارى باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب ، ثم أورد فى الترجمة حديث أبى موسى انه عليه السلام بعثه ومعاذا الى اليمن وقال : يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا ، وحديث البراء فى قصة غزوة احد وفيه انه صرفت وجوه المسلمين واقبلوا منهزمين بسبب مخالفتهم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تبرحوا من مكانكم هذا حتى ارسل اليكم .

وفى عمدة القارى : الاختلاف سبب الهلاك فى الدنيا والآخرة لأن الله عز وجل قد عبر فى كتابه بالخلاف الذى قضى به على عباده عن الهلاك فى قوله ولو شاء الله ما اختلفوا ، ثم قال : ولذلك خلقهم، يعنى ليكونوا فريقين، فريقا فى الجنة، وفريقا فى السعير، من اجل اختلافهم اه وفى حديث وفد بنى الحارث بن كعب انه عليه الصلاة والسلام قال لهم بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية فقالوا له : كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولانبدأ احدا بظلم ، فقال : صدقتم : ذكره فى المواهب وغيرها .

وأخرج ابن شاهين فى الصحابة : انه عليه السلام قال لهم : ما الذى تغلبون به الناس وتقهرونهم ؟ قالوا لم نقل فنذل ، ولم نكثر فنتحاسد ونتخاذل ، ونجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ احدا بظلم ، ونصبر عند البأس ، قال : صدقتم . واخرج العجلى فى فوائده ، وابو نعيم ، والرافعى فى تاريخ قزوين ، عن أنس مرفوعا : أتانى جبريل فقال : يا محمد الاسلام عشرة اسهم ، وخاب من لا سهم له ، أولها كذا ، ثم قال : والتاسع الجماعة ،

وهى الالفة ، الحديث ، ونحوه فى حديث الطبرانى عن ابن عباس .

وأخرج احمد عن سعد مرفوعا : آذهبتم من عندى جميعا وجئتم متفرقين ؟ انما اهلك من كان قبلكم الاختلاف . وأخرج احمد ومسلم والبيهقى عن ابى هريرة رفعه : ان الله يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وان تعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ، وان تناصحوا من ولاه الله امركم ، ويسخط لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال ، واخرج احمد عن أبى ذر مرفوعا : اثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من اثنين ، واربعة خير من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة ، فان الله لم يجمع امتى الا على هدى .

وأخرج الطبرانى فى الكبير والسجرى فى الابانة عن معاذ مرفوعا : الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم ، يأخذ الشاة الشاذة والقاصية والناحية ، فعليكم بالجماعة والالفة والعامة والمساجد ، واياكم والشعاب .

وأخرج احمد فى مسنده عن رجل مرفوعا : أيها الناس عليكم بالجماعة واياكم والفرقة ، وأخرج الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس مرفوعا : من عمل لله فى الجماعة فاصاب قبل الله تعالى منه ، وان أخطأ غفر الله له ، ومن يبتغى الفرقة فاصاب لم يتقبل الله منه . وان اخطا فليتبوأ مقعده من النار .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) . قال أمر الله المومنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة واخبرهم انه انما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله .

وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) ، قال : هم أهل الكتاب نهى الله أهل الاسلام ان يتفرقوا ويختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب ، وأخرج

عبد بن حميد وابن جرير وابن ابى حاتم فى قوله تعالى : « ان تصبكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها » . قال : اذا رأوا من أهل الاسلام ألفة وجماعة وظهورا على عدوهم غاظهم ذلك وساءهم ، واذا رأوا من أهل الاسلام فرقة واختلافا أو اصيب طرف من اطراف المسلمين سرهم ذلك وابتهجوا به .

واخرج الترمذى والبيهقى فى الاسماء والصفات عن ابن عمر مرفوعا : ان الله لا يجمع امتى على ضلالة ويد الله أى حفظه وكلاءته على الجماعة ومن شذ شذ فى النار . وأخرجا أيضا عن ابن عباس مرفوعا : « لا يجمع الله امتى أو قال هذه الامة على الضلالة ابدا ويد الله على الجماعة » : قال العلماء رضى الله عنهم : والمراد بالجماعة هاهنا من كان على ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه من اتباع طريق الهدى والحق ولو واحدا .

وأخرج النسائى وابن حبان فى صحيحه عن عرفجة مرفوعا : « ستكون بعدى هناة وهناة فمن رأيتموه فارق الجماعة ، أو يريد ان يفرق امر أمة محمد ، كائنا من كان ، فاقتلوه ، فان يد الله على الجماعة ، وان الشيطان مع من فارق الجماعة يركض » .

وأخرج عبد الله ابن احمد فى زوائده باسناد قال المنذرى لاباس به ، عن النعمان بن بشير مرفوعا : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » ، وأورد آخره فى الجامع من قوله الجماعة رحمة ، وعزاه لعبد الله المذكور والقضاعى ، قال فى التيسير ، عقب قوله والفرقة عذاب : لأنه تعالى جمع المومنين على معرفة واحدة وشريعة واحدة ليألف بعضهم بعضا ، ليكونوا كرجل واحد على عدوهم ، فمن انفرد عن حزب الرحمان ، انفرد به الشيطان ، فاضله وأغراه ، وأوقعه فى عذاب الله .

وأخرج ابن جرير فى تفسيره : حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية اخبرنا ابن عون عن عمير بن اسحاق قال : كنا نتحدث ان أول ما يرفع من الناس ، أو قال عن الناس ، الالفة ، وأخرج الطبرانى فى الاوسط عن عمر مرفوعا : ما اختلفت امة بعد نبيها الا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ، واخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابو الشيخ عن قتادة فى قوله تعالى ولا تنازعوا الآية قال : يقول لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم .

واخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله وتذهب ريحكم ، قال : نصركم ، وقد ذهبت ريح اصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم احد ، ويقال : اذا اجتمع القوم كانوا كالحزمة من السهام ، لا يستطاع كسرها جملة ، فاذا تفرقت سهل كسرها سهما سهما ، ويحكى عن المهلب بن ابى صفرة انه احضر أولاده فأوصاهم ، وأحضر سهاما وأمر بحزمها فحزمت ، ثم قال اتكسرونها مجتمعة قالوا لا ، قال فتكسرونها متفرقة ؟ قالوا : نعم ، قال : فهاكذا الجماعة ، ويحكى أيضا ان الاسكندر لما هاله امر الفرس استشار فى ذلك أرسطو فأشار عليه بتفريق ممالكهم ، وتوزيعها على عدة ملوك ليختل انتظام أمرهم ، ففعل الاسكندر ذلك ، وملك عليهم عشرين ملكا فانتج ذلك اختلال ملكهم، حتى انهم لم ترفع لهم بسبب ذلك راية نحوا من خمسمائة عام واثنى عشر عاما ويقال : الفرقة سبب هلاك كل فرقة ، وفى المثل لولا الوئام لهلك الانام أى لولا موافقة الناس بعضهم بعضا والتئامهم لهلكوا وفى الامانى للشاطبى :

وقل صادقا لولا الوئام وروحه   لطاح الانام الكل فى الخلف والقلى

أى لولا الموافقة لهلك الانام فى الاختلاف والتباغض ، قال بعض شراحه : وأشار بهذا البيت لقوله عليه الصلاة والسلام

لا تختلفوا فتختلف قلوبكم اهـ ، ولهذا عدوا من أنواع المكايد فى الحروب التى يتأكد الاعتناء بها ، السعى فى تفريق كلمة العدو بالمال وغيره من الوجوه الممكنة ، فانه اذا تفرقت كلمتهم دخلهم الخلل ، وضاع عليهم ما جمعوه من الجموع ، واستعملوه من الحيل .

ومن تصفح التواريخ والاخبار ، وسبر احوال الامم السالفة بعين الاعتبار ، علم ان جميع الملل والاقوام ، فى الجاهلية والاسلام ، ما نالت السعادة والعزة والشرف ، وانتصرت على اعدائها الا بالائتلاف والاتفاق ، ولا باءت بالذل والهوان ، واهلكتها صروف الدهر ، وذهبت عنها ريح النصر ، الا بالشقاق والافتراق ، والميل الى الفساد والنفاق .

دور النصارى فى تحريك أسباب الخلاف بين المسلمين

واعلم أيضا ان النصارى دمرهم الله ، لم يدركوا فى المسلمين ثارا ، ولم يدفعوا عن انفسهم عارا ، ولم يخربوا من البلاد الاسلامية منازل وديارا ، ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وامصارا ، الا بعد تحريكهم بين المسلمين اسباب الخلاف ، واجتهادهم فى حصول التفرقة بين المومنين والاختلاف ، وانه مهما كانت كلمتهم مؤتلفة ، واهواؤهم لا مفترقة ولا مختلفة ، فلا سبيل لاحد من أهل الملل عليهم ، ولا يطمع فى توصيل شىء من المكايد اليهم .

وقد دل الاستقصاء لأحوالهم . والنظر الى ما يصدر من افعالهم ، على انه لا أمل لهم قبحهم الله الا فى التمرس بين الاسلام والمسلمين ، واعمال الحيلة على المومنين ، واضمار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ، ويظهرون مع ذلك انهم ساعون للاسلام فى العاقبة الحسنى ، وانهم منطوون لاهله على المقصد الاسنى وانهم مهتمون بمراعاة امورهم ، وناظرون

بعين المصلحة لخاصتهم وجمهورهم ، وتبا لعقول تقبل منهم هذا المحال ، وتصدق هذا الكذب بوجه أو حال ، كيف وهم ممن يتدين بتخريب الاسلام ، ويعتقد القربة العظيمة فى ابادة اهله على الدوام ، ووالله ثم والله ما هم ساعون الا فى اذهاب أنوار الايمان واطفائها ، وملتمسون الا الحيلة فى هلاك الاوطان وابتغائها ، ولا يرجى منهم من الخير مثقال ذرة ، ولا ينال من احد منهم ابدا مبرة ، وانما ينال منهم الوبال الشديد وعظيم المضرة ، وما لا يحصى من المغارم الثقيلة والانكاد الطويلة والمعرة .

شروط معاهدة تسليم أهل الاندلس للاسبان

وانظر فانهم لما ضيقوا على اهل الاندلس ، وضعف أهل الاندلس عنهم بعد حروب كثيرة ، وحصار عظيم ، طاع أهل الاندلس بالدخول تحت أيالتهم وحكمهم بشروط اشترطوها عليهم، وهى نحو من خمسة وخمسين وقيل سبعة وستين ، منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والاهل والمال ، وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، واقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكم عليهم احد الا بها ، وان تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك ، وان لا يدخل النصارى دار مسلم ، ولا يغصبوا احدا ، ومن اراد منهم الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون فى مدة عينت ، فى مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء ، وان لا يكلف المسلم بضيافة اجناد النصارى ، ولا بسفر لجهة من الجهات ، وان لا يزيدوا على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصرانى للسور ، ولا يطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ، ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود ، ولا يمنع مؤذن

ولا مصل ولا صائم ولا غيره من امور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، وان يوافق على الشروط صاحب رومة ، ويضع خط يده ، وأمثال هذا مما ذكرناه ، فاظهروا قبول تلك الشروط كلها ، واعطوهم بها كتبا وعهودا ومواثق ، وبسطوا لهم جناح العدل ، وأبدوا لهم العناية والاحترام ، حتى كان النصارى يحسدونهم فى ذلك ويقولون لهم : انتم اعز واكرم منا عند ملكنا ، ووضعوا عنهم المغارم ، حتى ثبطوا كثيرا من المسلمين عما وجب عليهم من الهجرة الى دار الحاكم المسلم ورجع كثير ممن كان قد هاجر رغبة فى الوطن الذى جبل على حبه الانسان .

غدر الاسبان وخيانتهم لشروط المعاهدة

فلما رأوا دمرهم الله ان الامر قد تم لهم ، وان المسلمين قد دخلوا تحت عقد ذمتهم ، وانهم تمكنوا منهم ، بدأ غدرهم وأخذوا فى نقض تلك الشروط التى اشترطها عليهم المسلمون أول مرة شرطا شرطا ، وفصلا فصلا ، الى ان نقضوا جميعها وزالت حرمة المسلمين بالكلية ، وادركهم الهوان العظيم ، والذلة الكبيرة ، واستطال عليهم النصارى ، وفرضوا عليهم المغارم الثقيلة ، وقطعوا عليهم الأذان فى الصوامع ، وأمروهم بالخروج من غرناطة الى الارباض والقرى ، فخرجوا اذلة صاغرين ، ثم بعد ذلك حملوا من كان نصرانيا فاسلم على الرجوع للنصرانية قهرا ، ثم جعلوا يقولون للرجل المسلم ان جدك كان نصرانيا فاسلم ، فترجع انت أيضا نصرانيا ، ثم حملوا جميع المسلمين على التنصر والدخول فى دينهم ، وترك شعائر الاسلام كلها بالمرة ، وسب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والذهاب معهم الى الكنائس ونحوها من مواضع كفرهم ، والتزيى بزيهم ، والتسمى باسمآئهم ، والمصاهرة معهم الى غير ذلك مما لا يستطاع سماعه أو ذكره ، وأحرقوا لهم المصاحف وغيرها من الكتب الاسلامية ، والقوها فى القاذورات

والنجاسات ، وذلك سنة اربع وتسعمائة ، وامتنع من التنصر قوم فأستأصلوهم قتلا وسبيا الا من نجـاه الله عز وجل ، ثم بعـد هذا جعل من اظهر التنصر من المسلمين يعبد الله خفية ، ويصلى سرا ، فشددوا فى البحث عنهم ، وحرقوا بالنار كثيرا منهم بسبب ذلك ، وصارت الاندلس كلها دار كفر وهوان ، ولم يبق فيها من يجهر بكلمة التوحيد والأذان ، وجعلـت فى المساجد والمئـاذن النواقيس والصلبان ، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، فانا لله وانا اليه راجعون ، لا راد لما قضاه المولـى ، ولا دافع لما ابرمه العلى الاعلى ، سبحانه جل علاه ، وتقدست صفاته وسماه ، راجع ازهار الرياض ونفح الطيب لأبى العباس المقرى ، فاعتبروا يا أولى الابصار ، واحذروا الثقة باعداء الله الكفار .

وجوب نصرة المسلمين فى كل مكان

ثم أنهم لما نزل بهم هذا البلاء العظيـم ، والداء العضـال الوخيم ، كتبوا رسائل وقصائد تبكى سامعها الى بعض ملوك البلاد ، يستغيثون بهم على اهل الكفر والعناد ، ويذكرون ما حل بهم من قبلهم من البلاء ، وما فعلوه معهم من نقض الشروط وترك الوفاء ، فما قاموا فى ذلك بالواجب عليهم ، ولا سعوا فى قتال العدو واخراجه مـن بينهم ، جريا عـلى ما به العادة فى هـذه الاعصار ، من ترك المومنين نصرة اخوانهم مع الاقتدار ، حتى أدى ذلك الى استئصال الكفار ، لكثير من القرى والامصار ، مع انه يجب بالكتاب والسنة والاجماع ، موالاة المومنين بعضهـم بعضا بالتعاضد والتناصر والتعاون والدفاع .

اما الكتاب فقال تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ، قال الخازن : يعنى قاتلوا المشركين باجمعكم مجتمعين على قتالهم كما انهم يقاتلونكم على هذه الصفة ، والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا ، ولا تتدابروا ولا تفشلوا ،

ولا تجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين فى مقاتلة اعدائكم من المشركين ه ، وقال : « وتعاونوا على البر والتقوى » وقال : « والمومنون بعضهم أولياء بعض » ، وقال : « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » اى ان طلب منكم اخوانكم من المسلمين المعونة والنصرة فى قتال المشركين فواجب عليكم ان تنصروهم .

وبالوجوب صرح غير واحد من المفسرين ، كابن كثير والخطيب والنسفى والزمخشرى والبيضاوى، وعن ابن جرير فى تفسير قوله تعالى بعد هذا : «الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير» قال : اى الا تتعاونوا وتتناصروا ، وقال غيره : الا تفعلوا ما امرتم به من تولى بعضكم بعضا ونصر بعضكم لبعض ، تحصل فتنة فى الارض ، وهى قوة الكفار وفساد كبير أى مفسدة عظيمة ، وهى ضعف المسلمين ، قال النسفى والكشاف : لأن المسلمين ما لم يصيروا يدا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا ه ، وقال غيرهما : لان المومنين اذا تركوا التناصر والتعاون فيما بينهم حتى يكونوا يدا واحدة على الكافرين انحل نظامهم ، واستولى الكافر على جميعهم ، وذلك مفسد لدنياهم ودينهم ه .

واما السنة فأحاديث كثيرة منها ما تقدم فى حديث مسلم عن ابى هريرة من قوله فيه : « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، ومعنى لا يخذله لا يترك نصرته المشروعة ، واعانته المطلوبة ، لا سيما مع الاحتياج أو الاضطرار اليها ، لان من حقوق أخوة الاسلام التناصر .

التنديد بخذلان المسلم

وقد بوب النووى على هذا الحديث ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ، ثم قال : قال العلماء : الخذل ترك الاعانة والنصرة ، ومعناه ، اذا استعان به فى دفع

ظالم ونحوه لزمه اعانته اذا امكنه ولم يكن له عذر شرعى اه ، وما تقدم ايضا من حديث الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر مرفوعا : ان المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه فى مصيبة نزلت به ، ونحوه حديث احمد والشيخين وأبى داوود والترمذى والنسائى عنه ايضا مرفوعا : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » ، قال فى فتح البارى أى لا يتركه مع من يوذيه ، ولا فيما يوذيه ، بل ينصره ويدفع عنه ه ، وفى النهاية يقال : اسلم فلان فلانا اذا القاه الى التهلكة ، ولم يحمه من عدوه ه.

ومنها حديث الباوردى وابن السكن وابن قانع عن الحارث بن شريح النميرى مرفوعا : المسلم أخو المسلم الحديث ، وفيه : واذا استنصره على الاعداء نصره ، ومنها ما تقدم فى حديث احمد وغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وعن على من قوله فيهما : وهم يد على من سواهم ، وفى حديث ابن ماجة والطبرانى فى الكبير عن معقل بن يسار من قوله : المسلمون يد على من سواهم ، قال فى النهاية : أى هم مجتمعون على اعدائهم ، لا يسعهم التخاذل ، بل يعاون بعضهم بعضا على جميع الاديان والملل ، كأنه جعل ايديهم يدا واحدة ، وفعلهم فعلا واحدا ه ، وقال الخطابى : اليد المعاونة والمظاهرة ، اى اذا استنفروا واجب عليهم النفير ، واذا استنجدوا أنجدوا ولم يتخاذلوا ولم يتخالفوا ه ، وما تقدم ايضا من حديث الشيخين عن ابى موسى مرفوعا : المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبك بين أصابعه ، وقد بوب عليه البخارى فى كتاب الأدب بقوله : باب تعاون المومنين بعضهم بعضا .

ومنها ما أخرجه أحمد والبخارى والترمذى عن انس مرفوعا : انصر اخاك ظالما أو مظلوما ، فقال رجل يا رسول الله انصره مظلوما فكيف انصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم فذالك نصرك اياه ، واخرج الدارمى وابن عساكر عن

جابر مرفوعا : « انصر اخاك ظالما أو مظلوما ، قيل كيف ذلك ؟ قال : ان يك ظالما فاردده عن ظلمه وان يك مظلوما فانصره ، اى اعنه على خصمه وخلصه منه ، وأخرج مسلم عن جابر مرفوعا فى اثناء حديث قال : ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما ، ان كان ظالما فلينهه فانه له نصر ، وان كان مظلوما فلينصره ، واخرج ابن عساكر عن أنس رفعه : « أعن أخاك ظالما أو مظلوما ، قلت يا رسول الله أعينه مظلوما فكيف اعينه ظالما ؟ قال : ترده الى الحق فذلك عون له » وأخرج الديلمى عن ابن عباس مرفوعا : لعن الله من رأى مظلوما فلم ينصره ، وأخرج أبو الشيخ فى كتاب التوبيخ عن ابن مسعود مرفوعا : أمر بعبد من عباد الله يضرب فى قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل ويدعو حتى صارت جلدة واحدة ، فامتلا قبره عليه نارا ، فلما ارتفع عنه وأفاق قال : على ما جلدتمونى ؟ قالوا : انك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره .

وأخرج أيضا عن ابن عباس مرفوعا : قال الله تبارك وتعالى : وعزتى وجلالى لانتقمن من الظالم فى عاجله وآجله ، ولا نتقمن ممن رأى مظلوما فقدر ان ينصره فلم يفعل ، وأخرج احمد فى مسنده بسند حسن عن سهل بن حنيف مرفوعا : من اذل عنده — قال فى التيسير اى بحضرته أو بعلمه — مومن فلم ينصره وهو يقدر على ان ينصره اذله الله على رؤوس الاشهاد يوم القيامة ، قال فى التيسير عقبه : فخذلان المومن حرام شديد التحريم دنيويا كان ، مثل ان يقدر على دفع عدو يريد ان يبطش به ولا يدفعه ، أو دينيا مثل ان يقدر على نصحه عن غيه بنحو وعظ فيترك ه ، وأخرج أحمد أيضا وأبوداوود والضياء عن جابر وأبى طلحة بن سهل رفعاه : ما من امرىء يخذل امرءا مسلما فى موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته الا خذله الله تعالى فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من أحد ينصر مسلما فى موطن ينتقص فيه

من عرضه ، أو ينتهك فيه من حرمته الا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته » ، قال الهيتمي : واسناد حديث جابر حسن ، والاحاديث فى معنى هذا كثيرة ، وفى دواوين الايمة شهيرة .

وأما الاجماع فاجمع الائمة ، وفضلاء هذه الامة ، على وجوب النصرة والاعانة ، لمن حصل له من الكفار أو غيرهم نوع اهانة ، وهو قادر عليها ، ويمكنه التوجه بوجه ما اليها ، ولا مخالف فى ذلك بين المسلمين ، ولا نزاع فيه من احد من الموحدين ، وقد اخرج أبو الشيخ عن سليمان بن موسى قال : وجبت نصرة المسلمين على كل مسلم لدخوله فى البيعة التى اشترى الله بها من المومنين انفسهم ، يعنى فى قوله : « ان الله اشترى من المومنين انفسهم ، الآية » نقله فى الدر المنشور .

اذا نزل العدو بأرض الاسلام وجب الجهاد

وقال الفقهاء والعلماء : اذا نزل العدو بارض الاسلام أو قريبا منها مريدا الدخول اليها ، فان الجهاد يتعين على أهلها وعلى امامهم ، شيوخا وشبابا ، أحرارا وعبيدا ، بل ولو على النساء ان كانت لهن قوة ، ولا يتوقف قتالهم للعدو النازل بهم على مشورة الامام ، ولا على اذنه ، لا سيما ان بعد منهم ، فان لم يقدر أهل تلك البلدة على مقاومة العدو ، تعين على اقرب الايمة والناس اليهم ان يعينوهم ، فان لم تكن فيهم كفاية ومقاومة أيضا ، وجب على من والاهم ، وهكذا حتى ياتى الوجوب منسحبا على جميع المسلمين ، وهذا هو قول خليل : « وتعين بفجإ العدو وان على امرأة وعلى من بقربهم ان عجزوا » فأهل قطر تلمسان والجزائر والاندلس مثلا حيث لم يقدروا على دفع العدو عنهم : كان يجب على من والاهم من ايمة المشرق والمغرب ان يعينوهم بالجيوش والعدة ونحوها ، وحيث عصا من والاهم ولم يعن ، أو عجز عن الاعانة ، تعين على من والاهم وهكذا ، وانما وجب

ذلك لأن العدو اذا ترك وما يريد سلك تلك الارض ثم انتقل منها الى غيرها وهكذا ، فيؤدى ذلك الى كثرة الارتداد واستيصال الاسلام كما هو مشاهد ، والنصوص بهذا الذى ذكرناه لا تحصى كثرة ولنذكر طرفا منها فنقول :

وجوب نصرة المستضعفين على جميع المسلمين

قال ابن بشير ما نصه : اذا نزل قوم من العدو باحد من المسلمين وكانت فيهم قوة على مدافعتهم ، فانه تتعين عليهم المدافعة فان عجزوا تعين على من بقربهم نصرتهم هـ ، وقال ابن رشد فى المقدمات ، بعد ما ذكر فيها ان الجهاد فرض يحمله من قام به ما نصه : الا ان تكون ضرورة مثل ان ينزل العدو ببلد من بلاد المسلمين ، فتجب على الجميع اعانتهم وطاعة الامام فى النفر اليهم هـ ، وقال ابن جزى فى قوانينه ، بعد ما ذكر فيها ان الجهاد يتعين بامور ما نصه : والثانى ان يفجأ العدو بعض بلاد الاسلام ، فيتعين عليهم دفعه ، فان لم يستقلوا لزم من من قاربهم ، فان لم يستقل الجميع ، وجب على سائر المسلمين حتى يندفع العدو هـ ، وقال فى الشامل ما نصه : وتعين على من نزل بهم عدو أو قاربهم دفعه ، وان لم يدخل لهم ، ان كان فيهم قوة عليه بان يكون ضعفهم ، أو اقل عددا وشدة وجلدا على المشهور ، فان عجزوا لزم من قرب منهم اعانتهم ما لم يخف معاودة العدو من جهة أخرى بأمارة ظهرت هـ ، وقال ابن الحاجب : ويتعين أى الجهاد على من نزل بهم عدو وفيهم قوة عليه ، فان عجزوا تعين على من قرب منهم حتى يكتفى ، وفى التوضيح : قوله فان عجزوا ، يريد ما لم يخف من يليهم معاودة العدو ، فان خافوا ذلك بامارة ظاهرة فليلزموا مكانهم قاله سحنون هـ ، وقال فى النوادر : ويخرج لتعينه مطيقة تلك الدار خفافا وثقالا ، شبانا وشيوخا ، ولا يتخلف احد يقدر على الخروج من مقاتل أو

مكبر ، وان عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم ، كان على من جاورهم ان يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة وكذلك من علم أيضا بضعفهم وامكنه غياثهم ، لزمه أيضا الخروج ، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم ه ، نقله المواق فى شرحه لمختصر خليل ، ككلام ابن بشير قبله ، ونقل أيضا عن المازرى انه اذا عصا الاقرب وجبت النصرة على من يليه من الابعد ، ونصه قال المازرى : فان عصا الحاضر تعلق أى فرض الجهاد بمن يليه ه ، وقال بعد فى محل آخر : وتقدم نص المازرى : اذا عصا الاقرب وجب على الابعد ه .

وقال سيدى العربى الفاسى فى كلام له فى هذه المسألة : لا يخرج المسلمون من عهدة المدافعة ، ونصرة من عجز الا اذا استفرغوا الوسع فى ازاحة الكفار من المدائن التى أخذوها للمسلمين ، فلو نازلوها فلم تفتح ، وجب عليهم معاودتها كلما امكنهم ذلك حتى يفتحها الله عليهم ، ولا فرق فى ذلك بين المدائن الماخوذة للمسلمين حديثا أو قديما ، لأن الوجوب والمتعين متعلق بالمسلمين لا بقيد زمان ولا مكان ، الا انه يتعين على الحاضر زمانا ومكانا على ما مر ترتيبه ، فان لم يفعل لعذر أو لغير عذر ، وجب على غيره ممن يليه كما قاله ابن عرفة عن المازرى . وترك من تقدم من ايمة المسلمين مدائن الاسلام فى أيدى الكفار لا ينهض دليلا على الجواز ، فهم بذلك فى محل العصيان ، لا فى محل الاقتداء والاستنان ، وقديما قيل : اسلك سبيل الهدى ولا يضرك قلة السالكين ، واترك طريق الردى ولا يضرك كثرة الهالكين ه ، وقال فى كتاب فلك السعادة : وقد قالوا أيضا يعنى العلماء : اذا عجز اهل دار نزل بهم عدو الدين عن الذب عن انفسهم ، تعين على من بقربهم أن يعينهم ، وهكذا ، قال : واليوم نسمع ونبصر بنزول العدو ديارا ، فضلا عن دار ، فنتغافل، وربما استصرخونا فنتكاسل ، حتى ينتهزون فرصتها ويتمكنون

من غرفها ثم يفعلون باخرى مثل ذالك ، فدل ذلك على استخفافنا بقوله تعالى : « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » أى فواجب عليكم ان تنصروهم على المشركين ، لان ترك نصرتهم يؤدى الى مفسدة استيلاء الكفار حتى عليكم هـ .

وقال على القارى الحنفى فى شرح المشكاة بعد ما ذكر فيه ان الجهاد فرض كفاية ما نصه : ثم هذا اذا لم يكن النفير عاما ، فان كان كأن هجموا على بلدة من بلاد المسلمين فيصير من فروض الاعيان ، سواء كان المستنفر عدلا أو فاسقا ، فيجب على جميع اهل تلك البلدة النفر ، وكذا من يقرب منهم ان لم يكن بأهلها كفاية ، أو تكاسلوا وعصوا ، وهكذا الى ان يجب على جميع اهل الاسلام شرقا وغربا ، وقال فى ارشاد السارى فى باب وجوب النفير من كتاب الجهاد فى قوله فى الحديث : واذا استنفرتم فانفروا ما نصه : اى اذا طلبكم الامام الى الغزو فاخرجوا اليه وجوبا ، فيتعين على من عينه الامام ، وكذا اذا وطىء الكفار بلدة للمسلمين واطلوا عليها ونزلوا امامها قاصدين ولم يدخلوا ، صار الجهاد فرض عين ، فان لم يكن فى أهل البلدة قوة وجب على من يليهم هـ ، قال بعض : « ومن وجبت عليه النصرة وتركها ضمن ، لانه من باب ترك تخليص المستهلك من النفس والمال ، كما استظهره التتائى على الرسالة والله أعلم .

أسباب التخلى عن نصرة المسلمين

وسبب هذه المفسدة العظيمة أعنى ترك النصرة ، اما مجرد ضعف الدين ، وعدم الاهتبال بجناب الاسلام والمسلمين ، واما الشح بالنفس والمال ، والركون الى الراحة والدعة وان أدى الى الاختلال ، واما أخذ الرشوة منهم اعنى الكفار ، وتركهم وما يريدون — لأجل الطمع الفانى — من الفتك بأولياء الله الابرار .
أما الاولون فكفاهم ضعف دينهم، وقلة ايمانهم ويقينهم، وعدم

اهتبالهم باخوانهم المومنين ، واهانتهم للاسلام والمسلمين ، وسيرون الكرة من اعداء الله عليهم ، ووصول النكال الشديد فى الدنيا والآخرة اليهم .

وأما الأوسطون فقد توعدهم الله تعالى فى قوله ان كان آباؤكم وابناؤكم الآية ، وسماهم فاسقين ، وتوعدهم رسوله صلى الله عليه ايضا بالوعيد الشديد وان الله يذلهم فى الدنيا والآخرة ويطردهم عن جنابه ورحمته الطرد البعيد .

وأما الآخرون فيقال لهم يا ويلكم بعتم الجنة التى عرضها السموات والارض بشىء حقير ، واستبدلتم رضاه تعالى بالسخط الكبير ، ورجع عدوكم اليكم فاباد خضراءكم ، واستأصل شافتكم ، وصرتم لا الى دنيا ترجعون ، ولا رحمة من الله تعالى تنالون . فياخيبة مسعاكم ، وذلة منقلبكم ومثواكم ، فأخزى الله أثوابا عليكم ، وأخزى الله ما تحت الثياب ، واوصل اليكم فى الدنيا والآخرة أليم العذاب ، (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) (وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون) .

من عادة الاعداء رشوة أهل الشوكة من الرؤساء

ومن عادة العدو اللعين ، فى كل وقت وحين ، انه اذا أراد التوصل الى بلد أو قبيل ، ولم يجد اليه السبيل ، ياتى بالأموال الكثيرة الجسيمة ، ويفرقها على الرؤساء من أهله واهل الشوكة العظيمة ، فاذا قبلوها انطفأت بها قوتهم ، وزالت حدتهم ، وركنوا بقلوبهم اليه ، وثبطوا غيرهم ممن يريد ان ياخذ على يديه ، بل ربما دلوه على عورات المسلمين ، وبينوا له الطريق الموصلة الى استيصال الموحدين ، فيجد عدو الله بذلك السبيل ، وينتهز الفرصة التى لم يجد اليها قبل من سبيل ، ووالله ثم والله ثم والله ان هؤلاء لهم المنافقون حقا ، المنابذون للدين الحنيفى صدقا ، المفرقون لكلمة الاسلام ، المطفؤن لأنوار اهله على الدوام ،

وما اضعف بل اعدم ايمانهم واسلامهم ، واقل اعزازهم للدين واحترامهم ، ويحق على المسلمين ان لا يلتفتوا اليهم ، ولا يعولوا فى شىء من امور الدين ولا الدنيا عليهم ، وان يعاملوهم بما يستحقونه من الاذلال ، ويحكموا فيهم شريعة سيد الارسال ، بما يقوله اهل العلم فيهم بحسب جرم كل واحد وفعله ، من تنكيله أو نفيه أو قتله ، فان لم يقدر عليهم الا بقتال قوتلوا وقتلوا القتال الشاق ، (ولعذاب الآخرة اشق وما لهم من الله من واق) .

فساد الدين : الطمع وقبول الهدايا

وقد تقرر ان فساد الدين الطمع ، وان ملاكه التقوى والورع ، وان الاحسان يغلب الاعيان ، ويصير العدو حبيبا ، والاحمق لبيبا ، والباطل حقا ، والكذب صدقا ، ومن احسن اليك فقد استرقك بامتنانه ، ومن آذاك فقد اعتقك من رق احسانه ، وللعطاء فى النفوس ــ كما قاله بعض الاعيان ــ أثر قادح فى الايمان ، فاحذر ان تقبل ممن امرك الله بمعاداته هدية ، فانها بلية وأى بلية ، لأن القلوب مجبولة على حب من احسن اليها ، أو انعم بشىء ما عليها ، وفى الحديث : « اللهم لا تجعل لفاجر عندى نعمة يرعاه بها قلبى » ، وفيه أيضا : « الهدية تذهب بالسمع والقلب والبصر »، اخرجه الطبرانى فى الكبير عن عصمة بن مالك ، وفيه أيضا : « الهدية تعور عين الحكيم » ، اخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس ، وفقنا الله تعالى لسلوك سبيل رضاه ، ومن علينا بفضله ورحماه آمين .

وحدة الكلمة هدف العبادات والاخلاق الاسلامية

ولنرجع الى ما كنا بصدده من الحديث على الائتلاف والموافقة ، وترك الخلاف والمشاققة ، فنقول : ومن تامل الكتاب والسنة وجدهما متفقين على وجوب الاتفاق بين المومنين ، والائتلاف

والالتئام بين الموحدين ، بل اذا تاملت وامعنت النظر فى الشريعة الغراء واحكامها ، وجدتها كلها مبنية على الحض والاغراء على اتفاق الكلمة والتئامها ، فما شرعت الجمعة والجماعة فى الاعياد والصلوات ، والوقوف كل عام بعرفات ، وزيارة المرضى والاخوان، وشهود الجنائز فى كل آن ، ومواساة الضعيف واطعام الطعام ، والعمل بمكارم الاخلاق وافشاء السلام ، والمصافحة والاهداء وبشاشة الوجه عند اللقاء ، وغيرها من الخصال الحميدة ، والاحسانات العميمة الجديدة ، الا لما فى ملاقاة الاجسام ، وحسن المعاشرة معها على الدوام ، من سر اتحاد الارواح وتعارفها ، وركون بعضها لبعض وتآلفها .

وانظر الى ما فى الموطإ عن عطاء بن ابى مسلم الخراسانى ، معضلا واسند من طرق ، انه عليه الصلاة والسلام ، قال : « تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوا وتحابوا تذهب الشحناء » ، وفى معناه احاديث كثيرة ، والى ما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة مرفوعا : «والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تومنوا، ولا تومنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ، افشوا السلام بينكم»، وكذلك ما شرعت المحبة والاخوة فى الله ، والمعاونة فى دين الله ، وآخى النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار من اصحابه مرة بعد اخرى ، الا لما فى ذلك من الارتباط والائتلاف المؤدى لصلاح الدنيا والأخرى ، وما حرمت الخصال الذميمة من كبر وحسد وغيبة ونميمة ، وكذب وغصب وبهتان وزور ، وقتل ونهب وغيرها من الفجور ، الا لما فيها من اثارة البغضاء والشحناء ، وتفريق كلمة ارباب الشريعة السمحاء .

التنديد بمن يقاطع اخاه أو يهاجره

وانظر الى ما ورد فى الاحاديث الكثيرة والاخبار الشهيرة ، من الوعيد الشديد ، والتهويل والتهديد ، على من يقاطع اخاه أو

يدابره ، أو يصارمه أو يهاجره ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا ، هجر المومنين ثلاثا ، فان تكلما والا اعرض الله عز وجل عنهما حتى يتكلما ، رواه الطبرانى فى أبواب ، وقوله : « من هجر اخاه فوق ثلاث فهو فى النار الا ان يتداركه الله برحمته » ، رواه الطبرانى أيضا عن فضالة بن عبيد ، وقوله : « من هجر اخاه سنة فهو كسفك دمه » رواه أبو داوود عن ابى حراش حدرد بن أبى حدرد الأسلمى ، وقوله : « ان الشيطان قد يئس ان يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم » ، رواه مسلم عن جابر ، وقوله : « لو ان رجلين دخلا فى الاسلام فاهتجرا لكان احدهما خارجا من الاسلام حتى يرجع » اى الظالم منهما ، رواه البزار عن ابن مسعود وقوله : « تعرض الاعمال فى كل اثنين وخميس فيغفر الله عز وجل فى ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك بالله شيئا الا امرءا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول : اتركوا هاذين حتى يصطلحا » رواه مالك ومسلم عن ابى هريرة ، وقوله : « يطلع الله الى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه الا لمشرك أو مشاحن » ، رواه ابن ماجة عن ابى موسى ، وابن حبان فى صحيحه عن معاذ ، والبزار بنحوه من حديث أبى بكر الصديق ، وقوله : « ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا ، رجل ام قوما وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، واخوان متصارمان » رواه ابن ماجه عن ابن عباس، تجده من أقوى الادلة أيضا لما ذكرناه ، وبيناه قبل وسطرناه . وتعلم عظيم تشوق الشارع لحصول هذه المصلحة العظيمة ، والمنفعة العميمة ، التى يتسبب عنها صلاح الدنيا والدين ، ويعود وبالها على الكفرة والفجرة المعتدين ، وفق الله المسلمين ، وألف بين قلوب عباده المومنين ، واعانهم على بره وتقاه ، وسلك بهم سبيل فضله ورضاه ، بمنه وكرمه ، وجوده وحرمه آمين .

المبحث الثاني

تــرك الاستعــداد الحــربى

ومنها وهو المبحث الثانى ، ترك الاستعداد ، وعدم النهوض على قدم الجد والاجتهاد ، فيما يعين على محاربة الكفرة الانذال ، وما يغيظهم من السلاح والكراع (1) والعدة والمدافع والمهاريز والابطال ، مع قيامهم هــم بذلك أتم قيام ، واحداثهم فى كــل عصر ما يظنون انه يكمل لهم به النظام ، ينتهزون بذلك الفرصة على الاسلام ، ويموهون على اهله بــه وبغيره من التمويهات العظام ، مع انا يا عباد الله أحق بذلك ، واولى بالقيام بالمستطاع مما هنالك ، لاحقية ديننا واشرفيته على سائر الاديان ، وخوضهم فى الزور والباطل والكفر والبهتان ، وقد قال تعالى : « واعدوا لهم (يعنى للكفار) ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم »، قال المفسرون لما لم يكن للصحابة فى غزوة بدر استعداد تام ؛ نبههم تبارك وتعالى فى هذه الآية على ان النصر من غير استعداد لا يتاتى فى جميع الازمان ؛ بل الغالب عدم تاتيه بغيره على حسب ما جرت عليه عادة الله سبحانه وقوله (ما استطعتم) شامل لكل ما فى طاقة البشر ومقدورهم ، وجميع ما يدخل تحت كسبهم ، وقوله (من قوة) فسرت القــوة ها هنا بجميع انــواع الاسلحة والألآت ، وبالحصون والمعاقل ، أى اتخاذها وتحصينها بالتحفير وغيره ، وبالرمى بالسهام ونحوها من كل ما يرمى به كالمكحلة اليوم والمدافع ونحوها ، وبجميع ما يتقوى به فى الحرب على العدو ؛ وبالشجعان

---

(1) الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير

والابطال، والخيل والدواب ، والسياسات والحيل وغير ذلك، وهو اشمل وأولى ، اذ القوة منطبقة على الجميع ، وعليه فعطف الخيل على القوة من عطف خاص على عام ، لمزيد الاهتمام بها لما اها من المزية العظيمة فى الحرب ، والارهاب للعدو .

الاستعداد للجهاد من فروض الكفاية

وقال الفخر الـرازى فى تفسيره : وهذه الآية تدل عـلى ان الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح ، وتعليم الفروسية ، والرمى ، فريضة الا انه مـن فروض الكفاية ه ، وقـد فرض الله الجهـاد بالمال ، كما فرضه بالنفس فقال : « أنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »، وهذا لان الوسائل تعطى حكم المقاصد ، والجهاد بالنفس فرض ، فتكون وسيلته وهى الجهاد بالمال كذلك ، وقد دلت آية وأعدوا الخ على فائدتين من فوائد الاستعداد .

أولهما : حصول التقوية به على الجهاد بوجود عدته والآته ، وما ينضم اليهما من معززاته ومقوياته .

ثانيهما : حصول الارهاب والخوف به فى قلوب الاعداء اذا علموا ان القوة حصلت للمسلمين عدة وعددا ، وناهيك بهما فائدتين عظيمتين ، وثمرتين كبيرتـين ، اذ بهما يحصل الامـن والنصر والظفر ، وتعود الكرة على من طغى وجحد وكفر ، وتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين جحدوا به السفلى ، ودعائم الاسلام قائمة ، وأركان الكفر ساقطة ومنهدمة ، وفق الله المسلمين آمين ، وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » أى تيقظـوا واستعدوا للاعداء ولا تغفلوا ، واخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مقاتل ابن حيان قال : خذوا حذركم ، عدتكم من السلاح ، قالـوا : والسلاح يسمـى حذرا لانـه يتقى بـه ويحـذر ،

وقال الضحاك : خذوا حذركم ، تقلدوا سيوفكم ، فان ذلك هيئة الغزاة ، وقال تعالى : « وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » ، وقال : « وانفروا فى سبيل الله ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة » ، قيل : الالقاء باليد الى التهلكة هنا ترك الاستعداد ، أى انفقوا اموالكم فى مهمات الجهاد ، وما يرجع الى الاستعداد ، والا تنفقوها فى ذلك استولى عليكم عدوكم واهلككم ، وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبى حبيب فى قوله تعالى : « يأ أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول » ، قال : هو الاخلال بالسلاح فى المغازى .

وأخرج أحمد وابو داوود والنسائى والدارمى وابن حبان والحاكم وصححه عن أنس مرفوعا : « جاهدوا المشركين باموالكم ، (اى بان تستعدوا بها لقتالهم وتشتروا بها ما يحتاج اليه فيه من سلاح ودواب وزاد ونحو ذلك ،) وانفسكم (أى بان تخرجوا الى قتالهم) ، والسنتكم » (أى بان تكافحوا بها عن الدين وتهجوهم وتخوفوهم بالقتل والاخذ وما أشبه ذلك ، وتحضوا الناس على الجهاد ، وترغبوهم فيه ، وتبينوا لهم فضائله ، فان الكل جهاد .

انذار المسلمين بالذل اذا تركوا الاستعداد للجهاد

وأخرج احمد أيضا والطبرانى فى الكبير وابو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند حسن عن ابن عمر مرفوعا : « اذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة (1)، وتبعوا اذناب البقر، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، أدخل الله عليهم ذلا » وفى رواية لاحمد

(1) العينة ، بكسر العين ، بيع السلعة بثمن الى اجل ، ثم شراؤها بأقل من ذلك الثمن .

والبيهقى « انزل الله عليهم بلاء لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » وفى لفظ عزاه فى كنز العمال لابن جرير الطبرى عن ابن عمر أيضا : « اذا ضن الناس بالدينار والدرهم ، وأخذتم اذناب القبر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد فى سبيل الله ، بعث الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا امر دينكم » الحديث ، وستأتى فيه الفاظ أخر ، ومعناه كما قاله العلماء : ان الناس اذا بخلو بصرف الدنانير والدراهم فيما يتعلق بالاستعداد للعدو ، حرصا على الدنيا والاستكثار منها ، ورضوا بما هم فيه من الاسباب ، من التحيل على اكل الربى واتباع اذناب البقر للحراثة والزراعة ونحوها ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، سلط الله عليهم عدوهم فلا يتخلصون منه حتى يرجعوا الى ما هو واجب عليهم ، من التأهب له أولا ، ثم جهاده بالفعل ثانيا ، والاغلاظ له ، واقامة الدين ونصرة الاسلام ، حماية لجناب الله تعالى وجناب رسوله عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الله تعالى لنبيه : « يا أيها النبىء حرض المومنين على القتال » وقال : « وحرض المومنين » وقال : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » ، أى بأسا وخشونة وشدة ، وقال : « جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » ، ومعلوم انه لا قتال ولا بأس ولا شدة ولا قوة ولا علو ولا ظهور الا بآلة واستعداد وقد ألف الناس تآليف عديدة فيما ورد فى فضله والحث عليه فلتنظر .

مسؤولية الامام فى تنظيم الاستعداد للجهاد

قال العلماء رضى الله عنهم ويلزم الامام أى السلطان ان يأمر أهل القدرة بالاستعداد والتأهب للعدو ، وباقتناء الخيول والآلات وتعلم الرماية والسباحة والمصارعة والمساقرة وكيفية الطعن والضرب والكر والفر وغير ذلك من كل ما فيه تدريب وتمهيد للقتال ، ونفع فى جهاد العدو الكافر ، وعليه هو أيضا ان يتأهب بما يمكنه من تحصين الثغور والحصون وسدها ، والتحفير عليها

ويكثر من الآلات السلاحيــة والمهاريز والانفاض واقتناء الكــور والبندق من الرصاص والبارود وما اشبه ذلك ، ويأمر الناس بأن يتدربوا باستعمال ذلك بين يديه ، ليعلم النجيب منهم فيكرمــه ، وغيره فيهينه ، ومن كانت هذه نيته من الملوك واذهب طرفا ما من عمره فى الاستعداد والتدريب ، وعين من كل قبيلة مائة أو مائتين أو أكثر أو اقل ، بحسب كبرها وصغرها ، من شجعانها وابطالهــا ممن ظهرت نجابتهم وشدتهم فى الاصابة فى الرمى والكر والفر ، بمرأى من عينيه ، حصلت له ولهم مزية الجهاد ، ولم ترعهم الكتائب الوافرة وان كانوا هم أقل عددا ، بل هم مجاهدون وان ماتوا قبل ملاقاة العدو ، لأنهم على نيته ، والاعمال بالنيات ، وكفى بمزيــة الجهاد مزية ، اذ لا يدركها أحد ولو استمر فى العبادة مائة الف سنة أو اكثر لانه أعز دين الاسلام ، ومشى على نهجه عليه السلام، وقام بأوامر الله احسن قيام ، وبالغ فى اعلاء كلمة الله مبالغة الابرار الكرام ، قال تعالى : «ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح » ثم قال : ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم » . الآية ، ومن لم تكن هذه نيته منهم ، اعنى الملوك ، واهمل أمر الاستعداد ، وترك رعيته على ما هم عليه وغيه من النعاس والكسل والرقاد ، والافتخار بفاخر اللباس ، والانهماك فى اللذات على مر الانفاس ، والتنافس فيما لا يغنى فى الشدائــد ، ولا يفيد ، بل يحط الــى اسفل سافلين ويعيد ، تداعت اجناس النصارى عليهم وعليــه ، وتحركت الطواغيت من كل جهة اليهم واليه ، فتلهم (1) الشيطان للجبين ، وخسروا الخسران المبين ، فلا هو وهم مفلحون فى الدنيا بغلبة عدوهم اللعين ، ولا ناجون فى الآخرة من عذاب ربهم المهين، وذلك داب الله سبحانه مع من اهمل امره ، وأمن مكره .

---

(1) تله يتله تلا : صرعه

أهل الاندلس تركوا الاستعداد ، واشتغلوا بالطرب والفساد

وقد وقع لاهل جزيــرة الاندلس انهــم تركوا الاستعداد ، واشتغلوا باللهو والطرب والفساد ، ولمــا دهمهم العدو مساحا لابسا ثياب البذلة والقتال ، خرجوا لقتاله بالغفائروثياب الزينة ، فدهشوا لعدم التدريب وممارسة القتــال ، فصبروا أياما قلائل ثم نكلوا ، فأخذ رقابهم واموالهم ، وكانت ملوكهم لا ينصر بعضهم بعضا ولا يعينه ، حتى تمكن العدو من طليطلة ، قاعدة مملكتهم ، وصارت ملوكهم تؤدى الضريبة من يومئذ للعدو الكافر ، ولم تقم لهم قائمة بعد حتى تملك جميع اراضيهم ، ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم والأمــر لله ما شاء فعل .

وقد قالوا : ان الامام مع الرعية ، كالنفس مع صاحبها ، ان لم يشغلها شغلته ، فالامام ان لم يشغلهم بامور الجهاد شغلوه بالقيام عليه، وبعدم امتثال أوامره (2)، كما أن النفس ان لم يشغلها صاحبها بالخير شغلته بالشر ، وقال الامام ابن طلحة : يلزم الامام حمل الناس على الجهاد فان اتكل على ان يتكلف الناس لأنفسهم ضاع الجهاد ، وتهدم الاسلام ، اذ لا يتم الجهاد الا بحمل الامام الناس عليه ، واخذ اموالهم مــن وجهها ، ووضعها فى محلها مــن جيوشهم ، ويجبر أهل المال على كسب الخيول وآلة الحرب وســد الثغور ه ، وفى آواخــر شرح نظــم بيوع ابــن جماعة : مــن البــدع المحرمــة التواطــؤ علــى اهمــال اقتنــاء الخيــول لأهــل القــدرة ، واكتســاب أنــواع العــدة ، وتعلــم

---

(2) الغزو الاستعمارى ناب عن الحكومات الاسلامية فى اشغال الشعوب بافلام الخلاعة والجنس والاجرام فى السينما والتلفزيون والفيديو ، فضلا عن الاغراق فى الطرب واللهو والغناء والرقص وحرية الاختلاط ، والهاء الشباب بمنافسات العاب كرة القدم التى تجاوزت كل الحدود :

الرماية التى بها يسود الرجل ويصول ، وترك التحصين والتحفير على ثغور المسلمين ، قال تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » والتحفير والتحصين من القوة هـ ، وعد ابن حجر الهيتمى فى الزواجر ، من الكبائر ترك اهل الاقليم تحصين ثغورهم ، بحيث يخاف عليها من استيلاء الكفار بسبب ترك التحصين ، ثم ذكر ان عد ما ذكر من الكبائر ظاهر ، لأنه يحصل به من الفساد العائد على الاسلام وأهله ما لا يتدارك خرقه هـ ، وجميع ما ورد من الوعيد فى ترك الجهاد ، كله يأتى فى ترك الاستعداد ، اذ لا جهاد الا به ، وفى التنزيل : « ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة » ، فكل من يريد الجهاد يأخذ له فى الاستعداد ، ومن لا فلا ، ويأتى حديث : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » .

يجب تدريب الشعب كله وعدم الاكتفاء بعسكر السلطان

وفى العهود المحمدية : أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن لا نتهاون بترك تعلم آلات الجهاد ، كالرمى بالنشاب والمصارعة والمدافعة ونحو ذلك، ثم لا نتركها بعد التعلم حتى لا ينفك ادماننا ، وهذا العهد قليل من الناس من يعتنى به اكتفاء بعسكر السلطان ، ويقول : اذا وقع دخول عدو بلادنا فعسكر السلطان يكفى ، فكل ذلك جبن وكسل ، وبئس الطباع ، وكذلك من الأدب ان لا نتهاون بترك تعلم السباحة فى البحر ، لاحتمال ان يضطرنا عدو عند شاطىء البحر فيهلكنا ، ولو اننا كنا نعرف السباحة لربما خلصنا منه ، وقد كان شيخنا شيخ الاسلام الانصارى مع كبر سنه ، يعوم فى بحر النيل كل سنة مرة ، ويقول : انا اخاف ان ينفك منى الادمان فى العوم ، فان ترك العوم نقص فى الانسان ، والله اعلم . روى مسلم وابن ماجة مرفوعا : « من علم الرمى ثم تركه فليس منا أو فقد عصا » ،

وفى رواية : « من تعلم الرمى ثم تركه فقد عصانى » وفى رواية للطبرانى : « من تعلم الرمى ثم نسيه فهى نعمة جحدها » ، وفى رواية :« من ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فانما هى نعمة كفرها » ، ويقاس على الرمى ما ذكرناه من آلات الجهاد وما لم يذكر ، والله تعالى اعلم هـ ، وقال بعضهم : قوله فى حديث مسلم : من علم الرمى ثم تركه فليس منا أو فقد عصا ، يشعر بان من ادرك نوعا من أنواع القتال التى ينتفع بها فى الجهاد فى سبيل الله ، ثم تساهل فى ذلك حتى تركه كان آثما اثما شديدا لأن ترك العناية بذلك يدل على ترك العناية بأمر الجهاد ، وترك العناية بالجهاد يدل على ترك العناية بالدين ، لكونه سنامه وبه قام هـ .

انحطاطنا وسوء أحوالنا المعاصرة

ونحن أيتها الامة فى هذه الازمان ، فى كثير من البلاد والثغور والاقاليم ، قد استحوذ علينا الشيطان الرجيم ، فأصمنا واعمانا، واضلنا عن طريق الهدى وأغوانا ، فتركنا ما هو الواجب علينا من اخذ الاهبة والاستعداد ، والقيام فى ذلك على ساق الجد والاجتهاد ، حتى زالت هيبتنا من قلوب العدا ، واستعدوا هم وجعلوا يهددوننا بالمجىء الينا فى اليوم وغدا ، وطمعوا فى اخذنا من غير سلاح ، والاستيلاء علينا جدا بلا مزاح ، بل قد استولوا على كثير من البلاد ، واستعملوا عليها بمجرد الحيلة بلا قتال ولا جهاد ، ومع ذلك فلم يشعر منا شاعر ، ولا تزحزح واحد منا عما هو عليه من تعاطى أسباب الشر الظاهر ، فلا يدرى أذلك رضى منا بالكفر والصغار ، ومحبة فى اعداء الله تعالى الكفار ، ام ذهبت عقولنا وآراؤنا مع الذاهبين ، وعميت قلوبنا وبصائرنا ، وتاهت فى مفازات المنهمكين المتهتكين الهالكين ؟ ، جبر الله بمنه صدع قلوبنا ، وستر بمحض فضله وجوده ما أبديناه من زللنا وقصورنا، وقبيح عيوبنا وذنوبنا ، بمنه وكرمه آمين .

وليعلم ان الله تبارك وتعالى قادر على نصر عباده المومنين ، بدون استعداد ولا سبب أصلا ، لكن حكمته الباهرة اقتضت انه لابد من الاسباب وجودا ، ومن الغيبة عنها شهودا ، فنثبتها من حيث ان الله تعالى اثبتها بحكمته ، ولا نستند اليها لعلمنا باحديته ، وبأنه تعالى يفعل ما يشاء فى ملكه ، قال تعالى : « قل اللهم مالك الملك » الآية ، وقال : وما النصر الا من عند الله » ، قال البيضاوى : وامداد الملائكة، وكثر العدد، والأهب (1) ونحوها، وسائط لا تأثير لها ، فلا تحسبوا النصر منها ، ولا تياسوا منه بفقدها ه ، ولذا كان عليه السلام اذا اراد الخروج الى الجهاد يستعد لذلك بجمع أصحابه ، وباتخاذ الخيل والسلاح وما يحتاجون اليه من الألآت والزاد فى السفر ، ثم يرد الامر بعد ذلك الى مولاه عز وجل ، ويترقب النصر منه تعالى ، لا من شيء سواه ، ويتضرع اليه ويدعوه ويسأله باسمائه الحسنى ، كقوله : « اللهم منزل الكتاب ، مجرى السحاب ، وهازم الاحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » . وفى رواية : اللهم منزل الكتاب سريع الحساب ، اهزم الاحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم ، وقوله : « اللهم أنت عضدى ونصيرى بك اصول ، وبك احول ، وبك اقاتل » ، وقوله : « اللهم انك ان تشأ لا تعبد فى الارض » ، وقوله : « اللهم انجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى ، اللهم انك ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد فى الارض » ، فاذا ظفر باعدائه رأى ان ذلك انما هو منه سبحانه لا من غيره ، ومن فعله تعالى على الحقيقة ، لا من فعل احد سواه . متحققا بقوله تعالى لهم : « فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » ، معترفا بذلك ، معلنا به ، شاكرا لله عليه ، قائلا اذا رجع من سفر غزوة : « آئبون تائبون عابدون ، ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده » وهذا لأن الانسان

(1) الأهب : ج أهبة وهى العدة يقال : أخذ للسفر أهبته.

وفعله مخلوقان اربه عز وجل كما قال تعالى : « والله خلقكم وما وما تعملون » ، فهو سبحانه الذى خلق ودبر واعان واجرى الامور على يد من شاء واختار من خلقه ، فكل منه ، وكل راجع اليه .

اختبار المومنين وامتحانهم قانون الآهى دائم

ولو اراد تعالى ان يبيد أهل الكفر ويهلكهم بعذاب من عنده ، ويكفى المسلمين امرهم بغير قتال لفعل ، كما قال تعالى فى كتابه : « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضهم ببعض » ، أى سبق فى علمه انه لابد من الاختبار ، فيصير من قتل من المسلمين الى ثواب ، ومن هلك من الكافرين الى عذاب وعقاب ، وقال تعالى : ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ، وقال : ما كان الله ليذر المومنين على ما انتم عليه (أى مختلطين لا يعرف مومنكم من منافقكم) حتى يميز الخبيث من الطيب » ، أى المومن من الكافر ، بالهجرة والجهاد وغيرهما من التكاليف الشرعية ، وقال : « احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » أى لا يمتحنون ويختبرون بشدائد التكاليف ، من مفارقة الأوطان ، ومجاهدة الاعداء ، وسائر الطاعات الشاقة ، وهجرة الشهوات والملاذ ونحو ذلك ، وقال : « ليبلوكم ايكم احسن عملا » ، وهذا الاختبار والامتحان سنة قديمة جارية فى الامم كلها ، كما يشير اليه قوله : « وكأين من نبىء قتل معه ربيون كثير » ، الآية ، وقوله : « ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ، فعلى المكلف ان يقوم بالاسباب امتثالا للشريعة المطهرة ، ويرد الامر الى الله تعالى بالرجوع والسكون اليه ، والنزول بساحة كرمه عملا بالحقيقة : « أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض » ، وقد قالوا : لا يحل ترك الاسباب اعتمادا على مسببها ، لأن ذلك حقيقة بدون

شريعة ، وهى زندقة ، لما فيها من النقـض للحكمة الالآهيـة ، والالغاء لها ، وقد قال عليه السلام لمن قال : اعقل ناقتى واتوكل على الله ، أو أطلقها وأتوكل ؟ « اعقلها وتوكل » .

وجملة القول ، فلا يجوز لأحد ترك الجهاد والاستعداد اعتمادا على ان الله تعالى يقوم ان شاء بنصرة دينه ، ويهلك الكفار ، لما فى ذلك من الرفض للشريعة المطهرة ، والترك لها ، والنبذ لما جاءت به من الوعد والوعيد ، ولا يخفى ما فيه ، ولا جهاد بدون استعداد ، لما فيه من الالقاء باليد للتهلكة ، والتسبب فى اذلال المسلمين والاسلام ، واستيلاء الكفار عليهم وعلى بلادهم ، واوجب واحسن وأفضل من الاستعداد الحسى ، الاستعداد المعنوى ، باتباع الامر والنهى ، وتوسيد الامر الى أهله كما قال تعالى فى نحوه : «وتزودوا فان خير الزاد التقوى » ، وبالاستعداد المعنوى تقع المعونة من الله ، ويحصل الرضى من جنابه وعلاه ، « ان تنصروا الله ينصركم » ، وتحفظوا دينه القويم يحفظكم . وبتركه تنحل العزائم ، ويقـع المسلمون فى مهاوى التلف والعطب والجرائم ، كما شوهد ذلك ، فى عدة مواطن هنالك ، وافهم الرمز والاشارة فى قوله عليـه السلام : « اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظر الساعة » ، نسأله سبحانه بجاه من له الجاه ، ان يوفقنا وجميع المسلمين لما فيـه رضاه ، بمنه وكرمه ، وجوده وحرمه آمـين .

المبحث الثالث

تــــرك الجهـــاد

ومنها وهو المبحث الثالث : ترك جهاد اعداء الدين ، وعـــدم النهوض لمحاربتهم على مر الازمان والسنين ، كأن قتالهم صـــار شرعا منسوخا منقوضا ، وارسال البعوث اليهم عاد امرا منبوذا مرفوضا ، ولذلك ترى المسلمين اذلة بعد ما كانوا أعزة ، وفقراء ، غب ما كانوا أغنياء ، ومتحاربـــين ، اثر ما كانوا لقتال الكفـــرة متحزبـــين ، ومفترقـــين ، بعيد ما كانـــوا مجتمعين ، وقلـــت البركات ، وارتفعت الخيرات ، وزال الحياء ، وكثر الرياء ، وجار الحكام ، وساد اللئام ، وحل البلاء ، وعظمـــت المصيبة والرزء والشقاء ، وتطاولت الاعداء ، وكثر منهم للمسلمين السباء ، فـــلا حول ولا قوة الا بالله ، انا لله ، وانا راجعون الى الله .

انذار تاركى فريضة الجهاد بالعذاب الشديد

وقد ورد فى تركه فى الكتاب والسنة وعيد شديد ، وتوبيـــخ عظيم وتقريع وتهديد ، قال تعالى : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأمـــوال اقترفتموها وتجـــارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره (أى بعذابه وعن الحسن : هو عقوبة عاجلة أو آجلـــة) والله لا يهدى القـــوم الفاسقين » قرع تعالى ووبخ من كانت هذه الاشياء أحب اليه من الله والرسول والجهاد ، واوعدهم بقوله : فتربصوا حتى ياتى الله بامره ، ثم فسقهم بتمام الآية ، واعلمهم انهم ممن ضل ولم يهده الله ، قال فى الكشاف : وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها ،

كأنها تنعى على الناس ما هم فيه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين ه ، وقال ابن النحاس : فى هذه الآية من التهديد والتحذير والتخويف لمن ترك الجهاد رغبة عنه ، وسكونا الى ما هو فيه من الاهل والمال ، ما فيه كفاية ، فاعتبروا يا أولى الابصار ه ، وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض ، ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الاخرة الا قليل الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير » ، قال المفسرون : هذا تسخط عظيم على المتثاقلين عن الجهاد المائلين عنه الى الدنيا وشهواتها حيث أوعدهم بعذاب اليم مطلق شامل لعذاب الدنيا باستيلاء العدو عليهم ونحوه ، وعذاب الآخرة بالنار ، وبأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم واطوع ، واعلمهم بانه غنى عنهم فى نصرة دينه ، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئا .

وقال تعالى : « ولا تلقوا باديكم الى التهلكة » ذهب جماعة منهم أبو أيوب الانصارى الى ان التهلكة هنا الاقامة فى الاهل والاموال واصلاحها ، وترك الغزو لأن ذلك يقوى العدو ويجرئه على المسلمين فيفسد عليهم دينهم ودنياهم ويهلكهم ، وقال : « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ، ذهب بعض المفسرين الى ان الفتنة هنا التكاسل عن الجهاد ، أى احذروا الفتنة التى لا يصيب شرها ووبالها الظالمين خاصة ، بل يعمهم وغيرهم ، وهى التكاسل عن الجهاد وفى تفسير البيضاوى لدى هذه الآية : اتقوا ذنبا يعمكم اثره كاقرار المنكر بين اظهركم ، والمداهنة فى الامر بالمعروف ، وافتراق الكلمة ، وظهور البدع ، والتكاسل فى الجهاد ه ، وأخرج ابو داوود وغيره بسند حسن عن ابن عمر مرفوعا : « اذا تبايعتم بالعينة واخذتم

اذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا الى دينكم » .

واخرج احمد عنه ايضا مرفوعا : « لئن اتبعتم اذناب البقر وتبايعتم بالعينة وتركتم الجهاد فى سبيل الله ، ليلزمنكم الله مذلة فى اعناقكم ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا الى ما كنتم عليه وتتوبوا الى الله ، وفى لفظ آخر له عنه أيضا : لئن تركتم الجهاد واخذتم باذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ليلزمنكم الله مذلة حتى تتوبوا الى الله وترجعوا عما كنتم عليه ، قال العلماء رضى الله عنهم : نزل النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث ترك الجهاد والتشاغل بغيره من الاسباب منزلة الردة والخروج عن الدين ، وفى ذلك من الزجر عن تركه، والتقريع والتهويل على تاركه ما لا يخفى ، ولذا ذكر ابن النحاس والدمياطى فى كتاب الجهاد ان ترك الجهاد فى جميع السنين والاعراض عنه ركونا الى الدنيا خروج عن الدين ومفارقة له ، واحتجوا له بهذا الحديث وقال فى الزواجر : ان ترك الجهاد عند تعينه بان دخل الحربيون دار الاسلام ، أو أخذوا مسلما وامكن تخليصه وترك الناس الجهاد من اصله كبيرة من الكبائر قال لانه يحصل به من الفساد العائد على الاسلام وأهله ما لا يتدارك خرقه محتجا على ذلك بهذا الحديث وغيره .

واخرج تمام عن مساور بن شهاب مرفوعا : « ان العرب اذا اتبعت اذناب البقر صب الله عليهم الذلة ، وسلط عليهم ولد فارس فيدعون فلا يستجاب لهم » (1) ، واخرج ابن مردويه والديلمى عن ابى هريرة رفعه : من اشراط الساعة سوء الجوار وقطيعة

---

(1) هل يشير هذا الحديث الغريب المدهش الى حالة العرب اليوم ، والى الحرب العراقية الايرانية ؟ فيكون من باب الاخبار بالمغيبات التى لم تظهر الا اليوم . وتأمل « رمزية » اتباع اذناب البقر للتبعية العربية للغرب أو الشرق .

الأرحام ، وان يعطل السيف عـن الجهاد ، وأن ينتحل الدنيـا بالدين (1) .

وأخرج احمد ومسلم وأبو داوود والنسائى والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة أيضا مرفوعا : من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » . أى طائفة منه وخصلة مـن خصاله فان ترك الجهاد احد شعب النفاق لا سيما عند مس الحاجة اليه وظهور غربة الاسلام وضعف المسلمين وتسلط الذل التـام على المومنين كما ان فعله احد شعب الايمان ، قالوا وتحديـث النفس بالغزو ان ينوى الجهاد قال بعض وعلامته اعداد الألآت قال تعالى : « ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة » هـ .

وأخرج أبو داوود وغيره عن ابى امامة مرفوعا : « من لم يغز أو يجهز غازيا أو يخلف غازيا فى أهله بخير أصابه الله بقارعة (أى بلية تقرعه وتهلكه) قبل يوم القيامة » ، واخرج عبد الرزاق عن مكحول مرسلا : «ما من اهل بيت لا يخرج منهم غاز أو يجهزون غازيا أو يخلفونه فى اهله الا أصابهم الله بقارعة قبل الموت » ، واخرج الترمذى وابن ماجة والحاكم عن أبى هريرة مرفوعا : من لقى الله بغير اثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمة أى فى دينـه نقص وعيب ، واخرج الطبرانى بسند حسن عن أبى بكر الصديق مرفوعا : « ما ترك قوم الجهاد الا عمهم الله بالعذاب » ، وأخرج ابن مردويه عن محمد بن عبد الله التيمى عنه أيضا قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله الا ضربهم الله بذل ولا اقر قوم المنكر بين اظهرهم الا عمهم الله بعذاب»، الحديث، واخرج ابن عساكر عن الشعبى قال لما بويع ابوبكر الصديق رضى الله عنه صعد المنبر فذكر الحديث فى خطبته التى خطب بها لما بايعه الناس البيعة العامة التى كانت الغد من

---

(1) اى يدعى التمسك بالدين والدفاع عنه ، فقط لمصالح دنيوية .

يوم السقيفة وقال فيه : ولا يدع قوم الجهاد فى سبيل اللـــه الا عمهم البلاء .

وأخرج ابن ابى الدنيا فى كتاب الامر بالمعروف والنهى عـــن المنكر عن ابى امامة مرفوعا : « كيف بكم اذا طغى نساؤكـــم وفسق شباكم وتركتم جهادكم ؟ قالوا : وان ذلك لكائن يا رسول الله قال نعم الحديث » واخرج ابن عساكر فى كتاب الجهاد عن أنس مرفوعا : « من غزا غزوة فى سبيل الله فقد ادى الى الله جميـــع طاعته ، فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر ، انا اعتدنا للظالمين نارا ، قال : قيل يا رسول الله وبعد هذا الحديث الذى سمعنا من يدع الجهاد ويقعد ؟ ، قال : من لعنه الله وغضب عليه واعد له عذابا عظيما ، قوم يكونون فى آخر الزمان لا يرون الجهاد ، وقد اتخذ ربى عنده عهدا لا يخلفه . ايما عبد لقيه وهو يرى ذلك ان يعذبه عذابا لا يعذب به احدا من العالمين » ، وأخرج ابن عساكر أأيضا وضعفه عن أنس أيضا مرفوعا : « لا يزال الجهاد حلوا خضرا ما امطرت السماء وانبتت الارض وسينشأ نشء من قبل المشرق يقولون : لا جهاد ولا رباط ، أولئك وقود النار بل رباط يـــوم فى سبيل الله خير من عتق ألف رقبة، ومن صدقة اهل الارض جميعا»، قال الدمياطى وابن النحاس : وذكر فى شفاء الصدور عن زيد بن اسلم عن أبيه مرفوعا : لا يزال الجهاد حلوا خضرا ما قطر القطر من السماء . وسياتى على الناس زمان يقول فيه قراء منهم ليس هذا بزمان جهاد ، فمن ادرك ذلك الزمان فنعم زمن الجهاد ، قالوا يا رسول واحد يقول ذلك قال نعم ، من لعنه الله والملائكة والناس اجمعون .

قلت وهذا اخبار عن غيب وقع ، فان كثيرا من المتفقهة وأهل الثروة والرياسة ونحوهم فى هذا الزمان يقولون ان الجهاد فيه متعذر على الناس ، ويعللون ذلك بكثرة الاجناس ، وقوتهم وعظيم جرءتهم ، وشدة شوكتهم ، فيخاف من مناشبة القتال معهم ما هو

أكبر ، وادهى وأمر ، بل رأيت تويلفا مطبوعا لبعض المارقين اللئام، يحض فيه اهل الاسلام ، على ترك الجهاد فى هذه الازمان ، والدخول فيها فى طاعة عباد الصلبان ، اخزاه الله واخزى أثوابا عليه ، وأوصل جميع النقم وأنواع العذاب اليه ، وعلل ذلك بضعف المسلمين ، وقوة الكفرة المجرمين ، وهذه فتوى كاذبة واهية ، بل من الدسائس النصرانية ، والسياسات الكفرانية ، والتسويلات الشيطانية ، ولا تصح بحال ، ولا يقبل من مارق فيها مقال .

استمرار فريضة الجهاد الى يوم الدين

أما أولا ــ فان النبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر ببقائه الى يوم الدين ، وانه لا ينقطع مدة بقاء الموحدين ، وانظر الى قوله عليه السلام فى حديث أبى داوود وغيره عن انس : « والجهاد ماض منذ بعثنى الله عز وجل الى أن يقاتل آخر أمتى الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل » وقوله فى حديث الطبرانى فى الاوسط عن على : « والجهاد ماض الى يو القيامة منذ بعث الله محمدا الى آخر عصابة من المسلمين لا ينقض ذلك جور جائر ولا عدل عادل » وقوله فى حديث الصحيحين عن عروة بن الجعد البارقى : « الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والمغنم » وفى حديثهما أيضا عن المغيرة بن شعبة : « لا تزال طائفة من امتى ظاهرين حتى ياتيهم امر الله » قال فى التيسير : أى يوم القيامة وهم ظاهرون ، وفى حديثهما أيضا عن معاوية : » لا يزال من امتى امة قائمة بأمر الله لا يضرهم من كذبهم ولا من خذلهم حتى ياتى امر الله وهم على ذلك»، وفى رواية لمسلم «لا تزال طائفة من امتى قائمة بامر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى ياتى امر الله وهم ظاهرون على الناس » وفى أخرى له أيضا : « لا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناواهم الى يوم القيامة » ، وقوله فى حديث مسلم

والحاكم فى المستدرك وصححه عن عقبة بن عامر : « لا تـزال عصابة من أمتى يقاتلون على امر الله قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم حتى تاتيهم الساعة وهم على ذلك » ، وقوله فى حديثه أيضا عن ثوبان : « لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الحـق لا يضرهم من خذلهم حتى ياتى أمر الله وهم كذلك » ، وقولـه فى حديثه ايضا وحديث أحمد وابن الجارود فى المنتقى وبـوب عليه بقوله : باب دوام الجهاد الـى يوم القيامة ، عن جابر بـن عبد الله : « لا تزال طائفة من امتى يقاتلون على الحق ظاهرين الى يوم القيامة » وقوله فى حديثه أيضا عن جابر بن سمرة : «لن يبرح هذا الدين قائما تقاتل عليه عصابة مـن المسلمين حتى تقـوم الساعة » ، وقوله فى حديثه أيضا عن سعد بن ابى وقاص : « لا يزال اهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » ، وقوله فى حديث الحاكم باسناد صحيح عـن عمر : « لا تزال طائفـة من امتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » ، وقوله فى حديث أحمد وابن جرير عن سلمة بن نفيل الحضرمى : « لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الناس يزيغ الله بهم قلوب اقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى ياتى أمر الله وهم على ذلك » ، وقولـه فى حديث أبى داوود مترجما له بقوله : باب فى دوام الجهاد عن عن عمران بن حصين « لا تزال طائفة من امتى يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناواهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال » وقوله فى حديث أحمد عن أبى امامة الباهلى : « لا تزال طائفة من امتى على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم الا ما اصابهم من لأواء حتى ياتيهم أمر الله وهم كذلك » والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة .

للمسلمين طاقة قتال لا يملكها الكفار

وأما ثانيا فان للمسلمين فى كل قطر والحمد لله ، كما هو مشاهد لهم فى انفسهم ، القوة الكاملة ، والشجاعة البليغة العاملة ،

التى ليست لغيرهم من الكفار ، فى أكثر النواحى والاقطار ، مع كثرة عددهم ، ووفور قبائلهم ، بحيث إن القبيلة الواحدة من قبائلهم العظام ، ربما تقوم وحدها بمدافعة بعض أجناس الكفرة اللئام ، اذا تركت ونفسها ، لا يتعرض متعرض من أهل الاسلام لها ، فضلا عن القبائل المتعددة ، والجموع الكثيرة المتجددة .

وانظر ما فعله قريبا من هذا الاوان ، أهل الريف ، من اهل هذا المغرب الاقصا البعيد العمران (1) ، مع قلة ذات يدهم ، وخيولهم واسلحتهم ، ببعض الطغاة من الاجناس ، وما فعله بغيرهم غيرهم من قبائل العرب والناس ، واجناس الروم بهذا مقرون ، وبه وبأكثر منه معترفون (2) ، ويقولون لا يماثل المسلمين احد من غيرهم فى الاخذ والبطش والشجاعة ، ولكن دخلهم الطمع وحب الدنيا ، فلم يبق لهم فى الرأى وحسن التدبير بضاعة ، ولقد صدقوا فى ذلك وان كانوا كاذبين .

حالة المسلمين اليوم ، كما وصفها الرسول منذ 14 قرنا

قد ذهبت بمحبة الدنيا عقولنا وآراؤنا مع الذاهبين ، وظهر

---

(1) الريف فى المغرب يطلق على منطقة جبلية معينة فى شمال المغرب تطل على شواطىء البحر الابيض المتوسط ، وهى موطن قائد الثورة المغربية الشهير محمد بن عبد الكريم الخطابى .

(2) يعترف الفرنسيون — فضلا عن الاسبان — بأن حرب الريف بقيادة بطل الاسلام محمد بن عبد الكريم الخطابى كلفتهم ثلاثمائة الف قتيل وجريح ، اى ضعف ما كلفتهم الحرب العالمية الاولى ثلاث مرات ، كما يعترف الجنرال كيوم فى مذكراته عن حروب الاحتلال التى كان الفرنسيون بالمغرب يسمونها (حروب التهدئة) قائلا :

« لقد تطلب منا اخضاع 100 كيلو ميتر مربع من الاطلس المتوسط عشرين سنة (1912 — 1932) من الحروب العنيفة ، وتحملت جيوشنا عددا ضخما من الضحايا والخسائر » ، مع الاسف تاريخ هذه الحروب وهؤلاء الابطال لم يكتب رغم مرور 32 سنة من عهد الاستقلال ، ولا يعرف شيئا عنه الجيل المغربى المتفرنس المعاصر .

فينا مصداق الاخبار النبوية ، والاحاديث الكريمة المصطفوية ، التى منها ما أخرجـــه احمد وابوداوود والبيهقـــى فى الدلائل ، وغيرهم عن ثوبان مرفوعا : « يوشك ان تداعى عليكم الامم من كل افق كما تداعى الاكلة الى قصعتها ، قيل يا رسول الله فمن قلة منا يومئذ ، قال : لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، يجعل الوهن فى قلوبكم . وينزع الرعب مـــن قلوب عدوكم ، لحبكم الدنيـــا وكراهيتكم الموت » .

واخرج البيهقى فى السنن عن أبى هريرة مرفوعا : « كيف انت ياثوبان اذا تداعت عليكم الامـــم كتداعيكم عـــلى قصعة الطعام تصيبون منه ؟ قال : أمن قلة ؟ قال : لا انتم يومئذ كثير ، ولكن يلقى فى قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال » ، واخرج أبو نعيم فى الحلية عن انس ، وعن معاذ رفعاه : « انتم اليوم على بينة من ربكم ، تامرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتجاهدون فى سبيل الله ، ثم تظهر فيكم السكرتان : سكـــرة الجهل ، وسكرة حـــب العيش ، وستحولون عن ذلك ، فلا تامرون بمعروف ، ولا تنهون عن منكر ، ولا تجاهدون فى الله ، القائم يومئذ بالكتاب والسنة له اجر خمسين صديقا ، قالوا : يا رسول الله ، منا أو منهم ، قال : لا بل منكم » ، واخرج احمد والبزار والطبرانى وأبو نعيـــم والحاكم بسند صحيح ، عن سمرة مرفوعا : « يوشك ان يملأ الله ايديكم من العجم ، ويجعلهم أسدا لا يفرون ، فيقتلون مقاتلتكم ، وياكلون فيئكم » ، أى بسبب حبنا للدنيا وكراهيتنا للموت والجهاد، كما صرح به فيما قبله ، واخرج البزار عن انس وحذيفة مثله ، والبزار والطبرانى عن ابن عمرو مثله ، والطبرانى عن ابـــى موسى مثله ، واخرج الحاكم فى المستدرك والديلمى عن علـــى رفعه : « اذا ابغض المسلمون علماءهم واظهروا عمارة اسواقهم ، وتألبوا على جمع الدراهم ، رماهم الله باربع خصال ، بالقحط

من الزمان ، والجور من السلطان ، والخيانة من ولاة الأحكام ، والصولة من العدو » .

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر مرفوعا : «ليأتين على الناس زمان قلوبهم قلوب العجم ، قيل وما قلوب العجم ؟ قال حب الدنيا ، سنتهم سنة الاعراب ، ما أتاهم من رزق جعلوه فى الحيوان يرون الجهاد ضرارا ، والزكاة مغرما » ، وأخرج الحكيم الترمذى وابن ابى الدنيا عن ابى هريرة مرفوعا : « اذا عظمت امتى الدنيا وفى لفظ الدينار والدرهم ، نزعت منها هيبة الاسلام ، واذا تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت بركة الوحى ، واذا تسابت أمتى سقطت من عين الله » ، وأخرج البزار بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعا : « انما اهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم ، وهما مهلكاكم » ، وأخرج الترمذى وقال حسن صحيح وابن حبان والحاكم فى صحيحيهما ، عن كعب بن عياض مرفوعا : « ان لكل امة فتنة ، وفتنة امتى المال » ، وأخرج أبونعيم فى المعرفة ، عن فاطمة بنت الخطاب رفعته : « لا تزال أمتى بخير ما لم يظهر فيهم حب الدنيا ، وعلماء فساق ، وقراء جهال ، وجبابرة ، فاذا ظهرت خشيت ان يعمهم الله بعقاب » ، وعن وهب بن منبه قال : تصدى الشيطان لسليمان بن داوود عليهما السلام فقال له سليمان : ما أنت صانع بأمة محمد صلى الله عليه وسلم اذا انت ادركتهم قال : أزين لهم الدنيا حتى يكون الدينار والدرهم اشهى الى احدهم أى بعضهم من شهادة ان لا اله الا الله ، نعوذ بالله من ذلك ونسأله ان يحمينا من فتنة ما هنالك .

فبان ان محبة الدنيا والانهماك فيها من اعظم اسباب الوبال ، بل هو الاصل فى كل ما عرض من الفتور فى الدين والانحلال ، ولم يكن تنافس السلف فيها ، ولا كان بشر منهم يصطفيها ، بل رفضوها وزينتها رفضا ، وقاموا بالوظائف الدينية نفلا وفرضا ،

حتى أظهروا منه المعالم ، وأقاموا به المبانى والمراسم ، فأثابهم الحق تعالى على ذلك بالنصر المكين ، وبسط لهم فى البسيطة نواء الفتح والتمكين ، وهابتهم المال وجميع الاجناس ، وحفظوا من كيد الوسواس الخناس .

يحرم فرار المسلمين اذا بلغ عددهم 12000

وأما ثالثا فان الشرع المطاع ، حرم على المسلمين الفرار ، اذا كانوا نصف الكفار ، أو بلغ عددهم اثنى عشر الفا ، لزيادته تعالى فى قوتهم عناية بهم ولطفا ، واخرج احمد وابوداوود والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه وأقر ، والبيهقى فى السنن ، وأبن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس مرفوعا : « خير الصحابة اربعة ، وخير السرايا اربعمائة وخير الجيوش اربعة آلاف ، ولن تغلب » وفى رواية ولن تولى ، وفى اخرى ولا تنهزم اثنا عشر الفا من قلة ، زاد ابن عساكر : اذا صبروا وصدقوا ، قال العلماء رضى الله عنهم : يوخذ منه ان عدد المسلمين اذا بلغ اثنى عشر الفا يحرم الفرار ولو زاد العدو على مثليهم او امثالهم ، بل ولو بلغ عدد العدو ما عسى ان يبلغ وهذا هو ما عزاه ابن رشد لأكثر أهل العلم ، وقال القرطبى : هو مذهب جمهور العلماء ، وجعلوا هذا الحديث مخصصا لعموم الآية الشريفة ، وهى قوله تعالى : « فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » ، اعنى لعموم مفهومها ، فان منطوقها وجوب المصابرة للمثلين ، ومفهومها جواز الترك عند كون العدو اكثر من المثلين ، وهذا عام خصص بما ذكر ، والمسلمون والحمد لله فى كل قطر من اقطار الدنيا اكثر من هذا العدد الذى هو اثنا عشر الفا باضعاف متضاعفة ، وآلاف متآلفة ، بل تقدم لنا تبعا لبعض أهل الحرز أنهم يبلغون نحوا من ثلاثمائة مليون نفس تقريبا ، فكيف يتضعضع

هذا العدد بل عشر عشر عشره لعدو لعين ؟ أو يعطى فى دينه الدنية لكافر نجس مهين ؟ (1)

وما النصر الا من عند الله

واما رابعا فان الله تعالى اخبرنا فى غير ما آية من كتابه بان الغلبة باذنه ، أى ارادته ومشيئته ، وان النصر انما هو من عنده ، قال تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ، وقال : « فهزموهم باذن الله » ، وقال : « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة » ، أى قليلون ، وقال : « وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم » ، وقال : « ان ينصركم الله فلا غالب لكـــم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » ، واذا كان ذلك باذنه ومن عنده ، فيهبه لمن يشاء من عباده كما قال : « ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » ، وقال : « والله يؤيد بنصره من يشاء » ، وقد وعدنا ، بالنصر والظفر ان صبرنا ونصرنا دينه واتقيناه ، فقال تعالى : « وان الله مع المومنين » أى الكاملين فى ايمانهم ، بالنصر والتأييد والمعونة وقال : « والله مع الصابرين » ، وقال : « واعلموا ان الله مع المتقين » وقال : « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » وقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله امع المحسنين » ، وقال : « والعاقبة للمتقين » وقال : « والعاقبة للتقوى » ، وقال : « من يتق الله يجعل له مخرجا » ، وقال : «ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » ، وقال : « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » وقال : « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » وقال : « ان تنصروا الله (أى دينه) ينصركم ويثبت اقدامكم » وقال : « انا لننصر رسلنا والذين

---

(1) انهم اليوم بعد ثمانين عاما من التقدير السابق ، يبلغون مليار نسمة ، لكن حالة العرب من بينهم ، بصفة خاصة ، تدهورت بعد حصولهم علـــى الاستقلال ، بسبب تبعيتهم المطلقة للغرب ، ولحضارته المادية الملحدة ، وتركهم الجهاد لإعلاء كلمة الله .

آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » ، وقال : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون » ، وقال : « وكان حقا علينا نصر المومنين » وقال : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون (أى الغالبون) ان كنتم مومنين » ، واخرج ابو نعيم فى الحلية عن على مرفوعا : « من اتقى الله عاش قويا وسار فى بلاد عدوه آمنا » ، واخرج الحكيم الترمذى فى نوادره عن واثلة ابن الاسقع مرفوعا : « من اتقى الله اهاب الله منه كل شىء ، ومن لم يتق الله اهابه الله من كل شىء » ، وأخرج ابن النجار عن ابن عباس مرفوعا : « من اتقى الله وقاه كل شىء » ، واخرج ابن ابى الدنيا عن قتادة قال : مكتوب فى التوراة : ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت ، وأخرج ايضا عن عروة قال : كتبت عائشة الى معاوية : أما بعد فاتق الله ، فانك اذا اتقيت الله كفاك الناس ، وان اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا، واخرج ايضا عن ابى حازم قال : ترصدنى اربعة عشر عدوا ، اما اربعة منها فشيطان يضلنى ، ومومن يحسدنى ، وكافر يقاتلنى ومنافق يبغضنى ، واما العشرة منها فالجوع والعطش والحر والبرد والعرى والهرم والمرض والفقر والموت والنار ، ولا اطيقهن الا بسلاح تام ، ولا اجد لهن سلاحا افضل من التقوى ، واخرج الحاكم فى التاريخ ، والديلمى ، وابن عساكر ، عن انس مرفوعا : « ان الله يقول كل يوم : انا ربكم العزيز فمن اراد عز الدارين فليطع العزيز » .

الصحابة فتحوا الممالك شرقا وغربا رغم قلة عددهم

وانظر الى الصحابة رضوان الله عليهم فانهم ببركة طاعتهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وامتثالهم لأوامرهما ، واجتنابهم لنواهيهما ، فتحوا البلاد والاقاليم شرقا وغربا فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة الى جيوش سائر الاقاليم ، من

الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبش واصناف السودان والقبط وطوائف بنى آدم ، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله ، وظهر دينه على سائر الاديان ، وامتدت الممالك الاسلامية فى مشارق الارض ومغاربها فى اقل من ثلاثين سنة رضى الله عنهم ، ونفعنا بهم آمين .

وفى زاد المعاد لابن القيم ، فى فصل هديه صلى الله عليه وسلم فى الجهاد والغزوات قال : واخبر الله تعالى عباده انهم أن امتثلوا ما امرهم به لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم ، وانه ان سلطه عليهم فلتركهم بعض ما امروا به ، ولمعصيتهم له ، ثم لم يؤيسهم ولم يقنطهم ، بل امرهم ان يستقبلوا امرهم ويداوو اجراحهم ويعودوا الى مناهضة عدوهم فينصرهم عليهم ويظفرهم بهم ، فأخبرهم انه مع المتقين منهم ، ومع المحسنين ، ومع الصابرين ، ومع المومنين ، ه وبوب البخارى : باب عمل صالح قبل القتال ، ثم حكى عن ابى الدرداء قال : « انما تقاتلون باعمالكم » ، وهذا اخرجه عنه ابن المبارك فى كتاب الجهاد بهذا اللفظ ، واخرجه عنه الدينورى فى المجالسة بلفظ : « ايها الناس عمل صالح قبل الغزو فانما تقاتلون باعمالكم » ، واخرج الترمذى والبزار عن عبد الرحمن بن عوف قال : « عبانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ليلا » ، قال فى المدخل : والتعبية هى تسوية الصفوف وتقدمة العمل الصالح بين يدى القتال من الامام والناس من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ليرجى به الظفر والنصر ، قال الله : « ولينصرن الله من ينصره » ، ه وفى المدخل أيضا ، بعد ذكره لحديث « ابغونى فى ضعفائكم فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » ، ما نصه : ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم ابغونى فى ضعفائكم أى اطلبونى اى انه يكون معهم ، ويؤيد ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى : « انا عند المنكسرة قلوبهم من اجلى » ، فاذا كان الله معهم فهم منصورون

قال : ويريد بالضعفاء ، والله اعلم ، الذين لم يكن لهم ظهور فى الدنيا ، ولا هم طالبون لها ، وهم زاهدون فى دنياهم ، راغبون فى آخرتهم ، طائعون لله ، ناصرون لدينه ، فهم منصورون ، قال الله تعالى : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وقال : « والله مع الصابرين » ، أى بالنصر والمعونة ، اى مع الصابرين عن المشتهيات من المحرمات ، والصابرين على الطاعات وجهاد الكفار ، فالله ناصرهم ومعينهم .

من قواعد الحرب :

روى عن ابى بكر الصديق رضى الله عنه انه قال لخالد بن الوليد حين بعثه لقتال اهل الردة : احرص على الموت توهب لك الحياة ، ووجه ابو مسلم قوما الى الغزو فقال : ألزموا قلوبكم الصبر ، فانه سيف الظفر ، واذكروا كثرة الضغائن فانها تحض على الاقدام ، والزموا الطاعة ، فانها حصن المحارب ، ومن الحكمة : قوة النفس فى الحرب علامة الظفر ، ومنها : تقحم الحرب ينجح الغلب ، ومنها : الهزيمة تحل العزيمة ، ومنها : الحيل أبلغ من العمل ، ومنها : الرأى السديد أجدى من الأيد الشديد ، ومنها : شدة الصبر فاتحة النصر ه ، وقالت الحكماء : اذا اردت ان تكيد من يحسدك ، فازدد فضلا فى نفسك ، وقال الرازى فى فى تفسيره : كل من صبر على اداء اوامر الله تعالى ، واتقى كل ما نهى الله عنه ، كان فى حفظ الله ، فلا يضره كيد الكافرين ، ولا حيل المحتالين ، اذ الله انما خلق الخلق للعبودية ، (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) فمن وفى بعهدها فى ذلك فالله اكرم ان لا يفى بعهد الربوبية فى حفظه من الافات والمخالفات ، وفى قوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) اشارة الى انه يوصل اليه كل ما يسره ه ، ولبعضهم :

عدوك بالتقـــى والعلم فاقهـــر فانت بـــذا وذاك عليه تقـــوى
فما قـــرن الفتى شيئـــا بشىء كمثـــل العلـــم يقرنه بتقـــوى

وفى مفيد النعم للتاج السبكى : طلب الملك المظفر سيف الدين نظر شيخ الاسلام وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، بحضرة الملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون وغيرهما من الامراء ، وحادثه فى الخروج الى لقاء العدو من التتار ، لما دهموا البلاد ، ووصلوا الى عين جالوت ، فقال له : أخرج وانا اضمن لك عـــلى الله النصر ، فقال : ان المال فى خزائنى قليل ، واريد الاقتراض من التجار ، فقال : اذا احضرت أنت وجميع العسكر كل ما فى بيوتكم وعلى نسائكم من الحلى الحرام ، وضربته على السكة ، وانفقته على الجيش ، وقصر عن القيام بكلفتكم ، انا أسأل لكم الله تعالى فى اظهار كنز من الكنوز ، يكفيكم ويفضل عنكم ، وأما انكـــم تاخذون اموال المسلمين وتخرجون الـــى لقاء العدو ، وعليكـــم المحرمات من الاطرزة المزركشة والمناطق المحرمة ، وتطلبون من الله تعالى النصرة ، فهذا لا سبيل اليه ، فوافقوه وأخرجوا مـــا عندهم ، ففرقه وكفى ، وخرجوا وانتصروا هـ ، فعلم ان الناس لو اتقوا ربهم عز وجل باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وكفوا عن الظلم ، وردوا المظالم الـــى اهلها ، وأحيوا السنن وأخمدوا نيران البدع والفتن ، وقاتلوا كما أمروا ، كفاهم الله كل مئونة ، وأمدهم بجنود لا يرونها ، كما أمد اصحاب نبيه سيدنا محمـــد صلى الله عليه وسلم بذلك ، ووقاهـــم شر عدوهم ، وهذا مـــن الامور المشاهدة .

أسباب هزائمنا ، وموقفنا الاستسلامى بعدها

فانا والله ، ما سمعنا ولا رأينا ، من قام بالله فى امر كما امره الله، وخذله الله، ولكنا أحدثنا فى ديننا ما احدثنا، وغيرنا من معالم

الدين والسنة ما غيرنا، ثم خرجنا المرة بعد المرة الى الجهاد، وأمرنا أمر الجاهلية الاولى بل اعظم فى الفساد ، نأكل الحشيش ونشرب الدخان والخمور ، ونتجاهر بالفواحش من الزنى وغيره من الفجور ، ونتهاون بالصلوات وغيرها مما هو من الدين ، ولا نعتنى بشىء من امور المجاهدين ، لابسين ثياب الزينة والفخار ، متدينين بأكل الاموال بالباطل والاستحقار ، جاعلين أمر هذه الشعيرة العظيمة بيد المترفين والجهلة والاشرار ، ومن لا نهمة لهم الا فى الاكل والنوم والنكاح واقامة الرياسة والجمع والاذخار ، الى غير ذلك مما يقصر عنه وصف الواصف ، ويقص عليك شيئا من تفاصيله المطلع العارف ، فلما ان عوملنا بشؤم أفعالنا ، وولينا بسبب ذلك منهزمين على اعقابنا ، قلنا ما بقى فى هذه الازمنة جهاد ، وما بقى فيها الا المصانعة أو الدخول تحت اهل العناد ، فصانعناهم ، وهاديناهم ، وجاريناهم ، فكأنما بذلك زدناهم وعلينا جرأناهم .

العدو لا يندفع بالمداراة والمصانعة

كيف وقد تقرر ان العدو لا يندفع بالمداراة ، ولا يقنع بالمجاراة والمحاباة ، فحاولوا تبديل ملتنا ، ولم يرضوا بسوى تملك اراضينا ومهجتنا ، أفنرضى معاشر الاسلام بهذه الذلة العظيمة ، ولا نرجع الى الطريقة المستقيمة ؟ وهى ترك ما نحن فيه من التنعمات والترفهات والمخالفات ، وما نحن مقيمون عليه من تشييد الابنية الرفيعة ، والمساكن والغرف والمتنزهات ، والرجوع الى التقوى والاهبة والاستعداد ، واعلاء كلمة الله بالجهاد ، ووالله ، ثم والله ، انه لباق الى يوم الدين ، ولكننا خرجنا فيه وفى سائر احوالنا عن سبيل المهتدين ، فعاد شؤم ذلك علينا ، ووجهت وجوه أعدائنا الينا ، قال تعالى : « ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » ، أى بشؤم ذنوبهم ،

وتركهم المركز الذى رسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اوحى الله تبارك وتعالى الى بعض انبيائه عليهم الصلاة والسلام : « اذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » ، وفى تفسير روح البيان ، لدى قوله تعالى : « وما النصر الا من عند الله » ما نصه : « وكل عصر على التنزل بالنسبة الى ما قبله ، ولهذا لا يظهر النصر فى بعض السرايا بل يقال : يا أيها الكفرة اقتلوا الفجرة » .

تأخر النصر سببه انحراف المسلمين

وفى حسن المحاضرة للامام السيوطى رحمه الله : قال ابن عبد الحكم : أنبأنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن ابى حبيب قال : أقام عمرو بن العاصى محاصرا الاسكندرية اشهرا ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ما أبطأ بفتحها الا لما احدثوا ، واخرج ابن عبد الحكم عن زيد بن اسلم قال : لما ابطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب الى عمرو بن العاصى : اما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح امصاركم تقاتلونهم منذ منذ سنتين ، وما ذاك الا لما احدثتم ، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وان الله تعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم ، انظر تتمته ، وفى المدخل ما نصه : وقد ورد ان عمر بن الخطاب جاءه كتاب من بعض جيوشه بالشام وهم يخبرونه فيه بانهم قد افتتحوا البلدة التى نزلوا بها ، وكانت الحرب بينهم وبين اهلها من أول النهار الى الزوال ، فبكى حتى بلت دموعه لحيته ، فقيل له : اتبكى والنصر لنا ؟ فقال : والله ما الكفر يقف امام الاسلام من غدوة الى الزوال ، الا من أمر أحدثتموه انتم أو انا هـ ، وروى الطبرانى فى الاوسط باسناد جيد ، عن ابى ذر أنه قال لحبيب بن مسلمة : هل يثبت لكم العدو حلب شاة (1) ، قال نعم وثلاث

---

(1) أى مقدار حلب شاة .

شياه غزر ، فقال ابوذر : غللتم (1) ورب الكعبة ، سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ان لم تغل امتى لم يقم لهم عدو ابدا » ، ذكره المنذرى فى الترغيب .

المخاطب بالتنفيذ خطابا أوليا اصحاب الامر

واعلم ان المخاطب بجميع ما تقدم خطابا أوليا فى كل قطر ، هم الولاة واصحاب الامر ، لما جعل الله بايديهم من الحل والربط ، وسماع الكلمة ، ونفوذ الامر ، فعليهم ان يقوموا بهذه الوظيفة وغيرها من وظائف الدين اتم قيام ، ويلزموا الناس بالقيام بها ، فان لم يفعلوا كانوا آثمين غاشين لله تعالى ولرعاياهم ، ولحقهم جميع الوعيد الوارد فى ذلك ، وقد تقدم قول ابن طلحة : يلـزم الامام حمل الناس على الجهاد ، فان اتكل على ان يتكلف الناس بأنفسهم ، ضاع الجهاد ، وتهدم الاسلام ، اذ لا يتم الجهاد الا بحمل الامام الناس عليه ، وفى التوضيح ، قال فى الكافى : وفرض على الامام اغزاء طائفة الى العدو فى كل سنة مرة ، يخرج معهم بنفسه ، أو يخرج من ينوبه ، يدعوهم الى الاسلام ويرعبهم ، ويكـف اذايتهـم ، ويظهر دين الله عليهـم ، ويقاتلهم حتـى يدخلوا فى الاسلام ، أو يعطوا الجزية هـ ، وممن نص على ان ذلك فرض على الامام ، القرطبـى فى تفسيره ، وغيـر واحد ، وفى مرقاة المفاتيح لعلى القارى ما نصه : وفى شرح العقائد الاجماع على ان نصب الامام واجب ، لان كثيرا من الواجبات الشرعيـة يتوقف عليه ، كتنفيذ أحكام المسلمين واقامة حدودهم ، وسـد ثغورهم ، وتجهيـز جيوشهم ، واخذ صدقاتهم ، وقهـر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطريق ، واقامة الجمعة والاعياد ، وتزويـج الصغير والصغيرة اللذين لا أولياء لهما ، وقسمة الغنائم ، ونحو ذلك من الامور التى لا يتولاها آحاد الامة هـ .

---

(1) انحرفتم عن الصراط المستقيم .

لا تجوز مهادنة العدو ومصالحته اجماعا

قال علماؤنا وغيرهم : ولا تجوز للامام والناس ان يهادنوا العدو ويصالحوه من غير ضرورة ولا مصلحة اجماعا ، لانه ترك للجهاد صورة ومعنى ، فان فعلوا كانوا غاشين لانفسهم ولله تعالى ، آثمين عاصين ، فان صالحوه لضرورة شرعية من استعداد ، او اقامة جيش ، أو طلب خديعة أو حيلة ، أو ما اشبه ذلك من المصالح التى يعود نفعها على المسلمين ، جاز ذلك ، قال ابن عبد البر عن سحنون : ولا يبعدوا فى المدة ، ونقل ابن شاس عن ابى عمران انه استحب ان لا تكون المدة أكثر من اربعة اشهر الا مع العجز ، فان طولوها لغير ضرورة ولا مصلحة لم يجز أيضا ، وكانوا غاشين لانفسهم ولله تعالى ، آثمين عاصين ، وكيف يطول فيها سكونا الى الدعة والراحة ، واشتغالا بما لا يجدى نفعا بل ربما ضر من تأمل الوعيد السابق فى ترك الجهاد والاستعداد .

وما وقع لكثير من أهل الاقطار ، من قبل عدوهم حتى صار يقطع لهم البحار ، ويتبعهم فى الفيافى والقفار ، والمسلمون امامه كاولاد الجراد هذا يتقدم امام الاخر سالكين نهج الفرار ، الا من طول المهادنة فى تلك الاوطان ، وعدم ممارسة القتال وشدة الامتحان ، فسكنوا الى الراحة ، واشتغلوا بالتكسب وامور الزراعة ، وصار عدوهم يتحيل عليهم بادنى التحيلات ، ويظهر لهم المحبة والصداقة والمصافاة ، الى ان انتهز فيهم فرصته فاتى عليهم ، ووجه وجه النكال اليهم ، فندموا حيث لا ينفع الندم ، وما بالعهد من قدم ، قال ابن عرفة : كره علماؤنا المهادنة على ان يعطينا اهل الحرب مالا كل عام ، ولقد طلب الطاغية ذلك من عبد الله بن هارون على ان يعطوه مائة الف دينار كل عام ، فشاور الفقهاء فى ذلك فقالوا له : الثغور اليوم عامرة فيها اهل البصائر

بالقتال : وأكثرهم من البادين ، فان انقطع عنهم الجهاد تفرقوا ، وخلت الثغور للعدو ، والذى يصيبه اهل الثغور منهم اكثر من مائة الف ، فسر بذلك ورجع الى رأيهم ه .

فانظر رحمك الله كيف احتال العدو وسمح باعطاء المال ، لاجل ان يتفرق من الثغور اهل البصائر بالقتال ، ويسكن الناس الى الراحة والكسل ، فلا يقدرون على مقاومته بعد ذلك ، بل يحصل لهم الملل ، لعدم ممارستهم للقتال واستعدادهم له ، وسكونهم الى ما لا يعنى من الطرب واللهو والبطالة ، وانظر ايضا كراهية العلماء لتلك المهادنة مع اخذ المال من العدو ، فكيف بها مع عدم الاخذ ، أو مع دفع المال له بدون ضرورة ولا مصلحة شرعية ، وهذا كله فى احكام المهادنة ان كان الجهاد فرض كفاية ، بان كان العدو مطلوبا فى بلاده غير طالب .

وأما ان كان الجهاد فرض عين بان كان العدو طالبا للمسلمين غير مطلوب لهم ، كما هو الحال اليوم (1) ، وكانوا نصفه عددا أو اثنى عشر الفا فأكثر ، فذكر فى المعيار فى كتاب الجهاد ، من جواب لبعض فقهاء تلمسان ، انه لا يجوز الصلح والهدنة بحال ، وان وقع وجب نقضه ، قال : لاسيما ان طالت مدته ، فقد عادت على العدو أهلكه الله مصلحته ، وعلى المسلمين مفسدته ، وان تخيلت فيه مصلحة ، فهى للعدو اعظم من وجوه مكملة ، فانه يتحصن فى تلك المدة ، ويكثر من آلات الحرب والعدة ، فيتعذر على المسلمين الاستنقاذ ، ويصعب عليهم تحصيل المراد ، بعد تيسره لو ساعده التوفيق ، ولكن المولى جل جلاله المسؤول فى هدايته الى

---

(1) وكما هو الحال اليوم أيضا ، فى عصر الطغيان الاسرائيلى والروسى والامريكى وحلفائهم ، المتحكمين فى مصائر المستضعفين من الشعوب الاسلامية فى فلسطين ولبنان وافغانستان والفلبين والهند واريتريا وسبتة ومليلية وغيرها .

سواء الطريق ، فما وقع من الصلح فهو مصلحة العدو ، وهـو مفسدة على الاسلام ، فلا يكون له فى نفس الامر انبرام ، فالصلح المذكور يجب نقضه ، لانه بمقتضى الشرع غير منبرم ، فحكمه غير لازم ، عند كل من حقق أصول الشريعة بنظر عالم ، وفـى التلقين : لا يجوز ترك الجهاد لهدنة الا من عذر ه ، وراجعه .

لا عهد ولا ميثاق للنصارى واليهود :

قال بعض : وكيف يصح الصلح والهدنة من العدو الطالـب للمسلمين ، النازل بأرضهم ، والله سبحانه يقول : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » الآية ، ؟ فهو استفهام بمعنى الانكار والاستبعاد لان يكون لهـم عهد ولا ينكثون مع وغـرة صدورهم ، يعنى محال ان يثبت لهؤلاء عهد ، فلا تطمعوا فى ذلك ، ولا تحدثوا به انفسكم ، ثم قال تعالـى : « كيف وان يظهـروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا (اى حلفا) ولا ذمة » (أى عهـدا) ، قاله غير واحد من المفسرين .

والصلح الوارد عنه صلى عليه وسلم ، انما هو منه اليهم ، لانهم مطلوبون وقتئذ ، لا منهم اليـه ، بحيث ظهر عليهم عليـه الصلاة والسلام ، وطالبهم فى أرضهم ، جاز صالحه لمصلحة ، ولا شك ان العدو الكافر النازل بأرض الاسلام ، والذى أخذ لهـم الثغور والامصار ، قد ظهر عليهم ، فكيف يرتقب عهده ، وتسكن النفس اليه ، ! وكيف يكون للمغلوب على غالبه الكافر عهد وميثاق ؟ ولهذا قال الحافظ الامام أبو العباس الونشريسى رحمه الله فى معياره ، اثناء جواب له ما نصه : كيف يوثق بهـم عند قوتهـم وظهورهم ، وكثرة عدتهم ، ووفور عددهم ، اعتمادا على وفائهم بعهودهم فى شريعتهم ، ونحن لا نقبل شهادتهم بالاضافة اليهم ، فضلا عن قبولها بالاضافة الينا ، فكيف يعتمد على زعمهم بالوفاء ه الغرض منه ، ومعناه ان العهد اعلا مراتبه ان يكون شهادة ، ونحن

لا نقبل شهادة بعضهم على بعض ، فكيف نقبلها على المسلمين ، ونعتمد على زعمهم ووعدهم بالوفاء ؟ ، فهذا خرق للاجماع ، والكتاب والسنة بلا نزاع ، قال تعالى : مخبرا عن دوام معاداة الكفار للمومنين ، وانهم لا ينفكون عنها ، بقوله : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » الآية هـ ، كلام البعض المذكور بلفظه .

وقد تقدم لنا انه وقعت عهود كثيرة من الطاغية لعنه الله ، لاهل الاندلس ، فلما تم له الامر لم يف لهم بشيء منها ، ونقضها عروة عروة ، ومكر بهم غاية المكر ، وحملهم على التنصر كرها ، فهو اهلكه الله دائما ، انما يطلب العهود مع كونه غالبا ، لفرصة ينتهزها ، أو حيلة يستعملها ، فيكون الصلح عائدا على المسلمين بالمفسدة كما مر ، وقد قال تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون ، والله معكم ، ولن يتركم اعمالكم » (1) .

دور المنافقين فى استيلاء الكفرة على اراضى المسلمين :

قلت : واذا كان مطلق الصلح لا يجوز عند كون الجهاد فرض عين ، فكيف به المدة الطويلة ؟ فكيف بمصالحتهم على الدوام والاستمرار ، حتى يحصل للناس الياس من الجهاد ؟ ، كما هو حال هذه الاعصار (2) ، فانه آل الامر فيها ، بل وكذا فيما قبلها من الازمان ، الى اخذ الرشوة من عباد الصليب والاوثان ، ليترك قتالهم فى كل آن ، وزاد الامر

---

(1) لن ينقصكم أجورها .

(2) لا نحتاج للقول بأنه يتحدث ايضا ، وبصفة أوضح ، عن عصرنا هذا ، وموقف 22 دولة عربية ، بجامعتها العربية ، من الاندلس الثانية « فلسطين » : فى عصر « القومية العربية » و « الاشتراكية العربية » الذى أفرز « الهزائم العربية » و « التمزق العربى » و « التبعية العربية للمذاهب اللا اسلامية » .

شدة فى هذا الاوان ، فاخــذت منهم فى غير ما قطر لتمهد لهـم البلاد ، وتكون يدهم العليا على سائر العباد ، فأربى هذا الآخذ مع زعمه انه يتدين بدين الاسلام على كل منافق ، فلاشـك ان عذابه فى الآخرة يتضاعف ويسلك به فى جهنم اصعب المضايق ، اذ كان سببا لهلاك الاسلام والمسلمين ، واستيلاء الكفرة الظالمين المجرمين .

قال فى روح البيان لـدى قوله تعالى ومنهم مـن عاهد الله (الآية) ما نصه : قال عمر بن عبد العزيز : لو جاءت كل امـة بمنافقيها ، وجئنا بالحجاج ، فضلناهم ، يقول الفقير : سامحه الله القدير ، هذا الكلام بالنسبة الـى ذاك الوقت ولو انه رأى وزراء آل عثمان ، ووكلاءهم فى هذا الزمان ، لوجدهم ارجح من من كل منافق ، لأنه بلغ نفاقهم الى حيث أخذوا الرشوة مـن من الكفار ، ليسامحوهم فى مقاتلتهم ومحاربتهم ، خذلهم الله ودمرهم ه منه بلفظه ، ولو انه رأى ما فعله بعض قواد المسلمين الآن فى كثير من الاقطار ، من اخذ الرشوة من اجناس الكفار ، ليكونوا من اعوانهم، ويوصلوهم الى تملك أراضى اخوانهم، لضاق به النطاق ، وعلم ان نفاق هؤلاء اعظم نفاق ، على الشمــول والاطلاق ، وقد اخرج ابن ابى الدنيا فى صفة النار عن ابـى الاحوص قال : قال ابن مسعود : اى أهل النار اشد عذابا ؟ فقال رجل : المنافقون ، فقال له ابن مسعود : صدقت ، فهل تدرى كيف يعذبون ؟ قال لا ، قال : يجعلون فى توابيت من حديد تصمد عليهم ، ثم يجعلون فى الدرك الاسفل فى تنانير أضيق من زج ، يقال لها جب الحزن ، تطبق على أقوام باعمالهم آخر الابد ، وفى الآيـة الشريفة : « ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا ، الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله ، وأخلصـوا دينهم لله ، فاولئك مع المومنين » ، وفقنا الله تعالى واياهم للتوبة النصوح بمنه وكرمه آمين .

ثم ما أشرنا اليه من ان الجهاد اليوم (1) فرض على الاعيان ، هو ما تدل له نصوص العلماء ، وأقاويل المحدثين والفقهاء ، لأنهم قالوا ، حسب ما تقدم عنهم ، اذا نزل العدو بساحة المسلمين ، صار فرض الجهاد عينا عليهم اجمعين ، والآن قد نزل العدو فى سائر الاقاليم بساحات ، وهتك فى كل النواحى استارا وحرمات ، واخذ معاقل وحصونا ، وسبى قبائل وبطونا ، واستعبد كثيرا من المسلمين ، واسترق طوائق من المومنين ، فلاشك انه متعين على كل الناس ، وواجب على جميع الانواع منهم والاجناس ؛ فهم آثمون بتركه ، مواخذون على عدم القيام به ، واشدهم مواخذة بذلك الولاة ، ومن له اعظم القدرة عليه من الامراء والوزراء والقضاة ، وممن افتى بانه فرض عين فى هذا الزمان ، الشيخ سيدى شقرون بن هبة احد حفاظ المتاخرين من العلماء التلمسانيين راجع فلك السعادة ، الدائر بفضل الجهاد والشهادة ، للشريف الفقيه العلامة سيدى محمد المدعو عبد الهادى بن عبد الله بن على بن طاهر الحسنى .

واذا كان فرض عين ، وصولحوا على تركه ، وقلنا ان هذا الصلح لم يصادف محلا ، فهل يجوز المسلمين الاقدام عليه بغير اذن من الامام ؟ ، ذكر فى المعيار ، من الجواب المشار اليه قريبا لبعض فقهاء تلمسان ، ما يفيد الجواز ، يعنى عند ظن القدرة عليهم ، والأمن من مؤاخذة الامراء وصولتهم ، ثم قال ما نصه : ودليل ذلك أيضا ان الصلح المذكور فيه ترك الجهاد المتعين ، وترك الجهاد المتعين ممتنع ، فالصلح المذكور ممتنع ، وكل ممتنع غير لازم ، فالجهاد فى الموضع المذكور لم يزل متعينا من الوخذة (الاحتلال) الى الآن ، قال : وعن ابن القاسم : ان طمع قوم فى

---

(1) يوم المؤلف 1326 ، ويومنا نحن الآن 1408 هـ (1908 — 1988 م) بعد مرور ثمانين عاما هل توقف احتلال اراضى المسلمين ؟ وهل تغير حكم الجهاد الاسلامى لتحريرها من حكم الطواغيت المفسدين ؟

فرصة فى عدو قربهم ، وخشوا ان اعلموا الامام منعهم ، فواسع خروجهم ، وأحب الى ان يستأذنوه ، وقال ابن حبيب : سمعت اهل العلم يقولون : ان نهى الامام عن القتال لمصلحة حرمت مخالفته الا ان يدهمهم العدو ، وقال ابن رشد : طاعة الامام لازمة وان كان غير عدل ، ما لم يأمر بمعصية ، ومن المعصية النهى عن الجهاد المتعين على ما تقدم ، والله اعلم ه منه بلفظه ويفهم من قوله المتعين ، ان الجهاد اذا لم يتعين بان كان فرض كفاية ، حيث يكون المسلمون طالبين للعدو ، فانه لا يجوز بغير اذن من الامام ، وفى أول كتاب الجهاد من تكميل التقييد لابن غازى نقلا عن المازرى ما نصه : الخروج الى القتال من دون اذن الامام ، بل بحسب ما يسنح لرأى بعض الناس ، قد يجنى على المسلمين ، وقد يحرك عليهم من عدوهم ساكنا ، وشرا كامنا ، يتسع الخرق فيه عليهم اتساعا لا يقدرون على اصلاحه ، وقد قال بعض اصحابنا فى سرية خرجت بغير اذن الامام وهم من القلة بحيث يكونون راكبين للخطر ، وواقعين فى الغرر ، ان الامام يمنعهم مما غنموه ادبالهم ، فعاقبهم فى المال لكونهم مخطئين فى تركهم استيذان الامام ، ومن استعجل ، شيئا قبل وقته عوقب بالحرمان، وفى الشامل ما نصه : ولا يجوز خروج جيش دون اذن امام وتوليته عليهم من يحفظهم ، الا ان يجدوا فرصة من عدو ، وخافوا فواته لبعد الامام ، أو خوف منعه ، وحرم على سرية بغير اذنه ، ويمنعهم الغنيمة ادبالهم ، الا ان يكونوا جماعة لا يخشون عدوا فلا يمنعهم الغنيمة ، ولا ينفل الا من اطاعه ه ، وفى التوضيح ما نصه : ابن المواز : ولا يجوز خروج جيش الا باذن الامام وقال مالك : لمن وجد فرصة من عدو الجهاد بغير اذن الامام ، ولم يجز ذلك لسرية ، ويحرمهم ما غنموا ، الا ان تكون جماعة لا يخاف عليها فلا يحرمهم ، يريد وقد اخطأوا ه ، وقال الشيخ زروق : كما فى الحطاب ، التوجه للجهاد بغير اذن الامام سلم الفتنة ، وقل

ما اشتغل به أحد فنجح هـ ، وهذا فى الجهاد الذى هو فرض كفاية كما لا يخفى ، والله اعلـــم .

وجوب استشارة اهل العلم والدين فى الجهاد وغيره :

هذا ومن الامور المتعينة فى كل أمر يعرض وخصوصا الجهاد ، الرجوع الى العلماء والصالحين واهل الخير ، ومن لا تميل بــه رغبته أو رهبته عــن الصواب والسداد ، استشارة واستهـداء واسترشادا ، واستنصارا بهم وبدعوتهم واخلاصهم واسترغادا ، وقـــد قـــال الله تعالى لأعقـــل خلقه واهداهـــم وارشدهـــم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : « وشاورهم فى الامر » ، وفى الترمذى وغيره عن أبى هريرة قال : ما رأيت احدا اكثر مشورة لاصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى كشف الغمة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تعارض عنده امران ، خطب الناس وقال : « اشيروا على يا معشر المسلمين » ، واخرج البيهقى فى الشعب وابن عدى بسند حسن ، عن ابن عباس قال : « لمـــا نزلـــت وشاورهـــم فى الامـــــر قـــال رســـول اللـــه صلـــى اللـــــه عليـــه وسلـــــم : امـــــا ان اللـــه ورسولـــه لغنيان عنها ، ولكن جعلها الله رحمة لامتى ، فمن استشار منهم لم يعدم رشدا ، ومن تركها لم يعدم غيا » ، واخرج الخطيب فى رواة مالك عن ابى هريرة رفعـــه : « استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا » ، واخرج ابن ابى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم عن الحسن قال : ما شاور قوم قط الا هدوا لأرشد امورهم ، وقال ابن عطية : الشورى من قواعد الدين ، وعزائم الاحكـــام ، ومن لا يستشير اهل العلم والدين فعزلـــه واجب ، وهذا مما لا خلاف فيه هـ ، وقال ابن رشد : لا ينبغى لاحد ان يستشير فى شىء من اموره ، رجاء ان يوافق فى ذلك الامر ، الا من يخاف الله عز وجل من اهل الثقة والامانة ، مخافـــة ان

يغشه ولا ينصحه ، وينبغى لــه ان يتوخى فى ذلك اهــل الفضل والدين تبركا بهـم ، ورجاء ان يوفقوا فيما يشيرون به عليــه لفضلهم ﻫ ، وفى العهود المحمديــة : سمعت اخى افضل الديــن يقول : لا تستشر محب الدنيا فى شىء من امور الآخرة ، فــان تدبيره ناقص لحجابه بالدنيا عن الآخرة ، ولا تستشر أيضا محب نعيم الآخرة من الزهاد والعباد فى شىء مــن الاحوال المتعلقــة بالأدب مع الله تعالى ، فانه محجوب بذلك عن الحق ، وعن حضرته الخاصة ، واستشر بعض العارفين بالله فى امور الدنيا والآخرة ، فانهم قطعوا المرتبتين ، ووصلوا الى حضرة الحق وعرفوا آدابها ، ودرجات أهلها فى الأدب ، وفى المثل السائر : استعينوا على كــل حرفة بصالح من اهلها ﻫ .

وأخرج ابن ابى شيبة والطبرانى فى الكبير عن أمية بن خالد بن عبد الله بن اسيد الاموى مرسلا : « انه عليه الصلاة والسلام كان يستفتــح ويستنصر بصعاليــك المسلمين ، اى بدعاء فقرائهــم وضعفائهم ، وترجم البخارى فى الجهاد : باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ، ثم أورد داخل الترجمة حديث مصعب بن سعد بن ابى وقاص قال : رأى سعد ان له فضلا على من دونه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم » ، وترجــم أبو داوود : باب الانتصار برذل الخيــل والضعفة ، ثم اخرج عن أبى الدرداء مرفوعــا : « ابغونى (أى اطلبوا لى) الضعفاء ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكــم » ، وترجم الترمذى : باب ما جاء فى الاستفتاح بصعاليك المسلمين ، ثم أورد حديث أبى الدرداء المذكور ، وترجم النسائى بقوله : الانتصار بالضعيف ، ثم أورد حديث مصعب بن سعد المتقدم ، بلفظ عن مصعب بن سعد عن ابيه ، انه ظن ان له فضلا على من دونه من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : فقال نبى الله صلى عليه وسلم : « انما ينصر الله هذه الامة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم

واخلاصهم » ، وأورد أيضا حديث ابى الدرداء بلفظ : « ابغونى الضعيف ، فانكم انما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » ، وفى المدخل : الاصل الذى يعول عليه فى جهاد العدو ، ويعتقد النصر من جهته ، هو التعلق بجناب أولياء الله تعالى ، والرجوع اليهم ، والصدور عن رأيهم ، الا ترى الى ما حكى عن عبد الملك بن مروان ، لما ان خرج لبعض غزواته ، قال : انظروا الى محمد بن الحنفية ، فذهبوا اليه ثم رجعوا فقالوا : وجدناه فى المسجد يصلى ، فقال اذهبوا فقد نصرنا ، سبابته فى القبلة عندى خير من كذا وكذا ألف فارس ، فمضوا لما كانوا بسبيله ، فنصروا وغنموا ، وقد تقدم قوله عليه السلام « ابغونى فى ضعفائكم » ه ، وفق الله المسلمين ، وارشدهم الى القيام بهذه الشعيرة التى هى اساس الدنيا والدين ، بمنه وكرمه ، وجوده وحرمه آمين .

المبحث الرابع

اسناد أمور الدين الى غير أهلها

ومنها وهو المبحث الرابع اسناد أمور الدين من جهاد وغيره الى غير أهلها ، وتفويضها الى من لا خبرة له بفرعها واصلها ، ولا عنده علم ولا رأى ولا سياسة ولا تدبير ، ولا معرفة بالجهات التى بها يتيسر العسير ، أو لا شجاعة فيه ولا قـوة ولا عزم ، ولا نهضة ولا اقدام ولا حزم ، أو لا دين له ولا مروءة ولا حياء ، ولا له عن محارم الله عز وجل انكفاف ولا ارعواء ، أو لا اسلام له بالكلية ، فى ظاهر الامر أو باطن القضية ، وهذا ايضا من اكبر انواع الفساد ، وأعظم أسباب المهاوى والتلف والنكاد ، لان مثل هذا اما جاهل لا يدرى ما يصنع ، ولا ما يضع ولا ما يرفع ، فيخبط فى القضايا خبـط عشواء ، وينقلب فيهـا بما يجعـل العيـون الحديدة عمياء ، واما ضعيف العزم والقوى ، لا يقدر على مناهضة الحروب ونحوها ولا يقوى ، فتعـود عليه الكرات ، ويرى مـن عدوه جميـع المضرات ، وامـا قليل الدين ، يزيغ به هواه عـن طريق المهتدين ، فلا يبالى ببيع دينـه بالرشا ، ويوقع غـيره فى المهالك أبى أو شا ، واما منافق أو كافر ، خـادع ماكر ، يظهر النصيحـة والوداد ، وهو يجـر الى الكفر والعناد ، ويسعـى بجوارحه كلها فى ظهور العدا ، واذاقة الاسلام واهله كؤوس الردى ، كما شوهد فى كثير ، ومشاهدته تغنى عن التذكير .

وقد سرى هذا الداء فى جميع الاقطار ، وعم شومه النواحى كلها والامصار ، وصارت المناصب الشرعية كلها بالتوارث والتجالد والحميـة ، لا بالاستحقاق والاهلية ، فضاع الديـن بيننا بـل

اضمحل بالكلية ، وعم الجهل والفساد فى جميع البرية ، وظهر من البدع المحرمة ، والنبذ للشريعة المعظمة ، ومن امارات الساعة ما قد ظهر ، حسبما اخبر بذلك سيد البشر ، صلى الله عليه وسلم ، وكرم ومجد وعظم ، اخرج البخارى فى العلم وفى الرقاق ، وهو مما انفرد به عن بقية الكتب الستة ، واللفظ له فى كتاب العلم ، عن ابى هريرة قال : « بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم ، جاءه اعرابى فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول صلى الله عليه وسلم يحدث ، فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال : وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى اذا قضى حديثه قال : « أين اراه السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله ، قال : فاذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة ، قال : كيف اضاعتها ؟ قال : اذا وسد الامر الى غير أهلهفانتظر الساعة » ، وقوله وسد معناه أسند وجعل وفوض ، وقوله الامر أى المتعلق بالدين ، من امارة وقضاء وافتاء وتدريس وخطابة وامامة وجهاد وغير ذلك ، وقوله الى غير اهله ، أى الى من لم توجد فيه شرائط الاستحقاق ، كالمرأة والصبى والجاهل والخائن والغاش والبخيل والجبان والفاسق والمنافق والكافر ونحوهم .

وفى عمدة القارى ، قال الكرمانى : اسند الامر فوضت المناصب الى غير مستحقها ، كتفويض القضاء الى غير العالم بالاحكام ، كما هو فى زماننا ، قلت : اى قال العينى : يا ليت ان يتولى الجاهل بلا رشوة ، لانه يحتمل ان يكون دينا يستفتى فيما يجهله ، فالمصيبة العظمى ان يتولى الجاهل بالرشوة ، فلعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشى والمرتشى والرائش ، حيث قال : لعن الله الراشى الخ (الحديث) ، رواه عبد الله بن عمرو بن العاصى ، ولا شك ان من لعنه الله لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعظم المصائب ان الديار المصرية التى هى كرسى الاسلام ، لا يتولى فيها القضاة والحكام وسائر اصحاب

المناصب الا بالرشى والبراطيل (1) ، ولا يوجد هذا فى بلاد الروم ولا فى بلاد العجم هـ ، وفى فتح البارى قال ابن بطال : معنى اسند الامر الى غير اهله ان الايمة قد ائتمنهم الله على عباده ، وفرض عليهم النصيحة لهم ، فينبغى لهم تولية اهل الدين ، فاذا قلدوا غير اهل الدين ، فقد ضيعوا الامانة التى قلدهم الله تعالى اياها هـ ، وقوله فانتظر الساعة ، أى الساعة الكبرى وهى القيامة ، فان ذلك من اشراطها ، ودليل من ادلة دنوها واقترابها ، وانما دل على ذلك لافضائه الى اختلال الامر ، وعدم تمام النظام ، ووهن امور الدين ، وضعف احكام الاسلام ، بل ذهابها واضمحلالها وابدالها بأحكام جاهلية . وقال الطيبى : لان تغير الولاة وفسادهم، مستلزم لتغير الرعية ، وقد قيل : الناس على دين ملوكهم هـ .

اسناد المناصب لغير مستحقيها يئول للفساد والانحلال :

قلت : وفى الحديث أيضا اشعار بان ذلك من ادلة قيام الساعة الصغرى ، وهى ساعة ذلك الامر الخاص ، الذى وسد الى غير مستحقه ، بان يختل نظامه ، ويتبدل حاله ، وينعكس فيه القصد ، فان كان علما انقلب جهلا ، أو طاعة انقلبت معصية ، أو عبادة يطلب تصحيحها ، حكم ببطلانها ، أو طريقة يقصد الوصول الى الله منها ، صارت قاطعة عنه ، أو جهادا يطلب به اعزاز الدين والاسلام ، انعكس فيه الحال ، وصارت العزة ذلة ، وهكذا فى كل شىء ، وكل امر ، متى رأيناه قد تولاه من ليس بأهل ، علمنا من ذلك انه يئول الى الفساد والانحلال والاضمحلال ، وانه لا تكون منه كائنة ، ولا يرجى منه خير أصلا، وهذا امر مشاهد لكل احد، فى كل عصر وكل بلد، (2) فعلى من ولاه الله امور المسلمين ان ينصح لله ولرسوله ولنفسه

---

(1) جمع برطيل وهو الرشوة من برطله فتبرطل ، اعطاه البرطيل فارتشى

(2) من غريب الصدف وانا أراجع هذه الظاهرة السياسية التاريخية ، ان =

وللمومنين ، فلا يصحب ، أو يرافق ، أو يجالس ، أو يستشير ،

- اجد الكاتب المصرى الكبير مصطفى أمين يحللها بأسلوبه البديع ، كناقد اجتماعى ، فى فكرته اليومية بجريدة (الشرق الاوسط 2 — 5 — 1988) الشيء الذى يؤكد ما جاء فى تحليل المؤلف ، وما نقله عن عمدة القارى لشرح صحيح البخارى لبدر الدين العينى الحنفى المتوفى سنة 855 هـ ، هذه الظاهرة الخطيرة التى يرجع تاريخها لستة قرون على الاقل (هى قرون التراجع والانحطاط فى المجتمع العربى) لا تزال تعشعش فى عالمنا المعاصر ، كدليل على استمرار عوامل التخلف فيه ، ويقول عنها اليوم مصطفى امين :

« ما السبب فى موجة الانحطاط التى هوت اليها بعض المؤسسات فى فى مصر ، ما السر فى الخسائر الضخمة وفى الهبوط بمستويات كانت عالية فى وقت من الاوقات ؟

السبب فى رايى يعود الى اليوم الذى ظهرت فيه تقليعة تفضيل اهل الثقة على أهل الخبرة ، فجئنا بالجهلاء واجلسناهم فى مقاعد الخبراء ، واعتبرنا صاحب الحجم الكبير عدوا يجب القضاء عليه ، وخصما لابد من التخلص منه ، وأصبحنا نقرب الاقزام ونبعد العمالقة ونفضل المطيعين والانتهازيين على أصحاب الرأى ، وكم من شخصيات بارزة ازحناها من مكانها لانها تجرأت وعارضتنا فى فكرة شخصية أو حماقة كبيرة .

كانت الفكرة فى اختيار أهل الثقة ان يطيعوا الاوامر ، ويفهموا بالاشارة ، فليس المهم ان تنجح المؤسسة التى يتولونها أو تتضاعف ارباحها أو يزيد انتاجها ، انما المهم ان يحتشد عمالها فى المظاهرات والاستقبالات والاحتفالات ، ولا يحاسب الرجل على فشله ، وانما يحاسب على قلة ولائه ، وضعف حماسه ، والرأى الذى أبداه ، والنكتة التى قالها ، وكانوا يختارون الموظف خفيف الدم ، وهو عادة رجل ينظم قصائد الغزل فى عبقرية المسؤولين ، ويهاجم خصومهم ، ويلعن معارضيهم ، ويمشى فى ركابهم وركاب سكرتيريهم ومديرى مكاتبهم .

وهكذا ملأنا الدولة بالصغار فصغرت المؤسسات ، وتطاولت الشركات ، وأفلست بعض البنوك وتوقفت بعض المصانع ، وأصبحنا نستورد القمح بعد ان كنا نصدره ، وأصبحنا نستدين من كل دولة فى العالم بعد ان كنا ندين بريطانيا العظمى بحوالى اربعمائة مليون جنيه استرلينى ... »

هل يدعى احد اليوم ان هذه العقلية خاصة بمصر ؟ أم هى (عقلية عربية) لا علاقة لها بالاسلام .

أو يواكل ، أو يفاوض ، الا مومنا كاملا ، عالما عاملا ، متيقظا حازما ، للدين واهله ناصحا وخادما ، ولا يولى امرا ما من امور المسلمين الا من اجمع على استحقاقه له واهليته ، وقيامه به اتم قيام فى حضوره وغيبته ، واذا صحب أو ولى من اعتقد اهليته فتبين خلافه ، اقصاه وعزله فى الحين ، واستبدله بغيره من اهل العدالة والتقوى والفضل المستبين ، حتى تجرى الامور مجاريها ، وتقع مواقعها ، ولا يقع فيها شىء من الاختلال ، لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، وهذا ، لمن وفقه الله ، له علامة من علامات سعادته وسعادة رعاياه ، وانهم ممن اراد الله بهم خيرا ، وامتن عليهم بمزاياه .

اخرج الترمذى فى جامعه فى كتاب الزهد ، وقال حسن صحيح غريب ، وفى شمائله ، والبخارى فى الأدب المفرد ، كلهم فى قصة أبى الهيتم بن التيهان الانصارى ، عن أبى هريرة مرفوعا : ان الله لم يبعث نبيا ، ولا خليفة الا وله بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تالوه خبالا ، أى لا تمنعه من فساد يعمله ، ومن يوق بطانة السوء فقد وقى أى حفظ من كل الاسواء وجميع المكاره ، واخرج ابوداوود والبيهقى فى الشعب عن عائشة مرفوعا : « اذا اراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر اعانه ، واذا اراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، ان نسى لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه ، واياه ثم اياه والمترفين المتنعمين المتعمقين فى اللذات ، المشغولين بنيل الشهوات ، الذين لا همة لهم الا فى الماكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمركوبات ، فان هؤلاء لا يصلحون لصالحة دينية ابدا ، وترأسهم من امارات السوء والسخط حالا وغدا » وانظر الى قراءة من قرأ : « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها » بتشديد الميم من امرنا من التأمير ، والى ما اخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن على مرفوعا : اذا اراد الله بقوم

سوءا جعل امرهم الى مترفيهم ، ومن قبائحهم ، شراء الدنيـا بدينهم وهو أيضا من امارات الساعة قال عليه الصلاة والسلام « تكون بين يدى الساعة فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مومنا ويمسى كافرا ، ويمسى مومنا ويصبح كافرا ، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا » اخرجه الترمذى وقال غريب من هذا الوجه عن انس مرفوعا .

فليكن أمير المومنين نصره الله متيقظا فى هذا الباب غاية التيقظ والاستبصار ، ناظرا فيـه بعـين البصيرة والابصار ، فانـه الباب الموصل الى جميع الخيرات لمن أحكمه واستبصر ، ودقـق نظـره فيـه واستخبر ، ونيـل جميـع المضرات لمن اهملـه وتساهل ، وعنه تكاسل أو تغافل ، وقد تقدم وياتى من معنـى هذا المبحث ما فيه كفاية ، لمن امده مولاه بالتوفيق والهداية ، يا ربنا وفق سلطان الاسلام وجميع اتباعه ورعاياه الى ما فيه رضاك ، واهـده واهد به حتى تجعله مـن اهل حضرتك وقربك ورحماك ، وانصره النصر المكين ، وانشر له فى البسيطة لواء الفتح والتمكين آمين يا رب العالمين .

المبحث الخامس

مصافاة الكفار واتخاذهم اصدقاء

ومنها وهو المبحث الخامس ، مصافاة الكفار ، واتخاذهم اصدقاء وأولياء من دون المومنين الابرار ، ومودتهم والركون اليهم ، والتعويل فى امور المسلمين عليهم ، وهذه هى الداهية الكبرى ، والمصيبة التى ابادت الاسلام واهلكته دنيا واخرى ، اذ فيها بلايا لا تنحصر ، ورزايا لا يحيط بها مستكثر ، كاطلاعهم على عورات المسلمين ، وتكشفهم على مخبئات بواطن المومنين ، وتشجعهم وجرءتهم ، واهانة المسلمين وزوال هيبتهم ، مع انهم كما ذكره الله تعالى فى كتابه لا يالوننا خبالا وافسادا ، ويودون عنتنا كفرا وعنادا قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفى صدورهم اكبر ، وودوا لو كفرنا كفرهم أو أكثر أو غفلنا عن اسلحتنا وامتعتنا فيميلون علينا ميلة واحدة ، ويكرون كرة متحدة ، وما يودون ان ينزل علينا من خير من ربنا ، ولا ان ينال فضله أحد من حزبنا ، ولذا حذرنا تعالى من موالاتهم غاية التحذير ، ونفرنا منهم اتم تنفير ، قال تعالى : « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم » . الآية ، وقال : « لا يتخذ المومنون الكافرين أولياء من دون المومنين ومن يفعل ذلك فليس من الله (اى من دينه) فى شىء » ، بمعنى انه برىء منه ، ومفارق دينه ، وقال : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا اليما » ، ثم فتنهم بقوله : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المومنين ، ايبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا » أى ان افرادها كلها منحصرة فى جنابه تعالى فلا ينالها الا أولياؤه ، وقال : « ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، الى قوله : فاسقون » ، قال

المفسرون أى خارجون عن الملة والدين وقال : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهـــم » .

قال ابن عباس : أى كافر مثلهم ، وقال : « لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء ، واتقوا الله ان كنتـــم مومنين » وقال : « يا أيها الذيـــن ءامنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المومنين ، اتريدون ان تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا » وقال : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » ، والركون هو ادنى ميل ، قال فى الكشاف : والنهــى متناول للانحطـــاط فى هواهــم ، والانقطاع اليهـــم ، ومصاحبتهم ، ومجالستهم ، وزيارتهم ، ومداهنتهم ، والرضى باعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيى بزيهم ، ومد العين الى زهرتهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم ، قال : وتأمل قوله ولا تركنوا ، فان الركون هو الميل اليسير هـ ، والذين ظلموا قيل الكفار خاصة ، وقيل اهل الكفر والمعاصى من اهل البدع وغيرهم ، وهو الصحيح ، وتمسكم النار ، اى تحرقكم على ركونكم اليهم ، وقال : « ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات » وقال : « لا تجد قوما يومنون بالله واليـــوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » وقال : « لا تتخذوا عدوى وعدوكم أوليـــاء » .

وقد قال العلماء رضى الله عنهم يوخذ من مجموع الآيات ان الايمان يفســـد بموالاة الكفار ومودتهم ، وان مـــن كان مومنا لا يوالى كافرا ولا يوده ، لان من احب أحدا امتنع ان يحب عدوه ، وقال بعضهم : حاصل القرآن مقاطعة الكفار من جميع الوجوه ومباينتهم فى كافة الاحوال ، فلا مواصلة ولا مودة ولا موالاة بيننا

وبينهم اصلا هـ ، وفى كتاب الجهاد من المعيار من جواب لمؤلفــه فى تحريم الاقامة بدار الكفر وايجاب الهجرة منها ، بعد ما ذكر فيه كثيرا من الآيات المتقدمة ما نصه : فهذه الآيات القرآنية كلها أو اكثرها ، لاسيما قوله : ترى كثيرا منهم الى آخرها ، نصوص فى تحريم الموالاة الكفرانية ، واما قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، الى قوله الظالمين » فما ابقت متعلقا الى التطرق لهذا التحريم ، وكذا قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا من الذيــن اوتوا الكتــاب من قبلكم والكفــار أولياء واتقــوا الله ان كنتم مومنين » وتكرار الآيات فى هذا المعنى ، وجريها على نسق وتيرة واحدة ، مؤكد للتحريم ، ورافع للاحتمال المتطرق اليه ، فان المعنى اذا نص عليه ، واكد بالتكرار ، فقد ارتفع فيه الاحتمال بلا شك ، فتتعاضد هذه النصوص القرآنية ، والاحاديث النبوية ، والاجماعات القطعية ، على هذا النهى ، فلا تجد فى تحريم هذه الاقامة وهــذه الموالاة الكفرانية ، مخالفا مــن أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز ، الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، فهو تحريم مقطوع به من الدين ، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وقتل النفس بغير حق واخواته من الكليات الخمس التى اطبق ارباب الملل والاديان على تحريمها هـ .

الحب فى الله والبغض فى الله :

وأخرج ابن ابى شيبة ، والحكيم الترمذى فى نوادر الاوصول، وابن ابى حاتم عن ابن عباس قال : أحب فى الله ، وابغض فى الله، وعاد فى الله ، ووال فى الله ، فانما تنال ولاية الله بذلك ، ثم ، قرأ « لا تجد قوما يومنون بالله واليوم الآخــر يوادون » الآية ، واخرج البيهقى فى الشعب عن مجاهد عن ابن عباس قال : عاد فى

الله ، ووال فى الله ، فانه لا تنال ولاية الله الا بذلك ، ولا يجد رجل طعم الايمان ، وان كثرت صلاته وصيامه حتـــى يكون كذلك ، واخرج الطبرانى فى الكبير عن محمد بن عمرو بن الحمق مرفوعا : « لا يجد العبد ضريح الايمان حتى يحب لله ، ويبغض لله ، فاذا احب لله وابغض لله فقد استحق الولاية من الله ، واخرج ابن النجار عن عائشة رفعته : « الشرك اخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليل المظلم ، أدناه ان تحب على شىء من الجور وتبغض على شىء من العــدل ، وهل الدين الا الحــب فى الله والبغض فى الله ؟ » قال تعالى : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ، واخرج أبو نعيم فى الحلية عــن ابن مسعود مرفوعا : « أوحى الله الى نبى من الانبياء ان قل لفلان العابد : اما زهدك فى الدنيا فتعجلت راحة نفسك ، واما انقطاعك الى فتعززت بى فماذا عملت فيما لى عليك ؟ قال يا رب ومالك على ؟ قال : هل واليت لى وليا أو عاديت لى عدوا ؟ » وأخرج الحكيم الترمذى عن واثلة بن الاسقع مرفوعا : « يبعث الله يوم القيامة عبــدا لا ذنب له ، فيقول له : بأى الامرين احب اليك ، أن اجزيك بعملك ، أم بنعمتى عليك ؟ قال : رب انت اعلم انى لم اعصك قال : خذوا عبدى بنعمة من نعمى فما يبقى له حسنة الا استغرقتها تلك النعمة، فيقول : رب بنعمتك ورحمتك ، فيقول : بنعمتى ورحمتى ، ويوتى بعبد محسن فى نفسه لا يرى ان له سيئة ، فيقال له : هل كنت توالى أوليائى ؟ قال يا رب كنت من الناس سلما ، قال : هل كنت تعادى اعدائى ؟ قال : يا رب لم اكن أحب ان يكون بينى وبــين احد شىء ، فيقول الله تبارك وتعالى : « وعزتى لا ينال رحمتى من لم يوال أوليائى ويعاد أعدائى .

وأخرج الطيالسى وابن ابــى شيبة عن البراء بن عــازب مرفوعا : « أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله » واخرج الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس مرفوعا : أوثق عرى

الايمــان الموالاة فى الله ، والمعــاداة فى الله ، والحــب فى الله ، والبغض فى الله » ، وأخرج الديلمى من طريق الحسن عن معاذ وابن مردويه عن كثير بن عطية عن رجل رفعاه : « اللهم لا تجعل لفاجر عندى يدا ولا نعمة ، فيوده قلبى ، فانى وجدت فيما اوحيته الي ، « لا تجد قوما يومنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسولــه » الآيــة ، واخــرج ابــن شاهــين فى الأفــراد عــن ابــن مسعــود مرفوعــا : « تقربــوا الــى الله ببغـض اهل المعاصى ، والقوهم بوجوه مكفهــرة (أى عابسة قاطبــة) والتمسوا رضى الله بسخطهم ، وتوبوا الى الله بالتباعد عنهم » ، واخرج احمد وابوداوود والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب ، عن ابى هريرة مرفوعا : « المرء على دين خليله ، فلينظر احدكم من يخالل » .

من مشى مع ظالم فقد أجرم :

واخرج القضاعى عن معاذ بن جبل مرفوعا : « من مشى مع ظالم فقد اجرم ، يقول الله : « انا من المجرمين منتقمون » واخرج الطبرانى فى الأوسط بسند حسن عن جابر مرفوعا : « كل نفس تحشر على هواها ، فمن هوى الكفرة فهو مع الكفرة ، ولا ينفعه عمله شيئا » ، واخرج البخارى تعليقا عن عائشة ، واحمد ومسلم وابوداوود عن ابى هريرة ، والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود رفعوه : « الارواح جنود مجندة (اى جموع مجتمعة) فما تعارف منها أى توافق فى الصفات وتناسب فى الاخلاق ائتلف ، وما تناكر منها (أى لم يتوافق ولم يتناسب) اختلف » قال فى التيسير : قال البيهقى : سألت الحاكم عن معناه فقال : المومن والكافر لايسكن قلب كل واحد منهما الا الى شكله هـ ، واخرج الطبرانى فى الكبير والضياء عن ابى قرصافة مرفوعا : « من احب قوما حشره الله فى زمرتهم » ، قال فى التيسير : فمن احب أولياء الرحمان فهو

معهم فى الجنان ، ومن احب حزب الشيطان فهو معهم فى النيران ه ، وعن عبد الله بن مسعود قال : « لو ان رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله تعالى سبعين سنة وهو يحب ظالما لبعثه الله مع من يحب » ، واخرج الشيخان عن انس وابن مسعود وابى موسى مرفوعا : « المرء مع من احب » وهو حديث متواتر ، واخرج احمد وابوداوود والترمذى وابن حبان والحاكم عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا : « لا تصاحب الا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك الا تقى » ، قال العلماء : ومصاحبة كامل الايمان أولى لأن الطباع سراقة .

وأخرج أبوداوود بسند حسن عن سمرة بن جندب مرفوعا : « من جامع المشرك وسكن معه فانه مثله » ، وفى رواية اخرى لغيره « لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم ، فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم » ، واخرج ابوداوود والترمذى عن جرير بن عبد الله مرفوعا : « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا يا رسول الله لم ؟ قال : لا تتراءى ناراهما » ، قال فى النهاية : أى يلزم المسلم ويجب عليه ان يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموضع الذى اذا أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك اذا أوقدها فى منزله ، ولكنه ينزل مع المسلمين فى دارهم ، وانما كره مجاورة المشركين لانهم لا عهد لهم ولا امان ، وحث المسلمين على الهجرة ه ، واخرج البيهقى فى الشعب وابن عساكر ويعقوب ابن سفيان عن الحارث بن معاوية انه قدم على عمر بن الخطاب فقال له كيف تركت أهل الشام ؟ فاخبره عن حالهم ، بحمد الله ثم قال : لعلكم تجالسون اهل الشرك ؟ قال لا يا امير المومنين فقال : انكم ان جالستموهم اكلتم معهم وشربتم معهم ، ولن تزالوا بخير ما لم تفعلوا ذلك ، واخرج عبد بن حميد عن حذيفة قال : ليتق احدكم ان يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر ، وتلى

« ومن يتولهم منكم فانه منهم » واخرج ابو الشيخ عن الحسن قال : خصلتان اذا صلحتا العبد صلح ما سواهما من أمره : الطغيان فى النعمة ، والركون الى الظلم ، ثم تلا هذه الآية : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » .

من تشبه بقوم فهو منهم :

وأخرج احمد وابوداوود والحاكم فى المستدرك وابو يعلى والطبرانى فى الكبير بسند فيه مقال عن ابن عمر والطبرانى فى الاوسط بسند حسن عن حذيفة مرفوعا . « من تشبه بقوم (اى تزيا فى ظاهره بزيهم ، وفى تصرفه بفعلهم ، وفى تخلقه بخلقهم ، وسار بسيرتهم وهديهم ، فى مابسهم وبعض افعالهم ، كالمشى والحركات والسكنات ونحو ذلك) ، فهو منهم » ، ونحوه اخرجه البزار من حديث حذيفة وأبى هريرة وابونعيم فى تاريخ اصبهان ، عن انس والقضاعى عن طاوس مرسلا ، كما اشار له فى المقاصد الحسنة ، قال العلماء رضى الله عنهم : من تشبه باهل الكفر محبة لهم ، ورضى بكفرهم ، فهو كافر كفرا بواحا ، ومن فعل ذلك غافلا عن هذا القصد فقد شابههم فى امورهم الجاهلية ، ففيه خصلة من خصالهم تلزمه التوبة منها ، وقال شيخ الاسلام احمد بن تيمية الحرانى : اقل احوال هذا الحديث أن يقتضى تحريم التشبه بهم ، وان كان ظاهره يقتضى كفر المتشبه بهم ، كما فى قوله تعالى : « ومن يتولهم منكم فانه منهم » ، وقال فى شرح المواهب : القصد من هذا الحديث على هذا التفسير الزجر والتنفير لا حقيقة ذلك، اذ التزيى بزى الكفار حرام لاردة، ان لم يذهب بنحو الزنار للكنيسة هـ ، وقال القرطبى : لو خص اهل الفسق والمجون بلباس ، منع ابسه لغيرهم ، فقد يظن به من لا يعرفه انه منهم ، فيظن به ظن السوء فيأثم الظان والمظنون فيه بسبب العون عليه هـ .

قلت : ومن هذا الحديث ونحوه من الاحاديث التى بمعناه اخـذ الفقهاء ما ذكروه فى باب الردة مـن ان لبـس الطرطور (شاشية طويلة) والزنار والبرنيطة (الشمرير) ونحوها ممـا هو من ملبوس الكفار الخاص بهم ردة ، لكن ان عام انه فعلـه محبة فيهم ، ورضى بكفرهم ، حكم بردته مطلقا اتفاقا ؛ بـل اجماعا ، وان لم يعلم انه فعله كذلك ، فالحكم بها مقيد بقيود وهـى :

1 ـ أن يفعله فى بلاد المسلمين التى لا يلجأ فيها الى الفعل

2 ـ وان لا يكون فعله له على وجه اللعب والهزء والسخرية .

3 ـ وأن ينضم اليه المشى للكنيسة ونحوها ، لا ان فعله فى بلاد الكفر حيث يضطر فيها اليه ، ولا يتمكن من الترك كأسـير عندهم ، يضطر الى استعمال ثيابهم ، فلا حرمة عليه ، فضلا عن الردة ، ولا ان فعله على وجه اللعب والهزء والسخرية ، كالمعروف عند اهل مغربنا ببا الشيخ ؛ أو لم ينضم اليه المشى الى الكنيسة ونحوها ، فلا ينتهى الى الكفر ، وان كان محرما فيهما شديـد التحريم ، يعاقب فاعله اشد العقوبة ، وانظر شراح خليل وحواشيه لدى قوله فى الردة (وشد زنار) .

وقد تظاهرت الاحاديث والاثار وتكاثرت بالامر بمخالفتهم ، والنهى عن التشبه بهم وموافقتهم ، كحديث الترمذى عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عبد الله بن عمرو مرفوعا : « ليس منا (أى من العاملين بهدينا ، والجارين على منهاج سنتنا) من تشبه بغيرنا (اى فى نحو ملبس وهيأة ومأكل ومشرب وكلام وترهب وتبتل ونحو ذلك) لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى ، فان تسليم اليهود الاشارة بالاصابع، وتسليم النصارى الاشارة بالاكف»، قال الترمذى : اسناده ضعيف ، لكن يقويه الحديث السابق ، فانه حديث حسن ، كما قاله الحافظ فى الفتح والسيوطى والمناوى وغيرهم ،

وحديث مسلم عن أبى هريرة : « ان اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهـم » ؛ وحديث أبـى نعيـم وأحمـد والنسائـى عـن الزبيـر بـن العـوام ، والنسائـى أيضـا عـن ابـن عمرو ، والترمذى عن ابـى هريرة رفعوه : « غيروا الشيـب ولا تشبهوا باليهود » وحديث احمـد وابن حبان عن أبى هريـرة مرفوعا : « غيروا الشيـب ولا تشبهوا باليهود والنصارى » ، وحديـث ابن عبد البـر فى التمهيـد عن ابن عمـر مرفوعا : « اخضبوا (1) وافرقوا وخالفوا اليهـود » ، قال ابن عبد البـر اسناده حسن ورجاله كلهم ثقات ، وأورده فى الجامع بلفـظ : اختضبوا ، وعزاه لابن عدى عن ابن عمر ، قال فى التيسير : باسناد ضعيف ، وحديث ابن حبان فى كتاب اخلاق النبى صلى الله عليه وسلم ، عن أبى هريرة مرفوعا : « اختضبوا فان اليهود والنصارى لا تختضب ، فخالفوهم » ، وحديث الدارقطنى والطبرانـى فى الكبير ، بسند رجاله ثقات عن ابن عباس مرفوعا : « خمروا (2) وجوه موتاكم ولا تشبهوا بالهيود » ، وفى رواية ، بأهل الكتاب ، وحديث الترمذى عن عبادة بن الصامت قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم فى الجنازة حتى توضع فى اللحد ، فمر حبر من أحبار اليهود فقال : هكذا نفعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجلسوا وخالفوهم » وحديث احمد عن ابن عمرو قال : « رءانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ثياب معصفرة فقال : ألقها فانها ثياب الكفار » ، وحديث مسلم عن ابن عمـر قال : «رأى النبى صلى الله عليه وسلم علي ثوبين معصفرين فقال : « ان هذا لباس الكفار فلا تلبسهما » ، قـال الزرقانى فى شرح المواهب : اى حذرا من التشبه بهم فيما هو مخصوص بهم ه ، وحديث أبى داوود والترمذى عن ركانة بن عبد يزيد المطلبـى

---

(1) خضب الشىء لونه واختضب بالحناء تلون
(2) خمر وجهه : غطـاه .

مرفوعا : « فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس » ، قال ابن العربى أى ان المسلمين يلبسون القلنسوة وفوقها العمامة ، أما لبس القلنسوة وحدها فزى المشركين ، قال : والعمامة سنة المرسلين ، وقد صح حديث « لا يلبس المحرم القميص ولا العمامة » ، فدل على أنها عادة أمر بتركها فى الاحرام ، قال ابن تيمية : وهذا بين فى ان مفارقة المسلم للمشرك فى اللباس مطلوبة للشارع ، اذ الفرق بالاعتقاد والعمل بلا عمامة حاصل ، فلولا انه مطلوب ايضا لم يكن فيه فائدة هـ ، نقله ككلام ابن العربى قبله فى شرح المواهب ، وحديث احمد ومسلم والثلاثة عن عمرو ابن العاصى مرفوعا : « فصل ما بين صيامنا وصيام اهل الكتاب اكلة السحر » ، وحديث احمد والبيهقى فى السنن عن ابن عباس مرفوعا : « صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود صوموا قبله يوما وبعده يوما » ، وحديث احمد ايضا عن ابى أمامة الباهلى قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على مشيخة من الانصار ، بيض لحاهم ، فقال : يا معشر الانصار حمروا وصفروا وخالفوا أهل الكتاب ، قال : فقلنا يا رسول الله ان اهل الكتاب يتسرولون ولا يأتزرون فقال : تسرولوا وائتزروا وخالفوا أهل الكتاب ، قال فقلنا يا رسول الله ، ان اهل الكتاب يتخففون (1) ولا ينتعلون ، قال فقال : فتخففوا وانتعلوا وخالفوا اهل الكتاب ، قال : فقلنا يا رسول الله ان أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم (2) ، قال فقال : قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا اهل الكتاب » ، والاحاديث فى هذا المعنى كثيرة جدا .

وأما الأثار فاخرج ابوعبيد فى الغريب عن أبى اسامة ان عمر

---

(1) يلبسون الخف وهو حذاء يغطى دائرة القدم دون سطحه ، اما النعل فهو حذاء يقى القدم من الارض فقط .

(2) العثنون : اللحية والسبال جمع سبلة وهى شعر الشارب .

بن الخطاب قال : « أدبوا الخيل ، واياى واخلاق الاعاجم ، ومجاورة الخنازير ، وان يرفع بين اظهركم الصليب » ، واخرج مسلم وغيره عن ابى عثمان النهدى قال : كتب الينا عمر ونحن باذربيجان : يا عتبة بن فرقد ، انه ليس من كدك ولا كد أبيك ولا كد أمك ، فاشبع المسلمين فى رحالهم ، مما تشبع منه فى رحالك ، واياكم والتنعم وزي أهل الشرك ، ولبوس الحرير ، واخرجه أيضا ابن حبان فى صحيحه وقال فيه : واياكم وزي الاعاجم ، وفى الدر المنظم للعزفى نقلا عن ابن وضاح قال : حدثنا محمد بن يحيى الصدفى ، حدثنا اسد بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم عن ابى عثمان النهدى ان عمر كتب الى عتبة بن فرقد : اياى والتنعم وزي الاعاجم ، واخرج العسكرى من حديث حماد عن حميد الطويل قال : كان الحسن يقول : اذا لم تكن حليما فتحلم ، واذا لم تكن عالما فتعلم ، فقل ما تشبه رجل بقوم الا كان منهم ، واخرج ايضا من حديث زافر عن عمرو بن عامر البجلى قال : قال الحسن : « هو والله احسن منك رداء وان كان رداؤك حبرة (1) رجل رداه الله الحلم ، فان لم يكن حلم لا أبالك فتحلم ، فانه من تشبه بقوم لحق بهم ، وقال العزفى فى الدر المنظم : قال ابن وضاح : وحدثنا بهلول بن راشد عن سفيان الثورى قال : دعى حذيفة بن اليمان الى طعام ، فلما اقبل من باب البيت رأى شيئا من زي الاعاجم فرجع وهو يقول : يحذر الرجل ان يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر : ثم قيل له كيف ذلك اصلحك الله ؟ فقال : من تشبه بقوم فهو منهم ، وقال فيه أيضا : قال احمد بن زياد : قال لنا ابن وضاح : جاء فى الحديث ان عمر بن الخطاب قال : اجتنبوا اعياد اليهود والنصارى ، فان السخط ينزل عليهم فى مجامعهم ، ولا تتعلموا رطانتهم فتتخلقوا ببعض

---

(1) حبرات اليمن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها ويلبسها (أساس البلاغة للزمخشرى)

خلقهم ، قال : وبلغنى ان ناسا من أهل العراق قالوا لعبد الله بن عمر : كيف تقول فى النيروز فان اهل بلدنا يعظمونه ويهدون لنا فيه ؟ كأنهم يسألونه عن تعظيمه ، فقال ابن عمر : لا ادرى ما نيروزكم هذا من تشبه بقوم فهو منهم ، ثم قال العزفى : قال ابن وضاح : وسالت ابا زكرياء يحيى بن سليمان عن امام يقبل هدايا الصبيان فى اعياد النصارى ويعظمها ، فقال : ما أراه مسلما ، قلت : لا يصلى وراءه ؟ قال : أنا اقول لك ما اراه مسلما وأنت تقول لا يصلى وراءه ! قال ابن وضاح : وسألت سحنون عن ذاك فقال : رجل سوء ه (1) .

وقال مالك بن دينار : أوحى الله عز وجل الى نبى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام : ان قل لقومك لا يدخلوا مداخل اعدائى ، ولا يلبسوا ملابس اعدائى ولا يركبوا مراكب اعدائى ، ولا يطعموا مطاعم اعدائى ، فيكونوا اعدائى ، كما هم اعدائى ، وفى نزهة الناظرين للشيخ تقى الدين اليابى ثم الحلبى فى كتاب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر قال : المسألة الرابعة من المنكرات ، موالاة اليهود والنصارى ، ومشاركتهم فى اعيادهم ، ثم نقل عن الامام ابى محمد فى معالم التنزيل قال : فى قوله تعالى : « ومن يتولهم منكم » يوافقهم ويعينهم فانه منهم ، ثم قال : وروى البيهقى عن عمر قال : لا تعلموا رطانة الاعاجم ، ولا تدخلوا على المشركين فى كنائسهم يوم عيدهم ، فان السخط ينزل عليهم ، وقال ابن عمر رضى الله عنهما : من صنع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم ، وقال مجاهد فى قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور » هو أعياد المشركين ، وقال عبد الملك

---

(1) ما رأى الذين يحتفلون اليوم عندنا باعياد النصارى ليلة عيد الميلاد ، ويعطلون فى رأس السنة الميلادية ويتهادون فيه ، ويقدمون الهدايا للموظفين المسؤولين ؟ وما رأى الذين يعطلون يومى السبت والاحد مع اليهود والنصارى ويرفضون تعطيل يوم الجمعة ويعرقلون صلاتها ؟ ويدعون مع ذلك أنهم يمثلون الشعب المغربى المسلم ؟ !

بن حبيب من اصحاب مالك : لا يعانون على شىء من عيدهم ، لان ذلك من تعظيم شركهم ، وعونهم على كفرهم ، ه والآثار أيضا فى هذا المعنى كثيرة والله اعلم .

وفى القوت : روينا فى خبر ان الله تعالى أخذ على كل مومن فى الميثاق ان يبغض كل منافق ، وأخذ على كل منافق أن يبغض كل مومن ، وذكر قبله : ان بغض المبتدع ، والفاجر المجاهر ، والظالم المعتدى ، وترك موالاتهم ونصرتهم ، واجب على المومنين ، وقال بعض العلماء يجب على كل مومن ان يستحضر بغض كل كافر لنبينا ، وعظيم دعواتهم علينا ، وطعنهم فى ديننا ، وان كل كافر ولـــي الشيطان اللعين ، بل هو الشيطان بعينه ، وقيل : من والى أعداء الله تبرأ الله منه ، ووكله اليهم ، وقيل أيضا : مخالفة الاعتقاد ، تمنع الوداد ، وسئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب ، وعن ذبائح بنى تغلب ، وهم اهل نجران ، فقرأ : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصرى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » .

منع استشارة المشركين فى أمور المسلمين :

واخرج النسائى عن أنس مرفوعا : « لا تستضيئوا بنـــار المشركين ، ولا تنقشوا على خواتيمكم عربيا » واخرج عبد بن حميد وابو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم والبيهقـــى فى الشعب عنه أيضا مرفوعـا : « لا تنقشوا فى خواتيمكـم عربيا ولا تستضيئوا بنار المشركين » ، فذكر ذلك للحسن فقال نعم ، لا تنقشوا فى خواتيمكم محمدا ، ولا تستشيروا المشركين فى شىء من اموركم ، قال الحسن : وتصديق ذلك فى كتاب الله « يا أيهـا الذين آمنـوا لا تتخذوا بطانة مـن دونكـم » وفى النهايـة : لا تستضيئوا بنـار المشركين ، أى لا تستشيروهـم ولا تأخذوا

آراءهم ، جعل الضوء مثلا للرأى عند الحيرة ه ، وقيل معناه : لا تقربوا منهم ، كما قال فى الحديث الأخر : لا تراءى ناراهما (1).

منع الاستعانة بالمشركين فى القتال :

قلت : ويحتمل ان يكون معناه : لا تستعينوا بهم ، ولا تستنصروا بجنابهم وقد اخرج احمد والجماعة الا البخارى ، عن عروة عن عائشة « انه عليه السلام خرج الى بدر فلحقه رجل من المشركين ، يذكر منه جرأة ونجدة ، ليقاتل معه ، فقال له عليه السلام : ارجع فلن استعين بمشرك » قال الطرطوشى فى سراجه : وهذا اصل عظيم فى ان لا يستعان بكافر ، قال هذا وقد خرج ليقاتل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ويراق دمه ، فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين ه ؟ واخرج احمد ايضا وابوداوود وابن ماجه بسند صحيح عن عائشة أيضا مرفوعا : « انا لا نستعين بمشرك » ، واخرج أيضا والحاكم فى المستدرك وصححه وابن ابى شيبة واسحاق بن راهويه والطبرانى فى معجمه عن خبيب بن يسار مرفوعا : « انا لا نستعين بالمشركين » ، واخرج اسحاق بن راهويه

---

(1) اليوم لا نستشيرهم فقط ، بل هم خبراؤنا التقنيون الذين يقررون ويقترحون علينا ما يجب ان تكون عليه سياساتنا فى الاقتصاد والمالية والتعليم والاعلام والثقافة وغيرها من شؤون حياتنا الاجتماعية ؛ ونستشيرهم فيما يجرى فى مؤتمراتنا الخاصة ، بينما نحن لا نعرف شيئا عن أسرارهم الخاصة !

وثقة العرب فى مشورتهم ونصائحهم ووعودهم السياسية هى سبب جميع الهزائم التى حلت بهم ، والحروب التى قامت بينهم ، منذ الحرب العالمية الثانية ، وتسليم فلسطين لليهود ، مرورا بهزيمة 5 يونيه 1967 ، وقيام الحرب العراقية الايرانية ، الى الصراعات العربية — العربية !

فى مسنده عن ابــى حميد الساعدى مرفوعا : « انا لا نستعين بالمشركين على المشركين » وأخرجه الواقدى فى كتاب المغازى بلفظ : انا لا نستنصر بأهل الشرك على اهل الشرك ، وفى المختصر عطفا على ما يحرم : واستعانة بمشرك الا لخدمة ، وفى المدونة ولا يستعان بالمشركين فى القتال الا ان يكونوا نواتيا وخدما فلاباس به هـ ، ومثله فى ابن الحاجب فقال فى التوضيح : لقوله تعالى : « ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا »، ولما فى الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام اليهودى الذى اتبعه : « ارجع فلن نستعين بمشرك » قال : واختلف اذا خرج الكفار من تلقاء انفسهم ، فظاهر ما فى سماع يحيى أنهم لا يمنعون (1) ، وقال أصبغ : يمنعون اشد المنع هـ ، وقيل فى قوله تعالى : « ولا تتخذوا منهم وليا ولانصيرا » أى وليا يتولى شيئا من مهماتكم ونصيرا ينصركم على اعدائكم ، وقال ابوحيان فى تفسير قوله تعالى : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم .

فتوى العلماء فى الاستنصار بالنصارى على المسلمين :

قلت وهذا كله فى الاستعانة بهم فى الحرب على أمثالهم من المشركين ، واما الاستعانة بهم على قتال المسلمين ، فلا يكاد يصدر من مسلم ، ولا يخطر جوازه الا على بال من قلبه وراء لسانه ، وقد ذكر البرزلى فى كتاب القضاء من نوازله ، ان أمير المومنين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتونى استفتى علماء زمانه وهم من هم ، فى انتصار ابن عباد الاندلسى بالكتب الى الافرنج ليعينوه على المسلمين ، فاجابه جلهم بردته وكفره ، انظر نفح الطيب للمقرى ، ونزهة الحادى لليفرنى ، فى ذكر الخبر عن استصراخ مولاى محمد بن مولاى عبد الله بالنصارى ، وما وقع بسبب ذلك .

---

(1) هذا هو المعتمد كما ذكره غير واحد (المؤلف) .

ومما يدخل فى النهى عن الاستعانة بهم استخدامهم فى امــر الديوان ونحوه ، وجعلهم عمالا على المسلمين ، او كتبة أو وزراء أو ما اشبه ذلك ، مما فيه توليتهم على شىء من امور المسلمين أو على مسلم فى شىء من الاشياء ولو قليلا ، وقد نص غير واحد من العلماء على تحريمه ومنعه لثبوت النهى عنه بالنصوص المؤكدة كقوله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المومنين سبيلا » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الاسلام يعلو ولا يعلا عليه » اخرجه الضيــاء المقدسى فى الاحاديث المختــارة والدارقطنــى والبيهقى فى السنن وغيرهم عن عائذ بن عمرو والمزنى .

حرمة استخدام الكافر خدمة عمالة على المسلمين :

وقد شاع فى هذه الاعصار ، فى كثير من الاقطار ، توليتهم على المومنين ، واعلاؤهم بالتحكم فى رقاب المسلمين ، من غيــر مبالاة بما يحصل للمسلمين فى ذلك من الذل والهوان ، ولا بمــا يلحقهم به من الأذاية البليغة والنقصان ، فخالفوا كتــاب الله ، وغيروا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليحذروا شــؤم هذه الرذيلة الجسيمة ، وليعرفوا وخامتها وما ينشا عنها مــن القبائح العظيمة ، وفقنا الله واياهم لسلوك رضاه ومن علينا فى الدارين بفضله ورحماه آمين ، وقد قال بعض من تكلم على بعض احاديث الجامع الصغير ، فى الكلام على حديث تقربوا الى الله ببغض اهل المعاصى ما نصه : « ويحرم على الامير ان يستخدم الكافر خدمة عمالة على المسلمين ، كان يجعله كاتبا عليهــم أو أو قابضا منهم ، أو وزيرا لان فيها من الامور القبيحة ما لا يرضاه العدو لعدوه فكيف يرضاه مسلم لامة محمد صلى الله عليه وسلم ه» وقال فى زاد المعاد فى الكلام على حديث « ان للمسلمين يدا على مــن سواهم » ما نصه : وهذا يمنع من تولية الكفار شيئا من الولايات ،

ويحكى ان والــى الاسكندرية فى زمن الشيخ ابى الوليــد

الطرطوشى استعمل يهوديا على قبض الاعشار ، فجعل يضيق على الناس فشكى الناس الى الطرطوشى فكتب الى الوالى يقول له : لقد وليت ذميا علينا ، ولم تشكر لفضل الله منة ، الم تسمع لقول الله فيهم ، « ومن يتولهم منكم فانه منهم » ، وبعث بذلك الى الوالى فقرأ ذلك بحضرة جلسائه ، فقالوا له : لقد تجاسر عليك هذا العالم ، فقال : والله ما قال الا حقا ، فعزل اليهودى وتاب الى الله من تولية الكفار ، ويحكى أيضا عن أبى الوليد هذا انه لما دخل على الخليفة فى وقته بمصر ، ورأى بازائه وزيرا راهبا قد سلم اليه قياده ، وأخذ ينفذ كلامه فى المسلمين ، انشده :

يا أيها الملك الذى جوده   يطلبه القاصد والراغب
ان الذى شرفت من اجله   يزعم هذا انه كاذب

فاشتد غضب الخليفة اذ ذاك على الراهب حين سمع هذين البيتين ، وأمر به فسحب وضرب وقتل ، ويحكى أيضا ان أمير المومنين المتوكل أقصى اليهود والنصارى ، ولم يستعملهم ، واذلهم ، وخالف بين زيهم وزى المسلمين وجعل على ابوابهم مثالا للشياطين لانهم اهل ذلك ، وقرب منه اهل الحق ، وباعد عنه اهل الباطل والاهواء ، فأحيا الله به الحق وامات به الباطل ، قال الطرطوشى فى السراج : فهو يذكر بذلك ويترحم عليه ما دامت الدنيا ه .

وفى التيسير : انه كان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه مملوك رومى اسمه وثيق ، وكان أمينا ، فكان يقول له اسلم استعين بك على امانة المسلمين ، فيأبى ، فيقول له : انا لا نستعين على امانتهم بمن ليس منهم ، فلما احتضر عمر اعتقه ه ، ويروى ان بعض عماله كتب اليه ان العدو قد كثر وان الجزية قد كثرت ، فنستعين بالاعاجم ، فكتب اليه عمر : انهم اعداء الله سبحانه ، وانهم لنا غششة ، فانزلهم حيث انزلهم الله ولا تردوا اليهم شيئا ،

وقال لابى موسى لما اراد ان يستكتب كاتبا نصرانيا : مالك قاتلك الله ، اما سمعت قوله تعالى : « لا تتخذوا بطانة من دونكم » الآية ، وقوله : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أوليــاء » قال : فقلت : له دينه ، ولى كتابته ، فقال : لا أكرمهم بعد اذ أهانهم الله ، ولا أعزهم بعد اذ أذلهم الله ، ولا أؤمنهم بعد اذ خوفهم الله ، ولا أئتمنهم بعد اذ خونهم الله ، ولا أدنيهم بعد اذ أقصاهم الله ، قال : فقلت : انه لا يتم أمر البصرة الا به ، فقال : مــات النصرانى والسلام ، يعنى هب انه مات ، فما تصنع بعده ، اصنعه الآن ، واستعن بغيره من المسلمين ، وكتب رضى الله عنه الــى اهل الامصار : لا تكاتبوا اهل الاديان فتجرى بينكم وبينهم المودة، واخرج ابن ابى شيبة وعبد بن حميد وابن ابى حاتم عنه انــه قيل له : ان هاهنا غلاما من أهل الحيرة حافظا كاتبا فلو اتخذتــه كاتبا فقال : قد اتخــذت اذن بطانة من المومنين ، والظاهــر حمل الحديث ، اعنى حديث « لا تستضيئوا » الخ على ما هو أعم من الاستشارة والاستعانة والاستنصار وغير ذلك كأخذ العلم عنهم ، والتطبب بهم ، وما أشبه ذلك .

التحذير من رياض الاطفال ومدارس النصارى اللادينية :

أما اخذ العلم عنهم من حساب أو طب أو غيرهما فقد بالغ فى التحذير منه فى المدخل فى السفر الثانى فى فصل انصراف الصبيان من المكتب قائلا ما نصه : وقد تقدم انه ينبغى للآباء ان ينظروا لأولادهم من المؤدبين من هو اورع وازهد واتقى ، الى غير ذلك مما تقدم ، لأنه رضاع ثان للصبى بعد رضاع الام ، واذا كان ذلك كذلك ، فليحذر ما احدثه بعض عوام المسلمين باولادهم ، من انهم يخرجونهم من المكتب الذى يقرأون فيه كتاب ربهم عز وجل ، ويتعلمون فيه شريعة نبيهم عليه الصلاة والسلام ، ويذهبون بهم الى كتاب النصارى لتعليم الحساب ، وهذا رضاع ثالث بعــد

رضاع المؤدب ، وقد قيل : الرضاع يغير الطباع ، فهذا أمر شنيع قبيح من الفعل لأن الولد لم تحصل له قوة الايمان بعد ، ولم يقرا العلم ، ولم يعرف اقوال العلماء ، وقد تسبق اليه الدسائس من النصرانى الذى يقرأ عليه الحساب ، أو من الجماعة الذين عنده ، صغارا كانوا أو كبارا ، ثم ان النصرانى مع ذلك يؤد به على ما يخطر له ويمر بباله من كفره وطغيانه ، ويظهر ان ذلك من قبل تعليمه الحساب ، وهذا لا يرضى به عاقل ، ولا من فيه مروءة من المسلمين ، والصبى فى هذه السن قابل لكل ما يلقى اليه مثل الشمع ، اى شىء عملت عليه طبع فيه ، فيخاف على الولد ، وهو الغالب ، ان يتغير حاله ، فيرجع مكان الصدق كذبا وبهتانا ، وموضع النصيحة غشا وخديعة ، وموضع الالفة بالمسلمين انقطاعا ووحشة ، ومكان الاستسلام والانقياد خبثا ومداهنة ، الى غير ذلك من مكرهم وخصالهم الرديئة ، واذا كان ذلك كذلك فيخشى عليه ان يركن الى قول النصرانى ، والى شىء ما من اعتقاده ، أو استحسان حال من احواله ، وقد قال مالك رحمه الله تعالى : لا تمكن زائغ القلب من اذنيك ، لا تدرى ما يعلقك من ذلك ، الى آخر ما قال فى المدخل فى هذه المسألة ، فلينظر فيه فانه نفيس غاية ، وقد بين ما فيها من المفاسد زيادة على ما ذكر ، وشفا الغليل جزاه الله خيرا (1) .

قلت وقد كثر هذا الذى ذكره الآن فى البلاد المشرقية (2) ، وأحدثوا فيها فى كثير من المدن الاسلامية مدارس يتعلم فيها أولاد المسلمين الالسن ، وكتابة النصارى والحساب والطب وغير ذلك ، والمعلمون فيها اما نصارى وهو الغالب ، وأما بعض من

---

(1) لعله لا حاجة للتعليق على احوالنا اليوم ، حيث الغزو الفكرى يبدا من رياض الاطفال المتفرنسة اللادينية ويستمر الى الجامعة ، وهكذا ضاعت تحذيرات علماء الاسلام ادراج الرياح ، وسقط اغلب العالم العربى والاسلامى فى التبعية المطلقة للغرب .

(2) وعم سائر البلاد المغربية ايضا بعد الاحتلال الفرنسى .

يزعم الاسلام وأفعاله افعال النصارى ، وزيه زيهم ويقع فى هذه المدارس من الفساد بأولاد المسلمين المرد ، زيادة على فساد عقيدتهم ودينهم ما الله به اعلم ، فانا لله وانا اليه راجعون على ذهاب الدين وغربته وغربة اهله ، وذهاب عقول المسلمين وآرائهم ، وظهور شعائر الكفر واهله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، نسأله سبحانه ان يلطف بنا فيما جرت به مقاديره ، وان يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بمنه وكرمه آمين .

رأى الامام مالك فى تعليم المسلم عند النصرانى :

ومن كتاب البيان والتحصيل : سئل مالك رحمه الله عن تعليم اولاد اليهود والنصارى الكتابة بغير قراءة القرآن فقال : لا والله ما احب ذلك ، يصيرون الى ان يقرأوا القرآن قال وسألته عن تعليم المسلم عند النصرانى كتاب المسلمين أو كتاب الاعجمية ، فقال : لا والله لا احب ذلك وكرهه ، قال : ولا يتعلم المسلم عند النصرانى ولا النصرانى عند المسلم ، لقول الله تعالى : « ومن يتولهم منكم فانه منهم » ، قال ابن رشد رحمه الله : اما تعليم المسلم أبناء اليهود والنصارى ، أو تعليمهم ، أى المسلمين عندهم ، أى النصارى ، فالكراهة فى ذلك بينة ، وقد قال الامام ابن حبيب رحمه الله : ان ذلك مسخطة ممن فعله ، مسقطة لامامته وشهادته هـ ، نقله فى المدخل فى فصل تزويق الالواح .

مفاسد التطبب عند النصارى واليهود :

وأما التطبب بهم ففيه أيضا مفاسد :

منها التغرير بالنفس للقطع بغشهم واذايتهم لمن ظفروا به من المسلمين ، سيما ان كان المريض كبيرا فى دينه أو علمه أو

هما ، خصوصا ان كان هذا المتطبب يهوديا ، فان القاعدة عندهم فى دينهم ان من نصح مسلما فقد خرج عن دينه ، وان من استحل السبت فهو مهدر الدم عندهم ، حلال لهم سفك دمه ، والمسلمون يستحلونه فيعملون فيه ما يرى اليهود تحريمه ، فدمهم عندهم حلال ؛ وفى الديباج لابن فرحون فى ترجمة المازرى انه كان يفزع اليه فى الفتوى فى الطب ، كما يفزع اليه فى الفتوى فى الفقه ، قال : يحكى ان سبب قراءته الطب ونظره فيه ، انه مرض فكان يطبه يهودى ، فقال له اليهودى يوما : يا سيدى مثلى يطب مثلكم ، وأى قربة اتقرب بها فى دينى مثل ان افقدكم للمسلمين ، فمن حينئذ ينظر فى الطب ؟ هـ ، وقتلهم لغير ما واحد من المسلمين معلوم ، وغشهم وخداعهم مشاهد غير مكتوم ، قال فى المواهب اللدنية : ولا ريب ان من خاطر بنفسه ، اى من المسلمين بالتطبب عندهم يخشى عليه ان يدخل فى عموم النهى فيمن قتل نفسه بشىء ، قال : وقد كثر الضرر فى هذا الزمان باهل الذمة ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم والله تعالى يرحم القائل :

لعن النصارى واليهود فانهم بلغوا بمكرهم بنا الأمالا
خرجوا اطباء وحسابا لكى يتقاسموا الارواح والاموالا

هـ ، وقد قيل :

كل العداوة قد ترجى ازالتها الا عداوة من عاداك فى الدين

ومنها تأسى غيره من المسلمين به فى ذلك ، سيما ان كان ممن يقتدى به ، فيدخل فيمن سن سنة سيئة .

ومنها تعظيم شأنهم ، لاسيما ان كان المريض الذى يباشرونه رئيسا ، فانهم يتفاخرون بمباشرته ، ويتعززون على المسلمين بسبب صلتهم به والترداد لبابه . وقد أمر الشارع بتصغير شأنهم ، وهذا عكسه .

ومنها النظر فى وجوههم الخبيثة ، والتودد لهم ظاهرا بالقيام والاجلاس على الفرش ، وتهيئة الطعام الحسن وغير ذلك ، وفيه من القبح والمذمة والخسة والدناءة والتدنيس للعرض والديـــن ما لا يخفى .

ومنها تذلله لهم ، والمومن لا يذل نفسه سيما لكافر .

ومنها محبته لهم بقلبه ان ظهر له منهم تودد بالكلام ونحوه ، وانتفاع فى المعالجة ، فلا يقدر بعد ذلك على عداوتهم كما امره الله سبحانه ، وفى المنن الكبرى للشعرانى : ومما من الله به علـــي حمايتى من التداوى باشارة كافر ، لعدم الثقة بقوله شرعا ، وقل من يسلم من ذلك فى هذا الزمان ، وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : فى ضمن التداوى باشارة الكافر نكتة تخفى على كثير من العلماء ، فضلا عن غيرهم ، وهى : اذا وافق شفاؤه اشارة ذلك اليهودى مثلا ، يصير يوده بقلبه قهرا عليه ، فيريد ان يتخذه عدوا كما امره الله تبارك وتعالى فلا يقدر على نفسه ان يعاديه ، وقد قال الله تبـــارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنـــوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون اليهم بالمودة » هـ ، قال الشيخ محيى الدين ابن العربى رضى الله عنه : وانما قال تعالى : وعدوكم ، ولم يكتف بقوله عدوى ، لعلمه بان فى عباده من لا ينزجر عن مودة الكافر لكونه عدو الله وحده ، فلذلك قال : وعدوكم ، حتى لا يبقى لنا عذر فى مودة الكافر هـ ، فاعلم يا أخى ذلك وافهمه واعمل على التخلق به والله سبحانه يتولى هواك ويدبرك فيما ابـــلاك والحمد لله رب العالمـــين هـ .

ومنها اعانتهم على كفرهم وفسقهم بما يعطيه لهم .

ومنها ان كان المريض امرأة مسلمة تمتع عدو الله الكافـــر بالنظر اليها وجسها ، سيما مع فقد الضرورة الداعيـــة لمباشرة

الكافر لوجود المسلم ، وذلك بعيد من الغيرة الاسلامية ، مع انه قد تقرر فى الشرع حرمة تمكين الكافر من النظر الى شىء من بدن المرأة المسلمة ، فضلا عن جسه من غير ضرورة ملحة . وانظر المدخل فى الفصل الذى عقده فى التحذير من معالجة الطبيب والكحال (1) الكافرين وقد قال الشيخ ابو مدين رضى الله عنه : دليل تخليطك صحبتك للمخلطين ، ودليل انقطاعك صحبتك للمنقطعين ، وقال بعض العارفين : مخالطة الجاهل ، أى فضلا عن الكافر ، أضر من السم ، وانفذ من السهم ، وقال احمد بن حرب : ليس شىء انفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر الى افعالهم ، وليس شىء اضر على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر الى افعالهم ، وكان الحسن البصرى يقول : مصارمة الفاسق قربة الى الله تعالى ، ورضى الله عن الامام احمد بن حنبل ، فانه كان اذا لقى كافرا يغمض عينيه ، اى لكون النظر فى الكافرين ينقص الايمان ، كما ان النظر فى المومنين يزيد فيه ، وعن الاستاذ سيدى هبة ، وكان عالما تقيا ، انه كان اذا مر لبعض شانه وحاذى قصر اولياء اليهود ، شمر عن ساقيه ويقول لأصحابه : اجروا ليلا ينزل عليهم غضب فيصيبكم معهم ، ولا يزال يجرى مع اصحابه حتى يبعدوا عن قصرهم ، وفى المقصد الاحمد لأبى محمد سيدى عبد السلام القادرى ان العارف بالله سيدى أحمد بن عبد الله معن الاندلسى ، كان لا يبيع اليهود ولا يبتاع منهم شيئا أبدا ، بل اذا حس بنيابة احد من المسلمين عنهم فى الشراء لم يبايعه ، وما اكل يهودى قط طعامه ببيع ولا بغيره معاداة لهم فى الله ورسوله ، وتنزها عن ملاقاة وجوههم الخبيثة، وكثيرا ما كان ينهى عن مخالطتهم ومبايعتهم وسائر معاملاتهم رضى الله عنه .

فان قيل : من الناس من تلجئه الضرورة اليهم ، فلا يجد بدا

---

(1) طبيب العيون .

من مخالطتهم ، واظهار المودة لهم ، فما يصنع من ألجأته الضرورة لذلك ؟ قلنا : من ألجأته الضرورة الشرعية لهم اقتصر فى معاملتهم ومخالطتهم على القدر الذى تلجىء اليه من غير أن يشين دينه بشىء مما يدنسه أو ينهى عنه الشرع المطاع ، وقد ذكر بعض العلماء ان البشاشة فى وجوههم ظاهرا مع عدم ميل القلب اليهم بالمحبة تجوز اذا دعت اليها ضرورة شرعية كدفع اذاية عنه أو عن مسلم ، لقول أبى الدرداء : انا لنبش ، وفى لفظ ، لنكشر فى وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم ، وكذلك المصافحة ، لقول على بن ابى طالب : انا لنصافح أكفا نرى قطعها ، وكذلك القيام ونحوه اذا كان تركه يؤدى لمفسدة اعظم ، وفى كتاب الجامع من نوازل البرزلى من جواب لعز الدين ما نصه : واما الكفار فلا يقام لاحدهم ، لانا أمرنا باهانتهم ، والزامهم لاظهار الصغار ، وكيف يفعل ذلك بمن يكذب الله ورسوله ؟ ، فان خفنا من شرهم ضررا عظيما ، فلاباس بذلك ، لأن التلفظ بكلمة الكفر جائز عند الاكراه ، قال : وأما اكرامهم بالالقاب الحسان فلا يجوز الا لضرورة أو حاجة ماسة ، وينبغى ان تهان الكفرة والفسقة زجرا عن كفرهم وفسقهم وغيرة لله عز وجل ه قال البرزلى بعده : وقوله : لا يقام للكافر الا ان يخاف منه شدة الضرر ، فى المدارك حكى الدارقطنى ان وزير المعتضد دخل على القاضى اسماعيل ، وكان نصرانيا ، فقام له ورحب به ، فرأى انكار من شهد عنده ذلك فقال : علمت انكاركم ، قال الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم » الآية هذا رجل يقضى حوائج المسلمين ، وهو سفير بيننا وبين المعتضد ، وهذا من البر ، فسكت الجماعة عند ذلك ، ولعله رأى هذه ضرورة ، وتأنس بظاهر الآية ، وخاف من أذاه ان لم يفعل ذلك ، ثم قال البرزلى : وكذا تلقيب الكافر بقائد وشيخ ، وتكنيته ، أى لاباس بهما ، وقد ورد فى الاحاديث الكنية ، وكنى فى القرءان ابا لهب ، واسمه عبد العزى ، وسمعت شيخنا نادى مقدم النصارى بتونس

بالعقائد ، وذلك اذا بنيت على ذلك مصلحة هـ منه بلفظه ، وقد اخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم عن ابن عباس قال : نهى الله المومنين ان يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة (1) من دون المومنين ، الا ان يكون الكفار عليهم ظاهرين أولياء ، فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم فى الدين ، وذلك قوله : « الا ان تتقوا منهم تقــاة » .

الدعاء للظالم بالبقاء !

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : التقية جائزة الى يوم القيامة ، قلــت : والحذر الحذر من ان يسرقه ذلك حتى يميل أو يركــن بقابــه أدنــى ميـــل أو ركــون اليهــم ، فانـــه مقــام زلــت فيــه اقــدام ، لــم تؤيــد بنــور مــن الملــك العلام ، وآل بها الحال بسببه الى استحسان احوالهم ، والميل بالقلب والقالب اليهم ، والدعاء لهم ببقاء الدولة والنصر ومــا اشبه ذلك ، مما لا تدعو ضرورة لفعله هنالك . واى ضرورة تلجىء المسلم الى مثــل هذا الفعل الوخيــم ؟ ، لولا المداهنة والميــل الى الدناءة والوصف الذميم ، نسأل الله العافية ، وقد أخــرج البيهقى فى الشعب وابن ابــى الدنيا فى الصمــت عن الحسن ، وابو نعيم فى الحلية عن سفيان الثورى قال : « من دعا لظالــم بالبقاء فقد احب ان يعصى الله فى ارضه » ، وبعضهم ، كالزمخشرى فى تفسير سورة هود ، والغزالى فى موضعين من الاحياء ، جعله حديثا مرفوعا ، قــال فى المقاصد : ولم نــره فى المرفوع ، قــال الطرطوشى فى سراجه : وهــذا ، يعنــى باب الدعاء للظالــم بالبقاء ، باب ينبغى لذوى الدين حفظه ، قال : وقد رأى بعض الفقهاء الخروج من هذه العهدة بالتعريض هـ ، واخرج ابن ابــى الدنيا فى الصمت ، وابن عدى فى الكامل وابو يعلى والبيهقى فى

---

(1) الوليجة البطانة ومن يعتمد عليه من غير الاهل .

الشعب بسند ضعيف عــن انس مرفوعا : « ان الله ليغضـــب اذا مدح الفاسق » ، وفى لفظ عزاه فى الجامع لابن ابى الدنيا فى كتاب ذم الغيبة ، وابى يعلى والبيهقى فى الشعب عن أنس ، وابن عدى فى الكامل ، عن ابى هريرة : « اذا مدح الفاسق غضب الرب ، واهتز لذلك العرش » ، قال على القارى فى شرح المشكاة : واذا كان هذا حكم من مدح الفاسق ، فكيف بمن مدح الظالم وركــن اليه ركونا ؟ ﻫ واخرج ابن عدى عن عائشة والطبرانى فى الاوسط وابونعيم فى الحلية عن عبد الله بن بشر رفعاه : « من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الاسلام » ، واسانيده ضعيفة ، واورده الغزالى بلفظ : « من اكرم فاسقا » بدل من وقر صاحب بدعة ، قال العلماء : وانما كان معينا على هدم الاسلام لان المبتدع مائل عــن الاستقامة ، فمن وقــره حاول اعوجاج الاستقامة ، لان معاونة نقيض الشيء معاونة لرفع ذلك الشيء ، ومحاولة اعوجاج الاستقامة ، عين هدم الاسلام ورفعه ، نسأل الله العافية دينــا وبدنا ، ودنيا وأخرى بمنه وكرمه آمين .

المبحث السادس

اتباع عوائد الكفار والتمذهب بمذاهبهم والعمل بقوانينهم :

ومنها ، وهـو المبحث السادس ، اتباع عوائدهم الردية ، والتمذهب بمذاهبهم المرديـة ، والأخذ بقوانينهم الفاسـدة ، والاستحسان لآرائهم الضالة الكاسدة ، وهـذه ادهى وأمـر ، وأشد واعظم واكبر ، اذ لاشك ان فى ذلك نبذا للشريعة الغـرا ، وما جاء به خير اهل الدنيا والاخرى ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ذلك يؤول الى الكفر الصريح ، أو قل هو عينه لدى كل قلب قريح .

الحرية بمفهومها الغربى :

اذ من جملة تلك القوانين البائدة ، والآراء الباردة ، ما يسمونه بالحرية وهى عندهم عبارة عن ان كل واحد يتدين بما شاء من الاديان ، ويتمذهب بما احب من المذاهب ، ويفعل فى نفسه مـا شاء من غير تحجير عليه من احد ، ذكرا أو انثى ، بحيث لا عليه فى الانتقال من دين الاسلام الى دين النصرانية مثلا ، ولا عليه فى التمذهب بمذهب المعتزلة أو القدرية مثلا ، ولا عليه فى ترك الصلاة أو الصوم أو غيرهما مما ثبت فى الدين المحمدى ، ولا عليه فى فعل الزنى أو اللواط ، أو التعامل بالربى أو غير ذلك مما نهى عنه فيه ، ولا يخفى ما فى هـذا من النسخ للشريعة المحمدية ، بـل والابطال لها بالكلية ، والالغـاء لاوامرها ، والنبذ لزواجرهـا ، والتعطيل لاحكامها ، والانسلاخ عن رسومها ومعالمها ، نسأل الله العافية .

التسوية بين المسلمين وغيرهم فى جميع الاحكام :

ومن جملتهـا التسوية بين المسلـم واليهودى والنصرانى والمجوسى وغيرهم فى جميع الاحكام ، بحيث يقتل المسلم بالكافر ولو حربيا ، ولا يتملك المسلم كافـرا مسبيا ، قاصدين بذلـك نبذ عزة الاسلام وسلطنته ، ويابى الله الا ان يتم نوره .

الوظائف المالية المفروضة على الاشخاص :

ومن جملتها الوظائف التى يوظفونها على كل احد فى نفسه وعبده ودابته وكلبه وداره وحانوته وبستانه وما أشبه ذلك فى كل سنة ، بحيث يعطى فيها عن كذا كذا ، وعن كذا كذا وهكذا ، مما لم يات به شرع ولا تقرر فى دين ، بل هو محض اكل اموال الناس بالباطل ، وشبه الجزية يوخذ من المسلم ، وقد جاء فى الشرع النهى عن ذلك والوعيد فيه ، وان لا جزية على مسلم ، اخرج احمد وابوداوود والترمذى عن ابن عباس مرفوعا : « لا تصلح قبلتان فى ارض واحدة ، وليس على مسلم جزية أى خراج يدفعه فى كل عام » ، وقد حاول بعض من لا دين له الاستدلال على جواز هذا بما أخرجه ارباب السنن الاربعة ، عن معاذ بن جبل ان النبى صلى الله عليه وسلم لما وجهه الى اليمن ، امره ان يأخذ من كل حالم ، أى محتلم ، دينارا أو عدله معافر ، وهى ثياب تكون باليمـن ، وقال : ان هذا توظيف منه عليه السلام فى كل سنة على كل محتلم من المسلمين عن رقبته ، خارج عن الزكاة الشرعية ، وهذا قلب لموضوع الأحاديث ، وخرق للاجماع ، وارضاء للمخلوق بمـا يسخط الخالق سبحانه ، فان العلماء قالوا فى هذا الحديث : انه يعنى بالدينار فيه من الحالم ، الجزية من يهود اليمن ونصاراهم ، لان أهل اليمن كان فيهم يهود ونصارى ، وفى زاد المعاد لابـن القيم قال : روى عبد الرزاق فى مصنفه ، وابو عبيد فى الاموال ،

ان النبى صلى الله عليه وسلم أمر معاذ بن جبل أن يأخذ من اليمن الجزية من كل حالم أو حالمة ، زاد أبو عبيد ، عبدا أو أمة ، دينارا أو قيمته معافر هـ ، فصرح فى هذه الرواية بان ذلك جزية ، وحكى غير واحد الاجماع على أن لا جزية على مسلم ، وعلى انه لا يحل ماله الا بطيب نفس منه ، وبعد ما عد الشيخ يوسف بن عمر فى شرح الرسالة من شروط اخذ الجزية ، ان يكون المأخوذ منه كافرا ، قال ما نصه : وانما قلنا كافرا احترازا من المسلم ، اذ الاجماع على تحريم مال امرئى مسلم الا عن طيب نفسه ، وان لا جزية على المسلم هـ ، وقال أيضا عقب الكلام على ما يؤخذ من الكفار اذا دخلوا بلاد المسلمين للتجارة ما نصه : فهذا الكلام فيما يوخذ من تجار اهل الذمة والحربيين ، وأما المسلمون فلا يجوز ان يوخذ منهم شىء بالاجماع ، الا ما ذكر عن ابن مزين انه قال : يجوز ان يوظف على المسلمين شىء اذا لم يكن هناك بيت مال هـ .

وأخرج الحاكم فى المستدرك من حديث جابر مرفوعا : « من ارضى سلطانا بما يسخط ربه خرج من دين الله » ، واخرج الطبرانى فى الكبير عن عصمة بن مالك مرفوعا : من تحبب الى الناس بما يحبوه وبارز الله بما يكره لقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان ، واخرج ابن حبان فى صحيحه وابن عساكر فى تاريخه عن عائشة مرفوعا : من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وارضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه واسخط عليه الناس ، وقال ابن مسعود ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه ، فيخرج ولا دين له ، قيل له لم ؟ قال : لانه يرضيه بسخط الله .

الحكم بغير ما أنزل الله :

ومن جملتها ، أعنى تلك القوانين ، الحكم فى القضايا النازلة بين

الخلق ، بغير ما حكم به فيها الملك الحق ، بل بضوابط عقلية ، وسياسات كفرية، وآراء فكرية، لم يات بها شرع ولا دين، ولا نزل بها ملك من ملائكة الآه العالمين، وانما هى أحكام مختلقة وافقهم فيها ضعفة الايمان ، ممن استزله وأغواه الشيطان ، حاولوا بها تبديل الشرع المطاع ، وتحويل ما له من الاوضاع ، واظهار عزتهم ، وترويج كفرهم وشركهم وكلمتهم ، والكتاب والسنة مملوان بالتحذير من هذا ، والتنفير عنه ، والوعيد عليه ، والتقريع والتوبيخ لمن يفعله أو يميل بقلبه اليه ، وكيف ايتها الامة نتمذهب بمذاهبهم ، ونأخذ فى الدين بقوانينهم واحكامهم ، أو نميل ادنى ميل اليها ، ونساعد فى زمن من الازمان عليها ، والحق تعالى يقول فى كتابه : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تومنون بالله واليوم الآخر ، الى قوله ، فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ، ويقول : « وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم ، واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك ، الى قوله ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون » ، ويقول : « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون » ثم قال : « فاولئك هم الظالمون » ثم قال : « فاولئك هم الفاسقون » .

قال الطرطوشى فى سراجه : فكل من لم يحكم بما جاء من عند الله ورسوله كملت فيه هذه الاوصاف الثلاثة : الكفر والظلم والفسق ه ، ويقول : « انما كان قول المومنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا ، وأولئك هم المفلحون » ، ويقول : « فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » ، ويقول : « وما كان لمومن ولا مومنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان تكون لهم الخيرة

من امرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » ، ويقول : « ومن يشاقق الرسول (أى يخالفه) من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المومنين (اى وهو سبيل الكافرين) نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » ويقول : « لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »، ويقول : « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم » .

وهل يصح لمومن بعد سماعه لهذه الآيات ووعيدها ، وتقريعها وتوبيخها وتهديدها ، ان يميل الى غير ما حكم الله ورسوله به أو يصغى اليه ، أو يعول فى شىء من اموره عليه ، لا والله الا ان كان ضعيف الايمان ، أو عديم الاسلام والدين والايقان .

ليس منا من عمل بسنة غيرنا :

وكيف ايتها الامة ذلك أيضا ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « والذى نفسى بيده لا يومن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ، اخرجه الشيخ أبو القاسم الاصبهانى فى كتاب الحجة وغيره باسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو ، زاد الطبرانى فى روايته : « لا يزيغ عنه » ويقول : « من رغب عن سنتى فليس منى » ، اخرجه مسلم عن انس ، وابن عساكر عن ابن عمر ، ويقول : « ليس منا من عمل بسنة غيرنا » ، أخرجه الديلمى عن ابن عباس ، ويقول : « من احدث فى امرنا هذا ما ليس منه فهو رد » أى مردود عليه ، اخرجه الشيخان عن عائشة ، وفى رواية لمسلم ، « من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد » وفى اخرى لأبى داوود ، « من صنع امرا على غير امرنا فهو رد » ويقول : « اياكم والمحدثات فان كل محدثة ضلالة » اخرجه ابوداوود والترمذى ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجة ، وابن حبان فى صحيحه ، عن العرباض بن سارية ، ويقول : « اياكم ومحدثات

الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » أخرجه احمد وابوداوود والترمذى وابن ماجه والحاكم عن العرباض أيضا

ويقول : « من احدث حدثا ، أو آوى محدثا ، أو ادعى الى غير ابيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » اخرجه الترمذى عن ثوبان، والطبرانى فى الكبير عن ابن عباس، ويقول : « أحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدى هدى محمد ، الا واياكم ومحدثات الامور ، فان شر الامور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » ، اخرجه ابن ماجة بسند جيد عن ابن مسعود ، ويقول : « لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى الا هالك » ، أخرجه احمد والطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك ، وابن ابى عاصم فى كتاب السنة عن العرباض بن سارية ، ويقول : « من ابتدع بدعة ضلالة لا ترضى الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها ، لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجة عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن ابيه عن جده .

ويقول : « لا يقبل الله لصاحب بدعة صلاة ولا صوما ولا صدقة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا ، يخرج من الاسلام كما يخرج الشعر من العجين » اخرجه ابن ماجة عن حذيفة ، والديلمى عن أنس ، ويقول : « يجىء قوم يميتون السنة ، ويوغلون فى الدين ، فعلى أولئك لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس اجمعين » ، أخرجه الديلمى عن ابى هريرة ويقول : « تعمل هذه الامة برهة بكتاب الله ، ثم تعمل برهة بسنة رسول الله ، ثم تعمل بالراى ، فاذا عملوا بالراى فقد ضلوا وأضلوا » ، اخرجه ابويعلى عن أبى هريرة أيضا ، ويقول : « لكل عمل شرة ، (اى نشاط وهمة) ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته الى سنتى

فقد اهتدى » ، وفى لفظ ، افلح ، ومن كانت فترته الى غير ذلك فقد هلك » اخرجه ابن ابى عاصم ، وابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر ، ويقول : « ابغض الناس الى الله تعالى ثلاثة : ملحد فى الحرم ، ومبتغ فى الاسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرىء بغير حق ليهريق دمه » اخرجه البخارى عن ابن عباس ، ويقول : « احمق الحمق واضل الضلال ، قوم رغبوا عما جاء به نبيهم الى نبى غير نبيهم ، والى أمة غير امتهم » اخرجه الديلمى عن أبى هريرة ، ويقول : « كفى بقوم حمقا أو قال ضلالا ، ان يرغبوا عما جاء به نبيهم الى غير نبيهم او كتاب غير كتابهم ، فنزلت : « اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » ، اخرجه الدارمى وابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم وغيرهم عن يحيى ابن جعدة .

ويقول : « لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، انا حظكم من النبيئين وأنتم حظى من الامم » أخرجه البيهقى فى الشعب عن عبد الله بن الحارث ، ويقول : « انكم اليوم على دين ، وانى مكاثر بكم الامم ، فلا تمشوا بعدى القهقرا » ، اخرجه أحمد عن جابر ، ويقول من جملة حديث : « فليذاذن رجال عن حوضى كما يذاذ البعير الضال ، فأناديهم فأقول : الا هلم فيقال : انهم قد بدلوا بعدك ، فأقول : « فسحقا فسحقا » أى فابعدهم الله بعدا ، أو فطردهم طردا » ، اخرجه مالك فى الموطا ، ومسلم وابوداوود من حديث أبى هريرة ، ويقول : « انها ستكون فتنة ، قيل فما المخرج منها ، قال : كتاب الله فيه نبا من قبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره اضله الله » ، الحديث ، اخرجه الترمذى عن على ، ويقول : « من فارق الجماعة (اى وهى ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه) شبرا فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » ، اخرجه احمد وابوداوود

والحاكم فى المستدرك عن ابى ذر ، وفى رواية للحاكم عنه : « من خالف جماعة المسلمين شبرا فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » ، ويقول : « ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم اشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها » اخرجه الدارقطنى فى الكبير وابونعيم فى الحلية والبيهقى فى السنن ، عن أبى ثعلبة الخشنى ، وحسنه النووى ، وابوبكر بن السمعانى ، وصححه ابن الصلاح ، والاحاديث فى مثل هذا كثيرة .

الحكم حكمان : حكم الله وحكم الجاهليـــة :

وقد اخرج ابن بشران عن على قال : « ثلاثة لا يقبـل الله معها عملا : الشرك والكفر والراى ، قالوا : يا امير المومنين ما الرأى ؟ قال تدع كتاب الله وسنة نبيه ، وتعمل بالرأى ، واخرج ابو الشيخ عن السدى قال : الحكم حكمان : حكم الله ، وحكم الجاهلية ، ثم تلا هذه الآية : « افحكم الجاهلية يبغون ، ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون » ، واخرج عبد بن حميد فى مسنده بسند صحيح عن ابن عمر قال : « صلاة السفر ركعتان ، من خالف السنة كفر » ، واخرج الالكاءى فى السنة ، وابن ابى حاتم وغيرهما عن عمر بن عبد العزيز قال : سن رسول الله صلى عليه وسلم وولاة الامر من بعده سننا ، الاخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلهـا ، ولا النظر فى رأى مـن خالفها ، من اهتدى بهـا مهتد ، ومن استنصر بها منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيـل المومنين ولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » ، وفى جامع خليل : ويجب تسليم السنن ، ولا تعارض بقياس ولا براى أى فأحرى ان لا تجوز معارضتها بقوانين رومية ، بل ربما كان ذلك كفرا ، نسأل الله العافية .

وفى أواخر كتاب الجامع ، من نوازل البرزلى ، نقلا عن بعض السلف قال : الشريعة كسفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق هـ ، وفى الشفا : ان بعض عمال عمر بن عبد العزيز كتب اليه يخبره بحال باده ، وكثرة لصوصه ، هل يأخذهم بالظنة اى التهمة أو يحملهم على البينة ، وما جرت عليه السنة ؟ فكتب اليه عمر : خذهم بالبينة وما جرت عليه السنة فان لم يصلحهم الحق فلا اصلحهم الله .
وعن بعض الملوك انه كان يقتل سراق بلده بالسياسة ، ولا يقطعهم كما ورد فى الشرع ، فكانت تكثر السرقة ، فشكا ذلك لبعض علماء زمانه ، فقال له : اعمل بالسنة تندفع بها الكثرة ، فعمل بها فقلت السرقة ببركة اتباعه لها ، وفى روح البيان ، لدى قوله تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » ما نصه : وفى الحديث : « يؤتى بوال نقص من حد سوطا فيقال : لم نقصت ؟ فيقول : رحمة لعبادك ، فيقال له : انت ارحم منى ، انطلقوا به الى النار ، ويوتى بمن زاد سوطا فيقال له : لم زدت ؟ فيقول : لينتهوا عن معاصيك ، فيقال له : انت احكم منى ، فيومر به الى النار » هـ .

وفى معيد النعم للتاج السبكى ما نصه : ومن حقهم ، يعنى نواب السلطنة ، القاء مقاليد الاحكام الى الشرع ، لأنه لا حاكم الا الله تعالى ، وان تفعل العقول شيئا ، فاذا رأيت من يعيب على نائب السلطان انقياده للشرع ، وينسبه بذلك الى اللين والرخاوة ، فاعلم انه يخشى عليه ان يكون ممن طبع على قلبه ، وان عاقبته وخيمة ، بل حق على كل مسلم الرضى بحكم الله تعالى والانقياد له ، ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون ، الكافرون ، الظالمون هـ ، وفيه أيضا ما نصه : وعليه ، يعنى الحاجب ، رفع الامور الى الشرع ، وان يعتقد ان السياسة لا تنفع شيئا ، بل تضر البلاد والرعايا ، وتوجب الهرج والمرج ، ومصلحة الخلق

فيما شرعه خالقهم ، الذى هو اعلم بمصالحهم ومفاسدهم ، وشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم متكفلة بجميع مصالح الخلق فى معاشهم ومعادهم ، ولا ياتى الفساد الا من الخروج عنها ، ومن لزمها صلحت ايامه واطمانت ، الى ان قال : فمن خطر له انه ان لم يسفك الدماء بغير حق ، ويضرب المسلمين بغير حق ، لم تصلح ايامه ، فعرفه انه باغ ، جهول ، احمق ، حمار ، دولته قريبة الزوال ، ومصيبته سريعة الوقوع ، وهو شقى فى الدنيا والآخرة ، واذا أخذه الله تعالى لم يفلته ، قال الله تعالى : « فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » اخبر جل وعلا انا لا نومن حتى نحكم هذا النبى العظيم ، ثم اذا حكم لم نجد فى أنفسنا حرجا وضيقا وقلقا من حكمه ، بل نطمئن له ، ونسلم وننقاد ونذعن ، والا فنحن غير مومنين ، فكفى بهذه الآية واعظا وزاجرا لمن وفقه الله تعالى هـ .

رأى الامام مالك فى تجاوز حدود القوانين الاسلامية :

وفى شرح الامام الحطاب لمختصر خليل ، فى باب الحج ، لدى قوله : كاحرامه أوله ما نصه : فائدة قال ابن مسدى فى ذطبة منسكه : وعن سفيان بن عيينة قال : قال رجل لمالك بن انس : من أين أحرم ؟ قال : من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعاد عليه مرارا وقال : ان زدت على ذلك ؟ قال : فلا تفعل ، فانى أخاف عليك الفتنة ، قال : وما فى هذا من الفتنة ، انما هى أميال ازيدها ؟ فقال مالك : قال الله : « فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » ، قال : وأى فتنة فى هذا ؟ قال : وأى فتنة اعظم من ان ترى انك أصبت فضلا قصر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أو ترى ان اختيارك لنفسك خير من اختيار الله تعالى لك ، واختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم هـ ؟ .

وسئل شيخ الاسلام أبو محمـــد سيدى عبد القادر الفاسى رضى الله عنه ، حسبما فى نوازله الكبرى ، عن مسألة تظهر من جوابه ، فأجاب بما نصه : الجواب والله الموفق سبحانه ، ان ما ذكر من اخذ المال من الجانى بسرقة أو زنى أو قتل، أو غير ذلك من الفواحش التى رتب الشارع عليها ما رتب ، وما يزعمه فاعل ذلك من رعاية المصالح ، باطل ، بل هو افتيات وتقدم على الله ورسوله لمجرد الشهوة والهــوى ، والمصلحة انما هى فيمـا شرعه الله لعباده ، وقد قال تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » ، ومن لا تصلحه السنــة لا تصلحه البدعة ، وفتح هذا الباب ، والقول بما ذكر ، يجر الى تعطيل الشرائع ودثورها ، والرجوع الــى قوانين وسياســات ، كسياسات كسرى وقيصر ، وكفى بذلك جرأة واثما مبينا هـ .

فتأمل هذا كله تعلم ما فى اتباع تلك القوانــين الفاسدة ، والآراء الضالة الكاسدة ، من الخروج عن الشريعة المطهرة ، والنبذ لاحكامها المعتبرة ، وما وراء ذلك والعياذ بالله تعالى الا الكفر الصريح الظاهر ، اعاذنا الله منه ، ومن كل ما يجر الى هذا الامر المفظع الخاسر . هذا ان لم نستحل ذلك ، ولم نعتقد حقية مـا هنالك ، واما ان استحللناه ، أو اعتقدنا حقية اصله ومبناه ، فقد كفر المستحل ومعتقد الحقية والعياذ بالله تعالى جزما ، وخرج عن الدين المحمدى حتما ، نسأل الله العافية ، وهذا هو مراد اعداء الله تعالى واعداء رسوله صلى الله عليه وسلم منا ، ولا يرضون منا بدونه ولا بغيره ، قال تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » ، وقال : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هـم

فيها خالدون » ، وقال : « ودت طائفة من اهل الكتاب لو يضلونكم » ، وقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا » وقال : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » ، وقال : « ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » ، وقال : « ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين » ، وقال : « ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » .

وكيف ، معاشر المسلمين واهل الاسلام ، يليق بآحادنا ان يسلك هذه المسالك ، أو يأخذ بقلامة ظفر من ليلها الحالك ؛ نعوذ بالله من ذلك ، ومن كل ما يؤدى الى شىء مما هنالك ، ونسأل الله العظيم ، بجاه نبيه وحبيبه الكريم ، ان يطهرنا وساحتنا من هذه الادناس ، ويحفظنا من كيد الانجاس الارجاس ، بمنه آمين .

وقد بلغنا ان بعض المتهورين فى دينهم يسمى احكامهم القانونية عدلا ، فان اراد به العدل الحقيقى ، وان نفس تلك الاحكام الكفرانية حق وصواب ، فهو كافر بالله تعالى وبرسوله ، مرتد من غير ارتياب ، لان ذلك خلاف ما علم ضرورة ، كتابا وسنة واجماعا من ذمها والتشنيع عليها ، وان العدل محصور فى شريعة الله التى حواها كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « ان الله يامر بالعدل والاحسان ، الآية » ، وقال عليه الصلاة والسلام لذى الخويصرة ، وهو رجل من بنى تميم ، لما قال له اعدل : « ويلك ومن يعدل اذا لم أعدل ، قد خبت وخسرت ان لم اكن اعدل » ، رواه البخارى عن أبى سعيد ، وان اراد انها عدل فى الجملة من حيث ما فيها من التسوية بين الشريف والمشروف ، والامير والمأمور لا غير ، لم يكفر ، ولكنه يعاقب اشد العقوبة لما تضمنه كلامه من تفخيم شأنهم ، وأوهمه خطابه من حقية قانونهم، ويقال حينئذ : التسوية بين من ذكر فى الاحكام

الحقية حكم شرعى ، ومن الشرع تلقاه أولئك الكفرة ، وانما حرفه فسقة الولاة ونحوهم .

وقد سئل الشيخ سيدى عبد القادر الفاسى حسبما فى اجوبته الستينية عن رجل قال فى يهودى مات : ما كان اليهودى فلان الا رجلا مليحا ، كان يقول الحق ويعمل به الله يرحمه ، فاجاب بما محصله : ان هذه مقالة جاهل مغرق فى الجهالة ، فان كان مراده ان ما كان عليه من الكفر ، وما كان ينطق به منه حق ، فهو كافر ، لان استحسان الكفر واعتقاد حقيته كفر ، وان كان قصده انه ينصف من نفسه ، ولا يريد ان يبخس احدا حقه ولا يظلمه ، فالامر فيه خفيف ، واما قوله الله يرحمه ، فهو غير جائز لقوله تعالى : « ما كان للنبىء والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » وقوله : « ولا تصل على احد منهم مات ابدا » ، انظره واجتهد بالله عليك ان كانت لك قدرة فى كف هذه المفسدة عن المسلمين ، ودفعها عن ساحتهم الدفع العظيم المبين ، وشد على هذه الشريعة المحمدية يد الضنين ، فانه لا نجاة لك الا بذاك يوم العرض على رب العالمين ، والله سبحانه يتولى هداك وهدانا أجمعين ، ويجعلنا لسلف الامة وصالحها من المتبعين ، بمنه وكرمه وجوده وفضله آمين .

المبحث السابع

الاضرار بالمسلمين بالتسلط والظلم والافساد

ومنها ، اعنى مواد العطب والاختلال ، واسباب الشر وتبدل الاحوال ، وهو المبحث السابع ، الاضرار بالمسلمين ، والتسبب فى الاذاية العظيمة للمومنين ، بالتسلط عليهم بالجور والظلم والافساد ، والبغى والعتو وغير ذلك من العناد ، وتسليط قساة القلوب ومن لا يكاد يعرف الله عليهم ، وتوجيه الوجوه التى لا ترجو لقاءه اليهم ، وهذا أيضا من اعظم أسباب الوبال ، والامور الموذنة بالهلاك والعذاب والنكال ، اذ الظلم دمار ، والعدل عمار ، ودار الظلم خراب ولو بعد حين ، والعدل عامرة بيقين .

واجمع الحكماء والعقلاء على ان الملك يثبت مع الكفر ، ولا يثبت مع الظلم ، وقال كعب لابى هريرة : فى التوراة : من يظلم يخرب بيته ، فقال أبوهريرة : وذلك فى كتاب الله « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » ويقال : اربعة لا يثبت معها الملك : غش الوزير ، وسوء التدبير ، وخبث النية ، وظلم الرعية ، فالظلم ادعى شىء الى سلب النعم ، وحلول النقم ، وما ورد فى التحذير منه ، ووعيد مرتكبه ، فى الكتاب والسنة كثير ، وهو فى اكثر الدواوين شهير ، وكفى فيه قول الله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » الآية ، قال ميمون بن مهران : كفى بهذه الآية وعيدا للظالم ، وتعزية للمظلوم ، وقوله : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » وقوله : « فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين » ، وقوله : انا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » الآية ، وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم

فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : « يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى ، اى تنزهت وتعاليت عنه ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث ، اخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى ذر ، ومعنى جعلته بينكم محرما ، حكمت بتحريمه عليكم ، قال الهيثمى وغيره فى شرح الاربعين النووية : وهذا مجمع عليه فى كل ملة ، لاتفاق سائر الملل على مراعاة حفظ الانفس ، فالانساب ، فالاعراض ، فالعقول ، فالاموال ، والظلم قد يقع فى هذه أو بعضها ، قال : واعلاه الشرك ، قال تعالى : « ان الشرك لظلم عظيم » وهو المراد بالظلم فى اكثر الآيات ، قال تعالى : « والكافرون هم الظالمون » ، ثم تليه المعاصى على اختلاف انواعها هـ .

ومعنى لا تظالموا ، لا يظلم بعضكم بعضا ، فان الله تعالى يعاجل الظالم بالعقوبة فى الدنيا ، ثم يقتص منه فى الآخرة للمظلوم ، بقدر ظلامته ، وقد يمهله الله تعالى فى الدنيا ، زيادة فى استدراجه ليزداد عقابه ، « انما نملى لهم ليزدادوا اثما » فيكون امهاله عين عقابه ، وتقدم حديث أبى الشيخ بن حيان فى كتاب التوبيخ ، عن ابن عباس مرفوعا : قال الله تبارك وتعالى : « وعزتى وجلالى لانتقمن من الظالم فى عاجله وآجله » الحديث ، وفى الصحيحين عن أبى موسى مرفوعا : « ان الله ليملى الظالم ، فاذا اخذه لم يفلته ، ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ، ان اخذه اليم شديد » ، وفى حديث الطبرانى فى الصغير والاوسط ، عن على مرفوعا : يقول الله تعالى : « اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيرى » ، وعن ابى ذر قال : قلت يا رسول الله ، ما كانت صحف ابراهيم ؟ قال : « كانت امثالا كلها ، أيها الملك المسلط ، المبتلى المغرور ، انى لم ابعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فانى لا اردها ولو كانت من كافر » الحديث ، اخرجه ابن حبان

فى صحيحه ، والحاكم والبيهقى ، واخرج الطبرانى عن معاوية وعن ابن مسعود رفعاه : لا يقدس الله (اى لا يطهر ويرفع) أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع » ، واخرج البزار والطبرانى من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى ، عـن أبيه عن جـده مرفوعا : « انـى اخاف على امتى من اعمال ثلاثة ، قالوا : ما هى يا رسول الله ؟ قال : زلة عالم ، وحكم جائر ، وهوى متبع » .

5 عقوبات الاهية للمسلمين ل 5 انحرافات خطيرة تصدر منهم :

وأخرج البيهقى عن ابن عمر قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « كيف انتم اذا وقع فيكم خمس ، واعوذ بالله ان تكون فيكم ، أو تدركوهن ؟ ، 1 — ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط ، يعمل بها فيهم علانية ، الا ظهر فيهم الطاعون ، والاوجاع التى لم تكن فى اسلافهم . 2 — وما منع قوم الزكاة الا منعـوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، 3 — وما بخس قوم المكيال والميزان الا أخذوا بالسنين ، وشدة المئونة ، وجـور السلطان ، 4 — ولا حكم أمراؤهم بغير ما انزل الله الا سلط الله عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض ما فى ايديهم ، 5 — وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه الا جعل الله بأسهم بينهم (1) .

وقد اخرجه الحاكم بنحوه من حديث بريدة وقال صحيح على شرط مسلم ، قال العلماء : والظالم منحط عن رتبة النبوءة

---

(1) نعيش اليوم الظاهرات الاجتماعية الخمسة مع عقوباتها الالاهية كما لا يخفى على أحد ، وهذا من معجزات الاخبار النبوية المتعلقة بما سيحدث للمسلمين بعد عـصر الرسول صلى الله عليـه وسلم ، والظاهـرة الاولى جاءت بصيغة التعميم ، اى ليست خاصة بالمسلمين ، وطاعون مرض السيدا الذى انتشر فى الغرب ، واخذ يدب الـى بعض البلدان الاسلامية ، اكبر دليل على ان الاعجاز القرآنى والنبوى يفرض نفسه على البشرية فى مختلف العصور ، بمطابقته لواقعها المعيش ، خاصة واقع المجتمعات الاسلامية .

لقوله تعالى : « لا ينال عهدى الظالمين » ، ورتبة الولاية والحفظ والرعاية ، لقوله : « وان الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين » ، وقوله : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون » ، هذا فيمن ركن الى الظالم ، فكيف بالظالم نفسه ، ورتبة السلطنة ، لقوله : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » وقوله : « انا مهلكو أهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين » ، وقوله : « وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون » ، وعن نظر الخلائق ومحبتهم ، لحديث : « جبلت القلوب على حب من احسن اليها ، وبغض من اساء اليها » ، والظالم غير مفلح فى الدنيا ، لقوله : « انه لا يفلح الظالمون » خاسر فى الآخرة لحديث « ان الظلم ظلمات يوم القيامة » اخرجه الشيخان عن ابن عمر .

وكيف يولى على المسلمين من لا يراقب فيهم المولى ، ويعاملهم بانواع النكال من النهب والضرب والسجن بل اعلا ، والنبى صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من ولى من امر المسلمين شيئا ، فأمر عليهم أخدا محاباة ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه ، صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم » ، أخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابى بكر الصديق ، ويقول : « من استعمل رجلا من عصابة (أى جماعة) وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمومنين » ؛ اخرجه الحاكم ايضا عن ابن عباس ، وكفى فى ذلك ايضا ، وفى التسلط بالجور والظلم ، ما قيل من انه يوخذ للمظلوم بأخذ ماله من حسنات ظالمه ، فى كل دانق سبعون صلاة مقبولة ، زاد بعض مشايخ الحنفية ، فى جماعة هذا فى الظلم بأخذ المال ، فكيف به بالضرب والنكال ، فكيف به بالقتل ونحوه ، ، عافانا الله بمنه .

مفلس ملعون من يؤذى المومنين ويضربهم :

وفى حديث أبى هريرة مرفوعا : « اتدرون من المفلس ؟ قالوا :

المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال : ان المفلس من امتى من
ياتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، وياتى وقد شتم هذا ،
وقذف هذا ، واكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى
هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل ان
يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى
النار » ، رواه مسلم والترمذى ، وكفى فيه أيضا ان فيه الاضرار
الكبير بالمومنين ، والاذاية العظيمة لاهل (لا اله الا الله)
المسلمين ، وقد قال تعالى : « والذين يوذون المومنين والمومنات
بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا » ، واخرج
الترمذى وقال : غريب عن أبى بكر الصديق مرفوعا : « ملعون
من ضار مومنا أو مكر به (أى مبعد من رحمة الله تعالى يوم
القيامة) ان لم يدركه العفو » ، وأخرج الرافعى عن على مرفوعا :
« ليس منا من غش مسلما أو ضره أو ماكره » ، وأخرج البيهقى فى
الشعب عن ابن عمرو مرفوعا : « من نظر الى أخيه نظرة يخيفه بها
اخافه الله يوم القيامة » ، واخرج الطبرانى فى الاوسط عن
ابن عمر مرفوعا : « من أخاف مومنا كان حقا على الله ان لا يؤمنه
من افزاع يوم القيامة » ، واخرج ايضا بسند حسن عن انس قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل : « رأيتك تتخطى
رقاب الناس وتوذيهم ، من آذى مسلما فقد آذانى ومن آذانى
فقد آذى الله » .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة مرفوعا : « ان الله تعالى
قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » (أى اعلمته بأنى
محارب له) ، ونظيره قوله تعالى : « فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب
من الله ورسوله » ، ويقرب منه « انما جزاء الذين يحاربون الله
ورسوله » الآية ، ومن حاربه الله ، أى عامله معاملة المحارب ،
من التجلى عليه بمظاهر القهر والجلال والعدل والانتقام ، لا يفلح
ابدا ، بل لا بد والعياذ بالله تعالى من ان يموت على الكفر ، نسأل

الله العافية ، قال الفاكهانى : من حاربه الله اهلكه ، وقال غيره : ايذاء أولياء الله علامة على سوء الخاتمة ، كأكل الربا وما من مومن الا ويمكن ان يكون وليا لله ، لان سر الخصوصية محجوب عن اكثر الخلق ، لا يطلع عليه الا قليل ممن اطلعه الله عليه ، وقد قيل :

فلا تحقرن شخصا من الناس علـه
ولـى الـه العالمـين ولا تـدرى
فذو القدر عند الله خاف عن الورى
كما خفيت عـن علمهم ليلـة القدر

وحينئذ فمن آذى مومنا ، اى مومن كان ، فقد تعرض لهذا الوعيد العظيم بل نقول : المومنون كلهم أولياء الله حقا ، لقولـه تعالى : « الله ولى الذين آمنوا » وقال بعض العارفين ايـاك ومعاداة اهـل (لا اله الا الله) فان لهـم من الله تعالى الولاية العامة وهم أولياء الله ، وان أخطأوا وجاءوا بقـراب الارض خطايا ، لا يشركون بالله شيئا ، فان الله تعالى يتلقاهم بمثلها مغفـرة .

وقد عدوا اذاية المؤمن والاضرار به من الامور التى تقارب الكفر ، وانشدوا فى ذلك :

كن كيف شئت فان الله ذو كرم — وما عليك اذا اذنبت من باس
سوى اثنتين فلا تقربهما ابـدا — الشرك بالله والاضرار بالناس

وهذا لان حقوق الخلق مبنية على المشاحة والتعسير ، والله ذو الكرم الغزير ، ولذا كان سفيان الثورى يقول : لأن تلقى الله تعالى بسبعين ذنبا فيما بينك وبينه أهون عليك من ان تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد . وعن ابى بكر الوراق قال : اكثـر ما ينـزع الايمان من العبد انما ينزع منـه عند الموت ، قال :

فنظرنا فى الذنوب فلم نجد ذنبا أسرع نزعا للايمان من ظلم العباد .

ويقال : الذنوب ثلاثة : ذنب لا يغفره الله وهو الشرك ، وذنب لا يتركه الله ، وهو مظالم العباد ، وذنب لا يعبأ الله به ، وهو سائر السيئات ، بمعنى انه يغفرها لمن استغفر ، ولمن شاء ، دون ذلك ، فافهم ، وقد جاء هذا فى عدة احاديث فلتنظر ، وجاء ايضا انه ليس شىء اكرم على الله من المومن ، وأنه أكرم على الله تعالى من بعض ملائكته ، ومن ملائكته المقربين ، وجاء أيضا فى حرمته انها اعظم عند الله من حرمة الكعبة والحجر الاسود الذى فيها ، وانه اعظم حقا منهما ، واذا كان بهذه المثابة عند الله ، كانت اذايته وظلمه والاضرار به عظيمة عند الله تعالى ، يخاف على فاعلها من ان يعاجله الله بسوء المنقلب فى الدنيا ، وبالعذاب المهين فى الدار الآخرة .

وقد جرت عادة الله تعالى بان الولاة اذا طغوا وفسدوا تسلط عليهم العدو ، فكدر معيشتهم ، وافسد عليهم عيشهم ، وتجرأ عليهم بالاذلال وأخذ البلاد والاموال ، وربما ادى ذلك عند تماديهم على الطغيان ، الى استئصالهم ، واستيلاء العدو على جميع ما بأيديهم ، نسأل الله العافية وقد تقدم قريبا قوله عليه السلام فى حديث ابن عمر مرفوعا : « ولا حكم امراؤهم بغير ما انزل الله ، الا سلط الله عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض ما فى ايديهم » ، وفى حديث الطبرانى عن ابن مسعود مرفوعا : «لا تظالموا فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستسقوا فلا تسقوا وتستنصروا فلا تنصروا » ، ومن العجائب ان من الظلمة من يكون منهمكا فى الفجور والمعاصى وأكل الحرام ، وما اشبه ذلك ، غير مستقبح لحاله ، ولا خائف من عاقبته ومآله ، مصرا على امره ، مصمما على البقاء على ظلمه وجوره ، وهو مع ذلك يذكر الله ، ويصلى

على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويقرأ القرآن ، ويزور الاولياء ، ويرى ان ذلك يكفيه ، مع أن هذا استخفاف بالله ورسوله واوليائه ، مؤذن بخلو القلب من التعظيم ، يخاف على صاحبه اشد الخوف ، وهو معرض للهلاك الا ان يتداركه الله ، وذكره حجة عليه ، كالقوم الذين يقرأون القرآن ولا يجاوز تراقيهم ، وقد جاء ان الله تعالى قال لموسى عليه السلام : قل للظالمين لا يذكرونى فانى آليت على نفسى ان أذكر من ذكرنى ، فاذا ذكرونى ذكرتهم بالغضب ، وجاء : رب قارىء والقرآن يلعنه .

وفى ارشاد السارى فى شرح حديث ، « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ما نصه : هذه الفضائل الواردة فى التسبيح ونحوه كما قال ابن بطال وغيره ، انما هى لأهل الشرف فى الدين والكمال ، كالطهارة من الحرام والمعاصى العظام ، فلا يظن ظان أن من أدمن الذكر ، وأصر على ما شاء من شهواته وانتهاك دين الله وحرماته ، انه يلتحق بالمتطهرين المتقدسين ، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس مع تقوى ولا عمل صالح هـ ، ويزيدهم اغترارا ما يرونه من المهلة ، ويحملون تأخير العقوبة وعدم المعاجلة بها فى الدنيا على استحقاق الوصلة ، وذلك من المكر الخفى ، وامارات الاستدراج ، قال تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به (اشارة الى مخالفتهم وعصيانهم) ، فتحنا عليهم أبواب كل شىء (اى اسباب العافية وابواب الرفاهية) حتى اذا فرحوا بما اوتوا (أى من الحظوة الدنيوية ولم يشكروه عليها برجوعهم منها الينا) اخذناهم بغتة (أى فجأة) فاذا هم مبلسون » (أى ءايسون من كل خير) ، وقال : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» قال ابن عطاء : كلما احدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ، وانسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة ، وفى الحديث : « اذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فانما هو استدراج ، ثم تلا قوله تعالى : « فلما نسوا » الآية ، رواه احمد عن عقبة بن

عامر ، وفى الحكم : خف من وجود احسانه اليك ودوام اساءتك معه ، أن يكون ذلك استدراجا (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال ابن السماك فى بعض مواعظـه : لقد أمهلكم حتى كأنـه اهملكم ، ولقد ستر حتى كأنه غفر ، نسأله سبحانه وتعالـى ان يصلح جميع الولاة ، ويوفقهم لما تصلح به الحياة ، ويعود عليهم نفعه بعد الممات ، انه ولي ذلك ، والمولى لما هنالك ، بمنه وكرمه آمـين .

المبحث الثامن

الاشتغال باللهو والطرب ومفاسد الحياة المالية

ومنها ، وهو المبحث الثامن ، اشتغالنا باللهو والطرب والهزء والباطل ، وانفاقنا للاموال العظيمة فى انتخاب المناكح والمراكب والمشارب والمآكل ، وتشييدنا للابنية والدور ، واعلاؤنا للغرف والمساكن والقصور ، حتى كأننا متركون ، وفى الدنيا مخلدون ، أو أننا لا نتيقن الموت ، والمعاجلة بالفوت ، أو اننا لا نحاسب ، ولا نثاب ولا نعاقب ، أو أننا لهذا خلقنا ، أو لمثله أخرجنا من العدم ورزقنا .

كلا بل ما خلق الانسان الا للعلم والعمل ، والاشتغال بما يقرب الى الله عز وجل ، قال تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شىء قدير ، وان الله قد أحاط بكل شىء علما » ، وقال : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ، ولم يتركنا الحق سبحانه سدى وهملا ، نتصرف باختيارنا كيف شئنا ، ونتناول من شهوات البطون والفروج ما احببنا ، بل بعث الينا الرسل ، وأمرنا على لسانهم ونهانا ، ووعدنا واوعدنا وحمانا ، وفى التنزيل : « أيحسب الانسان ان يترك سدى » ، وما كان سبب ابتلاء من ابتلوا بغلبة الكفار عليهم والاستيلاء على بلادهم ، كأهل الاندلس وغيرهم ، الا اشتغالهم بمثل هذا ، فلم يشعروا الا وهم فى أسر عدوهم ، مستوليا عليهم وعلى معاقلهم ، فندموا حيث لا ينفعهم الندم ، وباءوا بغضب من الله ومأواهم ، ان لم يتجاوز عنهم ، جهنم ، وهذا الدين المحمدى

لا يايق به خصوصا لاهل الولاية ، ليحصل لهم من الله كمال الحفظ ودوام الرعاية ، الا الاقتصار على الكفاف ، والميل الى الزهد والقناعة والعفاف ، كما كان عليه الصحابة فمن بعدهم من افاضل الولاة ، دون غيرهم من الجبابرة والطغاة .

مؤسس الدولة الادريسية كان مثلا فى التقشف والزهد :

وأنظر الى حالة المولى الشريف ، قطب هذا المغرب الاقصى وحاميه سيدنا ومولانا ادريس رضى الله عنه ، فانه كان متقللا من الدنيا غاية ، مقتصرا فيها على ما تدعوه الضرورة اليه مأكلا وملبسا ومسكنا ، وكان يحتزم بحزام من ليف النخل ، ويتوكأ فى الخطبة على عصا معوجة خلقة من غير نجر ولا تمليس ، وكانت همته ، رضى الله عنه ، كلها فى الجهاد فى سبيل الله ، وقتال اعدائه ، حتى فتح الله عليه ما فتح ، اقتداء فى ذلك كله بجده المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبالخلفاء الراشدين بعده ، اعاد الله علينا من بركاته وبركاتهم آمـين .

وفى الحديث : « اياكم والتنعم » أى التعمق والمبالغة والافراط فيه ، فان عباد الله ليسوا بمتنعمين ، اخرجه أحمد ، والبيهقى فى الشعب بسند رواته ثقات ، عن معاذ بن جبل مرفوعا ، وفيه : « ان مما اخشى عليكم شهوات الغي فى بطونكم وفروجكـم ، ومضلات الهوى » ، (1) اخرجه ، احمد والبزار والطبرانى فـى معاجمه الثلاثة عن ابى برزة الاسلمى ، وفيه : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ذكر الله ، وما والاه (أى ناسبه أو قاربه) وعالما أو متعلما » ، اخرجـه الترمذى وابن ماجه عـن ابى هريرة ، والطبرانى فى الاوسط عن ابن مسعود وفى افظ : « الا ما كان منها

---

(1) جمع مضلة ، اي متلفة ، يقال : تمـادى فى اضاليل الهوى ، وهـى الاباطيل المضللة المتلفة .

لله عز وجل » أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، والضياء عن جابر . وفى آخر : « الا ما ابتغي به وجه الله » ، أخرجه الطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء ، وفى آخر : « الا أمرا بمعروف ، أو نهيا عن منكر ، أو ذكرا لله » ، اخرجه البزار عن ابن مسعود وفيه : « كل شىء يلهو به ابن آدام فهو باطل الا ثلاثة : رميه عن قوسه ، وتاديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فانهن من الحق » ، أخرجه أبوداوود والترمذى وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن عقبة بن عامر الجهنى ، وفيه : « كل شىء ليس من ذكر الله فهو لهو وسهو الا اربع خصال : مشى الرجل بين الغرضين ، وتأديبه فرسه، وملاعبته اهله ، وتعليم السباحة » ، اخرجه الطبرانى فى الكبير عن جابر بن عبد الله ، أو جابر بن عمير الانصارى ، وفيه : « اما ان كل بناء وبال على صاحبه الا ما لا والا ما لا » ، اى ما لابد للانسان منه ، مما يستره واهله من الحر والقر والسباع ، ويمنع من تقحم اللصوص ونحوهم ، اخرجه ابوداوود وغيره عن انس ، وفيه : « اذا اراد الله بعبد هوانا انفق ماله فى البنيان » اخرجه الطبرانى فى الاوسط عن أبى بشير الانصارى ، وفيه : « ان شر ما ذهب فيه مال المسلم البنيان » ، اخرجه ابوداوود فى المراسيل عن عطية بن قيس مرسلا ، وفيه : « من بنى فوق ما يكفيه كلف ان يحمله يوم القيامة » ، اخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود ومر الشيخ سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه على شخص يبنى دارا ويحكمها فانشده :

اتبنى بنـاء الخالدين وانمـا	مقامـك فيها لو عقلت قليـل
لقد كان فى ظـل الأراك كفاية	لمن كان يوما يعتريه رحيـل

ويروى ان ملكا من الملوك بنى قصرا وقال : انظروا من عاب منه شيئا فاصلحوه واعطوه درهمين ، فأتاه رجل فقال : ان فى هذا القصر عيبين : قـال : وما هما ؟ قال : يمـوت الملك ، ويخـرب

القصر ، قال : صدقت ، ثم أقبل على نفسه وترك الدنيا ، ونظر رجل من العباد الى باب ملك من الملـوك ، وقد شيده واتقنـه وزوقه ، فقال باب حديد ، وموت عتيد ، ونزع شديد ، وسفـر بعيد ، هذا اذا كان المال المنفق فى ذلك كله حلالا ، فكيف به اذا كان من شبهة أو حراما .

سؤال العبد يوم القيامة عن الترف والنعيم :

وليتأمل الموفق قوله تعالى : « الهاكم التكاثر » وقولـه : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » وقوله عليه السلام : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن اربع : عن عمره فيما افناه ، وعن شبابه فيما ابلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما انفقه ، وعن علمه ما ذا عمل فيه » ، اخرجه البيهقـى عن معاذ ، والترمـذى بنحوه من حديث أبى برزة وصححه ، ومن حديث ابن مسعـود ايضـا ، ولينظر هـل يجد هنـاك جوابـا ؟ أو يستطيـع بـين يدى مولاه خطابا ؟ سيما ان كان واليا ، وفيما امر به من القيام بالوظائف الشرعية متوانيا .

وانظر الى ما روى من ان سيدنا العباس رضى الله عنه كان خليلا لعمر بـن الخطاب ، فلما اصيب جعل يدعو ربه ان يريـه اياه ، فرآه بعد حول وهو يمسح العرق عن وجهه ، فقال ما فعلت ؟ قال : هذا اوان فرغت من الحساب ان كاد عرشى ليهد لولا انى لقيت رءوفا رحيما ، وما روى ايضا عن عبد الله بن عمر قال : تضرعت الى ربى ان يرينى أبى فى المنام ، حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه ، فسألته فقال : لولا رحمة الله هلك ابوك ، انه سألنى عن عقال بعير الصدقة ، وعن حياض الابل ، فكيف عـن الناس ، ولما سمع بهذه الرؤيا عمر بن عبد العزيز ، صاح وضرب بيده على رأسه وقال : فعل هذا بالطاهر النقى ، فكيف بالمترف عمر بن عبد العزيز ! .

وانظر ايضا لما افضت الخلافة الـــى ابن عبد العزيز هذا ، بكى ، ثم خير نساءه وجواريه وقال : قد أتانى أمر شغلنى عنكن ، فلا اتفرغ لكن حتى يفرغ الناس من الحساب يوم القيامة ، فبكى عند ذلك أهل بينه حتى ظن جيرانهم انه مات عندهم احد ، وروى ايضا انه لما بويع بالخلافة اكثر من البكاء حتى خنقته العبرة ، فقيل له فى ذلك فقال : كيف لا ابكى وليس على وجه الارض اليوم أحد الا وله على حق ؟ ، وتأمل ما أعطيه سيدنا سليمان عليـه السلام من الملك الذى لم يعطه احد بعده ، فانه أوتى ملك جميع الدنيا والانس والجن والطير والوحش والريح تجرى بامره رخاء حيث اصاب ، ورفع عنه حساب ذلك كله اجمع ، فقيل له : « هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب » ، فما عده رفعة ، ولا حسبه منزلة ، بل قال : « هذا من فضل ربى ليبلونى ءأشكر ام اكفر » فخاف ان يكون ذلك مكرا واستدراجا ، فكيف غيره ممن قيل له : انك مسؤول ومحاسب ، ولا يدرى ما الله صانع به ، قال تعالى : « فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون » .

وقد كان سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : لو هلكت شاة بشط الفرات لظننت ان الله سائل عنها عمر ، وأخذ رضى الله عنه يوما تبنة من الارض وقال : يا ليتنى هذه التبنة ، يا ليتنى كنت نسيا منسيا ، وقال يوم احتضر ، لو ان لى قـلاع الارض ذهبا لافتديت به من عذاب الله قبل ان أراه ، وأنشأ يقول :

واوعدنى كعــب ثلاثا اعدهـا ولا شك ان القول ما قاله كعب
وما بى حذار الموت انى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه ذنب

فعلى من كان ، أيتهـا الامة ، متيقظا حازما ، وبمحاسبـة مولاه ، وسؤاله له ، عن النقير والقطمير والقليل والكثير عالما ، أن يقبل على مراقبة نفسه ومحاسبتها ، والتضييق عليها فى جميع

احوالها وحركاتها وسكناتها ، حتى لا يضيع عليه شيء من اوقات عمره ، وتكون كلها فى طاعة الله وشكره ؛ فان انفاس الانسان هى اجزاء حياته ، وكل نفس منها جوهرة نفيسة لا عوض لها فى بقية اوقاته ، يمكن ان يشترى بها كنزا من الكنوز لا يفنى ابدا ، ولا يتناهى نعيمه سرمدا ، فكيف يليق بالعاقل ان يضيعه فى البطالات ، ويجعله فى اللهو والهزء والجهالات ، وهل ذلك الا غاية الخسران ، ونهاية الخذلان والحرمان ، قال على رضى الله عنه : بقية عمر المومن ما لها ثمن ، يدرك فيها ما أفات ، ويحيى ما أمات ، وفى الحكم : ما فات من عمرك لا عوض له ، وما حصل لك منه لا قيمة له ، وعن الجنيد قال : الوقت اذا فات لا يستدرك ، وليس شىء اعز من الوقت ، ومن كلام بعضهم : الوقت سيف ، ان لم تقطعه قطعك ، يعنى ان لم تقطعه بالطاعة والمجاهدة ، قطعك بالمعصية والمعاندة .

وقد اجمع العلماء والحكماء على ان لا طريق للسعادة الابدية ، والسيادة السرمدية ، الا بنهى النفس عن هواها ، وسوقها الى ما يرضى عنها مولاها ، وعلى ان المعاصى سموم قاتلة مبعدة عن رضوان الله ، موجبة اسخطه ومقته وعذابه ، الذى لا طاقة لاحد به ، فان من لا يحتمل حر الشمس ، ولطمة شرطى ، وقرصة نملة ، كيف يحتمل حر نار جهنم ؟ ، وضرب مقامع الزبانية ، ولسع حيات كاعناق البخت (1)، وعقارب كالبغال ؟ خلقت من النار، فى دار الغضب والبوار ؟ كما قيل :

فيا عالما للنار جسمك لين فجربه تمرينا بحر الظهيرة
ودرجه فى لسع الزنابير تجترى على نهش حيات هناك عظيمة
فان كنت لا تقوى فويلك ما الذى دعاك الى اسخاط رب البرية ؟

---

(1) البخت الابل الخراسانية

وفى البخارى من حديث النعمان بن بشير مرفوعا : « ان أهون اهل النار عذابا يوم القيامة لرجل يوضع فى أخمص قدميه جمرة يغلى منها دماغه » ، وانظر قوله تعالى : « ولو ان للذين ظلموا ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة » ، وقوله : « يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الارض جميعا ثم ينجيه كلا ، انها لظى نزاعة للشوى تدعو من ادبر وتولى ، وجمع فاوعى » ، على ان المنهمك فى المعاصى مشغول بتخريب ايمانه وافساده ، فان المعاصى بريد الكفر ، فهو مرتكب لمخاطرة سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى ، لانه اذا اشتغل بتضعيف الايمان ، جاءه الموت وهو على آخر رمق فى غاية الضعف ، فقد يسلم له ذلك القدر وقد لا يسلم ، وهو المناسب لحاله ، وقد قيل : اكثر ما يسلب العبد الايمان عند الموت ؛ نسأل الله العافية ، وفقنا الله تعالى لطاعته ، وحمانا من كيد الشيطان ووسوسته ، وعرفنا بغوائل النفوس ، وجنبنا طرق الغواية والضلالة والبؤس آمين .

وانظر أيضا ، فان الدنيا للعبد سرور ، لولا انه غرور ، ونعيم ، لولا انه عديم ، ومال ، لولا انه هلك ، وغناء ، لولا انه فناء ، وارتفاع ، لولا انه اتضاع ، وعلاء ، لولا انه بلاء ، وحسن ، لولا انه حزن ، قال احمد بن حرب : من نظر الى بستان أو بنيان بشهوة من غير عبرة ، سلبه الله حلاوة العبادة اربعين يوما ، وفى المنن الكبرى للاشعرانى ما نصه : وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله تبارك وتعالى عنه مرات يقول : من ضحك أو جامع زوجته أو لبس ثوبا مبخرا ، أو ذهب الى مواضع التنزهات ايام نزول البلاء على المسلمين ، فهو والبهائم سواء هـ ، ويرحم الله بعض ملوك الاسلام ، ممن كان معتنيا بنصرة دين النبى عليه الصلاة والسلام ، فانه لما حاصرت النصارى بعض بلاده ، امتنع

من الضحك والتبسم حتى فى وجوه اهل محبته ووداده ، وقال :
استحيى من الله ان أبدى ضحكا أو تبسما ، والمسلمون تحاصرهم
الروم تلوما ، وفى حسن المحاضرة للاسيوطى رحمه الله ما نصه :
وفى سنة خمس وستين وخمسمائة حاصرت الفرنج دمياط خمسين
يوما بحيث ضيقوا على أهلها وقتلوا منهم ، فأرسل نور الدين
محمود الشهيد اليهم جيشا عليه صلاح الدين يوسف بن أيوب
فأجلوهم عنها ، وكان الملك نور الدين شديد الاهتمام بذلك حتى
انه قرأ عليه بعض طلبة الحديث جزءا فيه حديث مسلسل
بالتبسم فطلب منه ان يبتسم ليتصل التسلسل ، فامتنع من ذلك
وقال : انى استحيى من الله ان يرانى مبتسما والمسلمون
تحاصرهم الفرنج بثغر دمياط قال السيوطى : فرحم الله هذا
الملك وامثاله هـ :

ذى المعالى فليعلون من تعالى هكذا هكذا والا فلا لا

نسأله سبحانه ان يجعلنا لنصرة هذا الدين المحمدى أهلا ،
وان يوفقنا للذب عن جنابه ظاهرا وباطنا قولا وفعلا ، وان لا يجعل
للكافرين علينا من سبيل ، وان ياخذهم الاخذ الوبيل ، انه على
ذلك قدير ، وبالاجابة له حقيق وجدير ، آمين .

المبحث التاسع

الاعراض عن العمل بالكتاب والسنة

ومنها ، وهو المبحث التاسع ، اعراضنا عن طريق العمل بالكتاب والسنة ، واهمالنا لما شرعه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنه ، واتباعنا لعوائدنا الردية ، واهوائنا الذميمة المردية ، جهلا منا بشؤم ذلك ، وما ينشأ عنه من البلايا والمحن والمهالك ، وما علمنا ان طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم اصل جميع الخيرات ، وسبب فى نيل كل المبرات ، ومخالفة امرهما اصل كل فتنة ووبال ، ومصيبة ومحنة وبلية ونكال ، قال تعالى : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه ، فاولئك هم الفائزون » ، وقال : « ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين » ، وقال : « واتبعوه لعلكم تهتدون » ، وقال : « وان تطيعوه تهتدوا » وقال : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ، وقال : « وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل (قال مجاهد : يعنى البدع والشبهات) فتفرق بكم عن سبيله » ، أى عن طريقه ودينه ، وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » ، اى فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معا .

وأخرج احمد فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير ، وابو يعلى بسند حسن عن ابن عمر مرفوعا : « بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف امرى ، ومن

تشبه بقوم فهو منهم » ، قال فى التيسير : « وكما ان الذلة مضروبة على من خالف ، فالعز مجعول لاهل طاعته ومتابعته » ، واخرج ابوداوود عنه أيضا مرفوعا : « لازلتم منصورين على اعدائكم ما دمتم متمسكين بسنتى ، فان خالفتم سلط الله عليكم اعداءكم ولن ينزع خوفهم من قلوبكم حتى تعودوا الى سنتى » .

ستظهر فيكم السكرتان : سكرة العيش وسكرة الجهل :

واخرج الحكيم الترمذى فى النوادر عن الصلت بن طريف ، عن شيخ من اهل المدائن ان رسول الله عليه وسلم قال : « انتم اليوم على بينة من ربكم ، تامرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتجاهدون فى سبيل الله ، ثم تظهر فيكم السكرتان : سكرة العيش (اى حبه) وسكرة الجهل ، وستحولون الى غير ذلك ، يفشو فيكم حب الدنيا ، فاذا كنتم كذلك لم تامروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ، ولم تجاهدوا فى سبيل الله ، والقائمون يومئذ بالكتاب والسنة فى السر والعلانية ، السابقون الاولون » ، وقد تقدم بنحوه من عند ابى نعيم فى الحلية عن انس وعن معاذ ، وفى القوت لأبى طالب المكى : روينا عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان لله عز وجل ثلاثة املاك : ملك على ظهر بيت الله الحرام ، وملك على ظهر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وملك على ظهر بيت المقدس ، ينادون كل يوم ، يقول الملك الذى على ظهر بيت الله الحرام : من ضيع فرائض الله خرج من أمان الله ، ويقول الملك الذى على ظهر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم : من خالف سنة رسول الله ، لم تنله شفاعته ، ويقول الملك الذى على ظهر بيت المقدس : من احل حراما لم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » .

واخرج الطبرانى فى الكبير عن الحكم بن عمير مرفوعا :

« الامر المفظع ، والحمل المضلع ، والشر الذى لا ينقطع ، اظهار البدع » ، واخرج ابو نعيم فى الحلية عن انس مرفوعا : « اهل البدع شر الخلق والخليقة » ، وقال بعض الايمة فى قوله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المومنين سبيلا » انه على ظاهره من ان الله تعالى لا يجعل للكافرين السبيل الموصلة الى الظهور على المومنين ، ولكن ما دام المسلمون عاملين بالحق ، تابعين للسنة ، غير راضين بالباطل ، ولا تاركين للنهى عن المنكر ، قال بعضهم : وهو نفيس جدا ، وقال آخر : لم يذهب ما ذهب من دولة الاسلام فى أى قطر وافق كان الا بتهاونهم بالعمل بالشريعة المطهرة ، وايثارهم حب المال والنفس على الآخرة ، وترك الغزو والجهاد ، ورفض السنن المحمدية ، وقال بعضهم فى قوله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم » : الرسول صلى الله عليه وسلم هو الامان الاعظم ما عاش ، وما دامت سنته باقية ، فهو باق ، فاذا أميتت سنته فانتظر البلاء والفتن ، وقيل : السنن كسفينة نوح ، اتباعها يدفع البلاء عن اهل الارض ، ومخالفتها بالضد ، وعن ابن شهاب قال : بلغنا عن رجال من اهل العلم قالوا : الاعتصام بالسنة نجاة ؛ وفى الرسالة : واللجأ الى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، واتباع سبيل المومنين ، وخير القرون من خير امة اخرجت للناس نجاة ، قال بعض من تكلم عليها (أى من غضب الله ومقته وسخطه) : ففى المفزع الى ذلك العصمة ، أى السلامة من كل سوء ه ، وفى الشفا : ومخالفة امره وتبديل سنته ضلال وبدعة ومتوعد عليه من الله بالخذلان والعذاب ه .

وفى المدخل من كلام شقيق بن ادهم البلخى قال : دخل الفساد فى الخلق من ستة اشياء :

أولها : ضعف النية فى عمل الآخرة .

والثانى : صارت ابدانهم رهينة بشهواتهم .

والثالث : غلبة طول الامل على قرب آجالهم .

والرابع : اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم .

والخامس : آثروا رضى المخلوقين فيما يشتهون على رضى خالقهم فيما يكرهون .

والسادس : جعلوا أدلات أى أحوال السلف دينا ومناقب لأنفسهم ه .

ومن كلام أبى العباس الاييانى من علماء الاندلس قال : ثلاث لو كتبن فى ظفر لوسعهن ، وفيهن خير الدنيا والآخرة : اتبع ولا تبتدع ، اتضع ولا ترتفع ، من ورع لا يتسع ، وكان مالك رضى الله عنه كثيرا ما ينشد :

وخير امور الدين ما كان سنة   وشر الامور المحدثات البدائع

قلت وقد جرت عادة الله تعالى ، خصوصا فى مغربنا الاقصى المؤسسة قواعده ، من يوم افتتحه الادارسة على الكتاب والسنة ، ان الناس لا يزالون بخير ، وأحوالهم مستقيمة ، وبلادهم آمنة ما داموا متظاهرين بالكتاب والسنة ، فاذا خرجوا عنهما انعكست احوالهم ، واضطرمت نيران الفتن بينهم ، وغلت اسعارهم ، وكثرت اكدارهم ، وتشوف العدو اليهم ، ولا يرتفع ذلك عنهم الا اذا رجعوا الى الدين ، والتظاهر بما كانوا عليه من سنن المهتدين ، فلينتبه الموفق لذلك . وليعمل عليه ، فقد حكم بصحة أهل التجربة قديما وحديثا ، والله الموفق سبحانه وهو الهادى من يشاء الى صراط مستقيم .

المبحث العاشر

التجاهر بالمنكرات

ومنها وهو المبحث العاشر ، تجاهرنا بالمنكرات ورفعنا لأستار المعاصي والمحرمات ، من قتل وجرح وغصب ونهب وفجور وغيبة ونميمة وبهتان وكذب وزور ، وزنى وربا وغش ومكر وخداع ، وبيع فاسد وتناول حرام وشبهة من غير ارتداع ، وعقوق والدين وسحر وكهانة واسترقاق محرر وتضييع للامانة ورياء وسمعة وكبر وحسد وعجب ومباهاة ، وحب مدح وتكاثر بالاموال والبنين والغراسات والبناءات ، ولعب صبيان فى المساجد واساءة للصلوات ، واختلاط نساء ورجال ، وتضييع للزكوات . الى غير ذلك مما لا يحصى ولا يحصر ، وهو اعرف من ان يعرف أو يذكر ، بل ارتكبنا جميع المنهيات ، وأتينا بما لم تات به امة من أنواع المعاصى والمخالفات ، حتى انتكست الامور الدينية انتكاسا وتحول الحال فيها تحولا وانعكس انعكاسا ، وصار المعروف فينا منكرا والمنكر معروفا ، والطاعة معصية والمعصية أمرا مألوفا ، بل والايمان كفرا ، والكفر ايمان ، بضرب من التهور والخذلان ، وذلك أيضا من اعظم اسباب البلايا ، واكبر موجبات العقوبات والرزايا ، قال تعالى : « فلما آسفونا (يعنى اغضبونا بارتكاب ما حرمناه عليهم) انتقمنا منهم » ، وقال : « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها (وقرأ ابو العالية : امرنا بتشديد الميم ، وابن عباس آمرنا بالمد) ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وقال : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » ، وقال : « ان

الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » وقال : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم »

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : لا يغير ما بقوم ، قال : لا يغير ما بهم من النعمة حتى يعملوا بالمعاصى فيرفع الله عنهم النعم ، وأخرج ابن أبى شيبة فى كتاب العرش ، وابو الشيخ وابن مردويه ، عن على مرفوعا : « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ، ما من اهل قرية ولا اهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهته من معصيتى ، ثم تحولوا عنها الى ما احببت من طاعتى ، الا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى الى ما يحبون من رحمتى ، وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية ، كانوا على ما احببت من طاعتى ثم تحولوا عنها الى ما كرهت من معصيتى الا تحولت لهم عما يحبون من رحمتى الى ما يكرهون من غضبى » ، واخرج ابو الشيخ عن سعيد ابن أبى هلال قال : بلغنى ان نبيا من الانبياء عليهم السلام ، لما اسرع قومه فى المعاصى قال لهم : اجتمعوا الي لأبلغكم رسالة ربى ، فاجتمعوا اليه وفى يده فخارة فقال : ان الله تبارك وتعالى يقول لكم انكم قد عملتم ذنوبا قد بلغت السماء ، وانكم لن تتوبوا منها وتنزعوا عنها الا ان كسرتم كما تكسر هذه ، فألقاها فانكسرت وتفرقت ، ثم قال : وافرقكم حتى لا ينتفع بكم ، ثم ابعث عليكم من لا حظ له فينتقم لى منكم ، ثم اكون أنا الذى انتقم لنفسى بعد .

وأخرج احمد والطبرانى فى الكبير عن ام سلمة مرفوعا : « اذا ظهرت المعاصى فى امتى عمهم الله بعذاب » ، وأخرج الطبرانى فى الكبير وابونعيم فى الحلية عنها أيضا مرفوعا : « اذا ظهر السوء فى الارض انزل الله بأسه بأهل الارض ، وان كان فيهم قوم صالحون يصيبهم ما اصاب الناس ، ثم يرجعون الى مغفرة الله

ورحمته » ، واخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن المغيرة بن شعبة مرفوعا : « لا يزال العذاب مكشوفا عن العباد ما استتروا بمعاصى الله ، فاذا اعلنوها استوجبوا عذاب الله » ، وأخرج الطبرانى فى الكبير والحاكم وصححه والبيهقى عن ابن عباس مرفوعا : « اذا ظهر الزنى والربا فى قرية فقد احلوا بانفسهم عذاب الله » ، واخرج مالك فى الموطأ عن اسماعيل بن ابى حكيم ، انه سمع عمر بن عبد العزيز يقول : كان يقال : ان الله لا يعذب الخاصة بذنب العامة ، ولكن اذا عمل المنكر جهارا استحقوا العقوبة كلهم .

ايثار صفقة الدنيا على الدين خروج من الدين :

وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن زيد بن ارقم مرفوعا : «لا تزال لا اله الا الله تحجب غضب الرب عن الناس ، ما لم يبالوا ما ذهب من دينهم ، اذا صلحت لهم دنياهم ، فاذا قالوها قيل لهم كذبتم لستم من أهلها » ، واخرج الحكيم الترمذى فى النوادر عن انس رفعه : « لا تزال لا اله الا الله تمنع العباد من سخط الله ، ما لم يوثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فاذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ، ثم قالوا لا اله الا الله ، ردت عليهم ، وقال الله : كذبتم » ، واخرج الشيخان عن زينب بنت جحش انها قالت : يا رسول الله انهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم اذا كثر الخبث » ، أى الزنى واولاد الزنى أو الفسوق والمعاصى ، قال العلماء : وفيه دليل على ان البلاء قد يرفع عن غير الصالحين اذا كثر الصالحون ، وقد يعم الصالحين اذا كثر المفسدون ، لعدم امرهم لهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أى بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن رضيها ، هذا بفساده ، وهذا برضاه ، واخرج احمد وابوداوود عن رجل من الصحابة رفعه : « لن يهلك الناس

حتى يعذروا من انفسهم » اى تكثر ذنوبهم ويتركوا تلافيها ، فيظهر عذره تعالى فى عقوبتهم ، واخرج مسلم عن ابى هريرة ، والطبرانى فى الاوسط ، عن أبى قتادة رفعاه : « كل امتى معافى (اى قد يعافيه الله تعالى ويسلمه من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة) الا المجاهرين » أى المعلنين بالمعاصى ، أى فان الله تعالى لا يعافيهم ولا يسلمهم ، بل يساط عليهم العقوبات فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون .

وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما انه قيل له : هل تركت بنو اسرائيل دينهم ؟ أى حتى عذبوا بانواع العذاب ، كمسخهم قردة وخنازير ، وامرهم بقتل انفسهم ، فقال : لا ولكنهم كانوا اذا أمروا بشىء تركوه ، واذا نهوا عن شىء ركبوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه ، والأحاديث والآثار فى هذا الباب كثيرة ، وفى دواوين الأئمة معلومة شهيرة ، وقد قال فى المعيار فى فصل البدع ، بعد ذكر حديث : لتتبعن سنن من قبلكم الحديث ، ما نصه : وقد قص علينا القرآن ، والاخبار ، من امرهم ، ما شهدنا أكثر منه فينا ، سمعت العلامة ابا عبد الله محمد بن ابراهيم بن احمد العبدرى الابلى يقول : لولا انقطاع الوحى لنزل فينا اكثر مما نزل فيهم ، لأنا اتينا اكثر مما اتوا ه .

وقد بلينا فى هذا الزمان ، زيادة على ارتكاب الكبائر ، والجهر بها ، بالتهاون بالصغائر ، والاستصغار لها ، فقل ما تجد مرتكب صغيرة منا ، وتنتهاء عنها الا قال : أى شىء هذه ؟ وما تعمل ، والامر فيها سهل ، وما اشبه هذا من الكلام ، والاستصغار لمعاصى الله ، والاحتقار لها ، هو السم القاتل ، كما قاله فى المدخل ، قال : وقد قالوا : ارتكاب الكبائر اهون من الاستصغار للصغائر ، لأن مرتكب الكبيرة يرجى له ان يرجع الى الله ويتوب ، ومن تهاون بالصغائر قل ان يرجع من ذلك ، لأنها عنده ليست بشىء ، وقد قالوا : لا كبيرة مع

الاستغفار ، ولا صغيرة مع الاصرار ، وهذا بين ، لأن الصغائر اذا اجتمعت صارت كبائر ه وقال غيره : تصير الصغيرة كبيرة بالاحتقار لها ، والاصرار عليها ، والفرح بها ، والتحدث بها على وجه الافتخار ، والاتيان بها مجاهرة من غير حياء ، وكون صاحبها عالما يقتدى به .

وقد ورد « اياكم والمحقرات من الذنوب » ، اخرجه احمد عن سهل بن سعد وعن ابن مسعود ، وورد ايضا : « ان المومن يرى ذنوبه كانه قاعد تحت جبل يخاف انيقع عليه ، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على انفه فمال به هكذا ، وأشار بيده فوق انفه فطار » اخرجه البخارى عن ابن مسعود ، وقال ابو سعيد الخدرى انكم لتعلمون اشياء هى ادق فى عينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات ، وقيل : اعظم الذنوب ما صغر عند صاحبها ، بل بلينا فيه باستحلال كثير من المحرمات ، بضرب من التهور والتاويلات ، حتى صارت عندنا كانها مباحات ، بل من كثرة التعاطى لها كانها مندوبات ، أومن المحتمات الواجبات ، وهذا والعياذ بالله تعالى داء عضال ، وخروج من ربقة الدين وانحلال ، وهو أيضا من أعظم اسباب النكال ، ووجوه الاختلال ، وقد ورد : « تشرب ناس من امتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، يضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات ، يخسف الله بهم الارض ، ويجعل الله منهم القردة والخنازير » ، اخرجه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ، عن ابى مالك الاشعرى ، وورد أيضا :

« والذى نفسى بيده ليبيتن أناس من امتى على شر وبطر ولعب ولهو ، فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم ، واتخاذهم القينات ، وشربهم الخمر ، واكلهم الربا ، ولبسهم الحرير » ، أخرجه عبد الله بن الامام احمد فى زوائد مسند أبيه عن عبادة بن الصامت ، وورد أيضا : « ليكونن من امتى اقوام يستحلون الخز ،

وفى رواية ، والحرير ، وذكر كلاما قال : يمسخ منهم آخـرون قردة وخنازير الى يوم القيامة » اخرجه ابوداوود عن ابى عامر أو ابى مالك الاشعرى، قال ابن العربى : يحتمل ان المسخ حقيقة ، كما وقع فى الامم الماضية ، أو هو كناية عن تبدل اخلاقهم ، وورد أيضا : « اذا استحلت امتى خمسا فعليهم الدمار (أى الهلاك) اذا ظهر التلاعن ، وشربوا الخمر ، ولبسوا الحرير ، واتخذوا القيان ، واكتفى الرجال بالرجـال ، والنساء بالنساء ، اخرجـه البيهقى عن انس ، والامر لله تعالى ما شاء فعل .

انتهاك الحرمات سبب البلايا والعقوبات :

ولما أن انتهكنا ما قد انتهكناه من المحرمات ، ابتلينا بأنواع عديدة من المخاوف والايات ، من زلزلة وقحط وجراد وغـلاء وجور وظلم وفتن عظيمة ووباء ، لعلنا نرجع عن هوانا ، أو نقلع عن عصياننا ، وغينـا وعمانـا ، قال تعالى : « وما نرسـل بالآيات الا تخويفا » وقال : « أولا يرون انهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون » وقال : « وما نريهم من آية الا هى اكبر مـن اختهـا ، واخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون » قال قتادة : أى يتوبون أو يتذكرون ، وذكر ابن ابى الدنيا حديثا مرسلا : « ان الارض تزلزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ثم قال : اسكنى ، فانه لم يان لك بعد ، ثم التفت الى اصحابـه فقال : « ان ربكم يستعتبكم فاعتبوه » ، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال : أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة الا عن شىء احدثتموه ، والذى نفسى بيده ان عادت لا اساكنكم فيها ابدا . فلما لم نرجع بها ، ولم نقلع عما نحن فيه بسببها ، ابتلينا بما هو اكبر ، وادهـى واشر وامر ، من تسلط الاعداء علينا ، وتوجههم بالبكور والاصال الينا ، كما هى عادة الله ، فيمن لم يرجع عن هواه ، وقد كـان

صالح المرى يقول : اذا لم تتساو سريرة الناس وعلانيتهم ، فلا يستغربون ما يحل بهم من انواع البلايا والافات ، وفى حسن المحاضرة للامام السيوطى اثناء كلام ما نصه : قلت أجرى الله تعالى عادته ان العامة اذا زاد فسادها ، وانتهكوا حرمات الله ، ولم تقم عليهم الحدود ، ارسل الله عليهم آية فى اثر آية ، فان لم ينجح ذلك فيهم ، اتاهم بعذاب من عنده ، وسلط عليهم من لا يستطيعون له دفاعا ه ، يعنى من الظلمة والاشرار ، وأعداء الله الكفار .

والناس اليوم أيتها الامة يطلبون ان تستقيم بهم الاحوال ، وتسير بهم على اقوم سيرة الولاة والعمال ، من غير ان يستقيموا فى الاقوال والافعال ، وانى ذلك الا ان يتفضل به الكبير المتعال ، وقد كان ابن السماك يقول : كما ابتليتم بالاعمال التى لا ترضى ربكم ، وقلتم ان الله تعالى قدر ذلك ، فاقيموا العذر لولاتكم ، فان الله تعالى هو المقدر عليهم ما ظلموكم به ، فان احدهم يود ان لا يظلم احدا منكم ولكن اعمالكم هى السبب فى ظلمكم ، وكان عبد الملك بن مروان يقول لرعيته : تطلبون منا ان نسير فيكم بسيرة أبى بكر وعمر ، ولا تسيرون انتم بسيرة رعاياهما ، فنسأل الله ان يعين كل واحد منا على صاحبه ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : كان الحجاج الثقفى بلاء من الله وافق خطيئة ، وكتب اخ لمحمد ابن يوسف يشكو اليه من جور الولاة فى بلاده ، فأجابه بقوله : قد بلغنا كتابك ، ولا يخفى عن علمك يا اخى انه ليس لمن عمل بالمعصية ، ان ينكر وقوع العقوبة ، وما ارى ما انتم فيه الا من شؤم الذنب ، والسلام ، وفى سراج الملوك للطرطوشى : كان العلماء يقولون : اذا استقامت لكم امور السلطان ، فاكثروا حمد الله تعالى وشكره ، وان جاءكم منه ما تكرهون فوجهوه الى ما تستوجبونه بذنوبكم ، وتستحقونه بآثامكم ه ، ومن الشائع على الالسنة قولهم : أعمالكم عمالكم، وينسبونه حديثا مرفوعا ،

وكلام الطرطوشى فى السراج يفيد انه لم يقف عليه ، واورده فى اسنى المطالب ، وقال انه لم يثبت ، وكلام السخاوي فى المقاصد فى حديث : كما تكونون يولى عليكم يقتضي وروده بزيادة ان فى أوله ، لكنه اورده بصيغة التمريض ، قلت ومعناه موجود فى القرآن والأحاديث والاثار والشعر .

تسليط الظالمين بعضهم على بعض :

أما القرآن فقوله تعالى : « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » ، اى نسلط بعضهم على بعض بسبب ما كسبوا من المعاصى ، على بعض التاويلات فى الآية ، وفى الدر المنثور : اخرج ابو الشيخ عن منصور بن ابى الاسود قال : سألت الاعمش عن قوله : « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا » ما سمعتهم يقولون فيه ، قال : سمعتهم يقولون : اذا فسد الناس أمر عليهم شرارهم هـ .

وأما الاحاديث فاخرح ابن جميع فى معجمه ، والقضاعى فى مسنده ، بسند فيه مجاهيل ، عن الحسن عن أبى بكرة مرفوعا : « كما تكونون يولى عليكم » وأخرجه الحاكم فى تاريخه ومن طريقه الديلمى ، من طريق يحيى بن هاشم ، قال : حدثنا يونس بن أبى اسحاق السبيعى عن ابيه اظنه عن ابى بكرة مرفوعا : «كما تكونون يولى عليكم أو يؤمر عليكم» ومن هذا الوجه اخرجه البيهقى فى الشعب بلفظ يؤمر عليكم بدون شك ، وبحذف ابى بكرة ، وقال : انه منقطع ، أى مرسل ، وراويه يحيى فى عداد من يضع ، وعند الطبرانى معناه ، انظر المقاصد .

وأخرج الطبرانى فى الاوسط عن جابر مرفوعا : « ان الله يقول : انى انتقم ممن ابغض بمن ابغض ، ثم اصير كلا الى النار » ، وساقه الديلمى فى الفردوس بلا اسناد عن جابر مرفوعا

بلفظ : « يقول الله عز وجل : انتقم ممن ابغض بمن ابغض ، ثم أصيرهما الى النار » ، واخرجه الدينورى فى المجالسة من طريق الحجاج بن أرطأة عن محمد بن المنكدر انه قال : « يقول الله عز وجل : أنتصر ممن ابغض بمن ابغض ثم اصير كلا الى النار » ، واخرج ابونعيم فى الحليـة ، وعبد الله ابن احمد فى زوائـد الزهد ، وابن ابى حاتم ، وابو الشيخ وغيرهم عن مالك بن دينار قال : قرأت فى الزبور : انى لانتقم من المنافق بالمنافق ثم انتقم من المنافقين جميعا ، قال : ونظير ذلك فى كتاب الله : « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا » الآية .

وأخرج أبونعيم فى الحلية عن ابى الدرداء مرفوعا : « ان الله تعالى يقول : انا الله لا اله الا أنا مالك الملوك وملك الملوك ، قلوب الملوك فى يدى وان العباد اذا اطاعونى حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرحمة والرأفة ، وان العباد اذا عصونى حولت قلوبهم بالسخطة والنقمة فساموهم سوء العذاب ، فلا تشغلوا انفسكم بالدعـاء عـلى الملوك ، ولكـن اشغلـوا انفسكـم بالذكـر والتضرع كـى اكفيكم ملوككم ، ونحوه ما أخرجه أبو الشيخ عن مالك بن دينار قال : قرأت فى بعض الكتب : « انى انا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدى ، فلا تشغلوا قلوبكم بسب الملوك ، وادعونى اعطفهم عليكم » هكذا ذكره فى الدر المنثور ، وذكـره الطرطوشى فى السراج عنه بلفظ : وجدت فى بعض الكتب ، وعند الشعرانى فى كتاب المغترين : مكتوب فى التورية ، ثم اتفقا (1) ، عنه قال : « يقول الله عز وجل : انـى انا الله مالك الملـوك ، قلوب الملوك بيـدى ، فمن اطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومـن عصانى جعلتهم عليه نقمة ، فـلا تشغلوا انفسكم بسب الملوك ، ولكن توبوا الى اعطفهم عليكم » ، ويذكر مرفوعا : « الظالـم

---

(1) اى الطرطوشى والشعرانى وعنه اى عن مالك بن دينار .

عدل الله فى الارض ينتقم به من الناس ، ثم ينتقم منه » وهذا قال الحافظ ابن حجر فى بعض فتاويه ، لا استحضره ومعناه دائر على الالسنة ، وقال الزركشى : لم اجده ، لكن معناه مركب من حديثين صحيحين : احدهما « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ، وفى رواية النسائى : بقوم لاخلاق لهم ، وثانيهما « ان الله يمهل الظالم حتى اذا أخذه لم يفلته » ، واقرهما (2) السخاوى ، والثانى السيوطى ، واورده الشعرانى فى البدر المنير ، وقال : رواه الطبرانى وغيره ، ومراده ، والله اعلم انهم رووه بمعناه لا بلفظه ، كما يشير الى ذلك كلام السخاوى فى المقاصد ، واورده أيضا فى درر الغواص ، وعزاه للحاكم بلفظ : « الجائر عدل الله فى ارضه ، ينتقم به من خلقه ، ثم يصير الى الله فان شاء عفا عنه وان شاء انتقم منه » ، وفى الماثور من الدعوات : « اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا » .

وأما الآثار فاخرج أبو الشيخ عن مالك بن دينار قال : كلما احدثتم ذنبا احدث الله لكم من سلطانكم عقوبة ، واخرج ابن عساكر فى ترجمة على بن هشام من تاريخ دمشق قال : « كان يقال : ما انتقم الله من قوم الا بشر منهم » ، واخرج البيهقى عن كعب الاحبار قال : « ان لكل زمان ملكا يبعثه الله على نحو قلوب اهله ، فاذا اراد صلاحهم بعث عليهم مصلحا ، واذا اراد هلكتهم بعث عليهم مترفهم » ، وكان يقال : ما انكرته من زمانك فانما افسده عليك عملك ، وفى حادى الارواح لابن القيم ما نصه : وفى الآثر : « ان الله عز وجل خلق خلقا من غضبه واسكنهم بالمشرق ينتقم بهم ممن عصاه » .

وأما الشعر فلابن الخراز السرقسطى ، كما عزاه له ابن الازرق فى سياسته :

---

(2) اى الحافظ ابن حجر والزركشى .

نسبتم الجور لعمالكم ونمتم عن سوء افعالكم
لا تنسبوا الجور اليهم ولـ ـكن انما اعمالكم عمالكم
والله لو ملكتم ساعة لم يخطر العدل على بالكم

وأنشد بعضهم كما فى المقاصد :

بذنوبنا دامت بليتنا والله يكشفها اذا تبنا

وأنشد آخر :

وما من يد الا يد الله فوقها ولا ظالم الا سيبلى بظالم

من علامات سخط الله على خلقه :

وهذا ، اعنى تولى الظالم على الخلق ، من علامات سخط الله تعالى عليهم ، كما اخرجه البيهقى عن الحسن قال : « ان بنى اسرائيل سألوا موسى فقالوا : سل لنا ربك يبين لنا علم رضاه عنا وعلم سخطه ، فسأله فقال : يا موسى أنبئهم ان رضاى عنهم أن استعمل عليهم خيارهم ، وأن سخطى عليهم ان استعمل عليهم شرارهم » ، واخرج ايضا من طريق « عبد الملك بن قريب الاصمعى : حدثنا مالك عن زيد بن اسلم عن ابيه عن عمر بن الخطاب قال : حدثت ان موسى او عيسى قال : يارب ما علامة رضاك عن خلقك ؟ قال : ان انزل عليهم الغيث ابان زرعهم ، وأحبسه ابان حصادهم ، واجعل امورهم الى حلمائهم ، وفيئهم فى أيدى سمحائهم ، قال : يارب فما علامة السخط ؟ قال : ان انزل عليهم الغيث ابان حصادهم ، واحبسه ابان زرعهم ، وأجعل امورهم الى سفهائهم ، وفيئهم فى أيدى بخلائهم » .

ومن علامات سخطه ايضا ، اذلالهم حتى لا يقدروا على امر بمعروف ، ونهى عن منكر ، اخرج ابو الشيخ عن ابى عمرو

بن حماس ان ابن الزبير قال لكعب : هل لله من علامة فى العباد اذا سخط عليهم ؟ قال : نعم يذلهم ، فلا يامرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، وفى القرآن : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل » الآية ، ومن علاماته أيضا ان يسلط عليهم الصبيان فى المساجد يعبثون فيها ويلعبون ، فينهونهم فلا ينتهون ، لسقوط هيبتهم من قلوبهم بانتهاكهم لمحارم الله ، اخرج الديلمى عن ابن عباس مرفوعا : « ان من علامات سخط الله على عباده ان يسلط عليهم صبيانهم فى مساجدهم ، فينهونهم فلا ينتهون » أورده السيوطى فى الجمع ، نسألك اللهم يامولانا ان ترضى عنا وعن كل مومن رضى ابديا ، وان تمنحنا من جودك وفضلك فضلا وافرا متأبدا سرمديا ، انك اهل ذلك ، والمنقذ لمن شئت بما شئت من المهالك .

وقد ذكر فى المدخل ان الموضع اذا كثر فيه الفساد ، واهله المقيمون فيه على حالهم لم يصبهم شىء من البلاء ، دل ذلك على قوة حال الولى المقيم بينهم لانه لولا قوة حاله مع الله تعالى ومكانته عنده ، وقربه منه ، ما اندفعت العقوبة عنهم ، فبنفسه وهمته العالية وحلوله بينهم أخر المولى الكريم العذاب عنهم ، ليتوب من يتوب ، ويرجع ، أو يصيب العذاب بعضهم خصوصا ، ولا يقع عاما ، قال الشيخ الامام الجليل عبد الرحمن المعروف بالصقلى رحمه الله : ان الله عز وجل لم يخل الارض من الاولياء ، اما قائم له بحجة ، واما مدفوع به البلاء هـ ، فالقائم بالحجة معروف بين الناس ، والمدفوع به البلاء قد يعرف وقد لا يعرف ، وقد يعرفه بعض الناس دون آخرين ، يبين ذلك وبوضحه ما جرى للشيخ الامام الجليل المعروف بالقرشى رحمه الله تعالى ، لما ان

رأى فى وقته انه سينزل باهل مصر بلاء، قال : أيقع هذا وأنا فيهم ! فقيل له : أخرج من بينهم ، فهذا أمر لابد من وقوعه ، فخرج رحمه الله تعالى الى الشام فأقام به ، ثم بعد خروجه نزل بهم ما نزل ، نسأل الله العافية بمنه فهذا دليل واضح عـلى انهم لايعذبـون عذابا عاما وفيهم احد ممن تقدم ذكره ، هـ كلام المدخل ، نسأله تعالى بجاه نبيه وحبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحرمة أوليائه الابـرار ، ان يلطـف بنا فيما جرت بـه مقاديره وان يكفيناهم الاشرار والفجار ، بمنه وكرمه آمين .

المبحث الحادي عشر

ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

ومنها : وهو المبحث الحادى عشر ، وهو آخر المباحث ، ترك الامر بالمعروف ، وعدم النهى عن المنكر المألوف ، بالنسبة لمن له مقدرة ، ووجدت فيه الشروط المعتبرة ، وهو أيضا من اعظم الكبائر والمحظورات ، واكبر موجبات الفسق والهلاك وحلول العقوبات ، لما فيه من نبذ الدين ، وترك القيام بما هو من اعظم قواعده بيقين ، وهو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الواجبان كفاية ، كتابا وسنة واجماعا عند وجود الشرط المقرر ، وقد كثر التساهل فيهما منذ أزمان ، تعللا بعدم توفر الشروط والاركان ، مع انها كثيرا ما تتوفر ، وتوجد فى بعض الاماكن بالنسبة لبعض الناس الوجود المعتبر ، سيما من بسطت يده فى الارض ، وملكه الله التصرف فى طولها والعرض ، ولكن داهن بعضنا بعضا ، حتى انحلت من الدين عراه وضاع نفلا وفرضا ، فلا حول ولا قوة الا بالله ، والامور كلها راجعة الى الله .

وفى الاحياء : الامر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الاعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيئين أجمعين ، ولو طوى بساطه ، واهمل علمه وعمله ، تعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وشاعت الضلالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، وان لم يشعروا بالهلاك الا يوم التناد ، وقد كان الذى خفنا ان يكون ، فانا لله وانا اليه راجعون هـ .

وقال النووى فى شرح مسلم : اعلم ان هذا الباب ، اعنى باب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قد ضيع اكثره من ازمان متطاولة ، ولم يبق منه فى هذه الازمان الا رسوم قليلة جدا ، وهو باب عظيم به قوام الامر وملاكه ، واذا كثر الخبث ، عم العقاب الصالح والطالح ، واذا لم يأخذوا على يد الظالم ، أوشك ان يعمهم الله تعالى بعقاب ، فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم ، فينبغى لطالب الآخرة ، والساعى فى تحصيل رضى الله عز وجل ، ان يعتنى بهذا الباب ، فان نفعه عظيم ، لاسيما وقد ذهب معظمه ، الى آخر ما قال فلينظر .

وفى المدخل لابن الحاج قال : أكثر المناكر والبدع فى زماننا هذا ليس على العالم مشقة ولا خوف فى الكلام فيها ، ولا فى الحض على تركها ، وانما يتركها مع رؤيتها ولا يحض عليها فى مجلسه فى الغالب لاستيناس النفوس بالعوائد الردية ، وذلك هو الذى اهلك من مضى من الامم ، حكى الله سبحانه عنهم ذلك فى كتابه فقال تعالى : « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ، الى قوله مقتدون » وقد ورد أن موسى عليه السلام مر على قرية وقد اهلكها الله فقال : « يا رب ، كيف اهلكتهم وكنت أعرف فيها رجلا صالحا ، فأوحى الله تعالى اليه يا موسى : انه لم يغير لى منكرا » فأفاد هذا الخبر أنه لو غير عليهم ، أى منعهم من فعل المنكر ، ما هلك ولا هلكوا هـ ، وفى الرسالة : ومن الفرائض الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، على كل من بسطت يده فى الارض أى كالامراء ونوابهم ، وعلى كل من تصل يده الى ذلك ، أى كالرجل فى بيته ، فان لم يقدر فبلسانه ، فان لم يقدر فبقلبه هـ ، وقال العقبانى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر متعين فى حق غالب الناس ، ولو فى نفسه واهله وعياله ، لحديث : كلكم راع ، وفى شرح الجوهرة : يجب على الفور اجماعا ، فمن امكنه

ان يأمر بمعروفين وجب عليه الجمع ، كمن يرى جماعة تركوا الصلاة فيأمرهم بكلمة واحدة : قوموا الصلاة .

الوعيد الشديد لتاركى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وقد ورد فى تركهما عند وجود شرطهما ، فى الكتاب والسنة وعيد شديد ، وتقريع وتهديد ، قال تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبيس ما كانوا يفعلون » ، واخرج احمد والحاكم وصححه عن عبد الله ابن عمرو مرفوعا : « اذا رأيت أمتى تهاب الظالم ان تقول له انك ظالم فقد تودع منهم » ، وأخرج الحاكم فى تاريخه والاصبهانى عن انس مرفوعا : « لا تزال لا اله الا الله تنفع من قالها ، وترد عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها ، قالوا يا رسول الله وما الاستخفاف بحقها ؟ قال ان يظهر العمل بمعاصى الله فلا ينكروه ولا يغيروه » واخرج ابوداوود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والاصبهانى وغيرهم ، عن جرير بن عبد الله مرفوعا : « ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على ان يغيروا عليه فلا يغيروا الا اصابهم الله منه بعقاب قبل ان يموتوا » ، واخرج الاربعة وابن حبان فى صحيحه عن أبى بكر الصديق مرفوعا : « ان الناس اذا راوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك ان يعمهم الله بعقاب من عنده » وفى رواية لابى داوود : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على ان يغيروا ثم لا يغيرون الا يوشك ان يعمهم الله منه بعقاب » ، واخرج البزار والطبرانى فى الاوسط بسند حسن عن ابى هريرة مرفوعا : «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم » ، واخرج احمد والترمذى وحسنه والبيهقى عن حذيفة

مرفوعا : « والذى نفسى بيده ، لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، او ليوشكن ان يبعث الله عليكم عقابا من عنده ، ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم » .

واخرج نعيم بن حماد فى الفتن عن الحسن مرسلا : « لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم العجم فليضربن رقابكم وليكونن اسدا لا يفرون » ، وأخرج ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن عائشة قالت : دخل علي النبى صلى الله عليه وسلم فعرفت فى وجهه ان قد حضره شيء ، فتوضأ وما كلم احدا ، فلصقت بالحجرة اسمع ما يقول ، فقعد على المنبر فحمد الله واثنى عليه وقال : « يا أيها الناس ، ان الله يقول لكم : مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل ان تدعوا فلا استجيب لكم ، وتسألونى فلا اعطيكم ، وتستنصرونى فلا انصركم ، فما زاد عليهن حتى نزل »، وأخرج احمد وابن ماجه والبيهقى فى الشعب عن انس قال : « قيل يا رسول الله متى يترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قال : اذا ظهر فيكم ما ظهر فى بنى اسرائيل قبلكم ، قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : اذا ظهر الادهان فى خياركم ، والفاحشة فى كباركم ، وتحول الملك فى صغاركم ، والفقه ، وفى لفظ : العلم فى رذالكم » .

وأخرج أبوداوود والترمذى وحسنه واللفظ له ، عن ابن مسعود مرفوعا : « لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى ، نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئا فقال : لا والذى نفسى بيده ، حتى تأطروهم على الحق أطرا » ، أى تلزموهم باتباعه الزاما .

العقاب الالاهى يصيب الظالم وغير الظالم :

وأخرج أحمد والبغوى عن عدى بن عميرة الكندى قال : حدثنى مولى لنا انه سمع جدى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على ان ينكروه فلا ينكرونه ، فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة » ، واخرج البزار والطبرانى عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله اتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال : نعم ، قيل بم يا رسول الله ؟ قال : بتهاونهم وسكوتهم على معاصى الله » وعن ابن عباس فى قوله تعالى : « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » قال : أمر الله المومنين ان لا يقروا المنكر بين اظهرهم ، فيعمهم الله بعذاب ، فيصيب الظالم وغير الظالم .

وعند ابن ابى الدنيا عن ابراهيم بن عمر الصنعانى قال : « أوحى الله الى يوشع بن نون : انى مهلك من قومك اربعين الفا من خيارهم وستين الفا من شرارهم ، قال : يا رب ، هؤلاء الاشرار ، فما بال الاخيار ؟ قال : انهم لم يغضبوا لغضبى ، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم » ، وقال مالك بن دينار : « أوحى الله الى ملك ان اقلب مدينة كذا على اهلها ، قال : يا رب ، ان فيهم عبدك فلانا ولم يعصك طرفة عين ، فقال : اقلبها عليه وعليهم ، فان وجهه لم يتمعر فى ساعة قط » ورواه الطبرانى وغيره من حديث جابر مرفوعا : والمحفوظ كما قال البيهقى ما ذكر .

وقد بين الله فى كتابه الكريم ، ان خيرية هذه الامة بامرها بالمعروف ونهيها عن المنكر الذميم ، فقال تعالى جل علاه : « كنتم خير أمة اخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله » ، وعلل تعالى استحقاق بنى اسرائيل للعنته بعدم

التناهى عن المنكر ووصمته ، كما سبق فى آية « لعن الذين كفروا »
الآيـــة .

وفى العهود المحمدية : أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن لا نفر من جماعة اجتمعنا معهم على امر فيه اقامة للدين ، كالجهاد فى سبيل الله ، أو امر بمعروف نعين عليه ، أو نهى عن منكر ، أو مجلس ذكر للـــه ، الا لضرورة شرعية ، لاسيما ان كان الناس ينفرون عن ذلك الخير تبعا لنا وهذا العهد يتأكد العمل به على علماء هذا الزمان وصوفيتـــه ، لكونهم رؤوس الناس ، فان قاموا فى امر قامت العامة معهم ، وان غفلوا فى امر غفلت العامة معهم عنه ، والله تعالى يحب كل من نصر شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم ، واعان من يريد اقامة شعائرها ، كما مرت الاشارة اليه فى ضمن العهود أوائل الكتاب وبالجملة ، فلا يتخلف عن نصرة الشريعة ، مع القدرة ، الا من فى قلبه نفاق والسلام ، وقد ورد الترهيب فى الفرار من الزحف ، فقسنا عليه الفرار من كل خير فيه حياة الدين والله غفور رحيم هـ .

هل سد باب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ :

وقد سد هذا الباب عندنا منذ أزمان ، وحال دونه الشيطان ، فلا من يقوم به اتم قيام ، ولا من يعتنى بوظائفه على الدوام ، وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول : ذهب المعروف يبكى ، وجاء المنكر يضحك ، ثم ينشد :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم — والمنكـرون لكـل فعل منكـر
وبقيت فى خلف يزين بعضهم — بعضا ليسكت معور عن معور

قال ابن الفاكهانى : واعجب ما فى زماننا هذا ان الذين يظن بهم العلم والدين ، ممن يتعين عليهم الامــر بالمعروف والنهــى

عن المنكر ، متلبسون بمناكر شتى يجب انكارها عليهم شرعا ، ولقد احسن من قال :

بالملح يصلح ما يخشى تغيره | فكيف بالملح ان حلت به الغير

وقال آخر :

هذا الزمان الذى كنا نحاذره | فى قول كعب، وفى قول ابن مسعود
دهر به الحق مردود باجمعه | والجور فيه أذاه غير مردود
إن دام هذا ولم يحدث له غير | لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وأنشد الشيخ ابو عبد الله السراج ، كما ذكره الشيخ زروق ، فى « اعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين » :

فسد الزمان فأين أين المهرب | وفشا الحرام فأى كسب اطلب
وتعامت العلماء عن شبهاتها | فلمثل ذا فليعجب المتعجب
من ذا نشاور فى مرامة ديننا | أو من لنا فى ذا الزمان يؤدب

هذا فى زمانهم ، فكيف لو شاهدوا هذا الزمن ، الذى كثرت فيه البلايا والمحن ، وعظمت فيه المنكرات ، واشتدت الخطوب والكربات ، فالى الله المشتكى فى دفع ما عرى ، وهو المستغاث فى فى رفع ما نزل وجرى ، لا اله غيره ولا رب لنا سواه ، ولا معول لنا الا على كرمه وعلاه .

ومن العجب العجيب ، انه كما قل من يأمر وينهى ، قل من يسمع ويجيب حتى لا تكاد تجد من يقبل النصح ويرجع عن هواه ، أو يلتفت الى من يدله على ما فيه رشده وهداه ، بل اتبع الناس آراءهم وأهواهم ، وجعلوا كلام النصحاء وراءهم ، متصاممين عن سماع الموعظة والتذكرة ، متماوتين عند تذكيرهم بما يعود عليهم نفعه فى الدار الآخرة ، فكأن لسان حال الدهر ينشد من يذكرهم ، وعماهم فيه من القبائح يزجرهم :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادى
فأقلع ليس يجدى ذاك شيئا ... سوى ان بعثرت رمم العباد

وفى المدخل : قال الفربدى : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض ، فاطلع عليهم من كوة ، وهو يبكى ، ولحيته ترجف ، فقال عليكم بالقرآن ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ، ليس هذا زمان حديث ، انما هو زمان بكاء ، وتضرع ، واستكانة ، ودعاء كدعاء الغريق ، انما هذا زمان احفظ فيه لسانك ، وأخف مكانك ، وعالج قلبك ، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ه .

وقد ذكر العلماء ان الناس اذا اتبعوا الهوى ، وغلب عليهم ، الشح ، وأعجب كل واحد برأيه ، وضعف شخص عن الانكار عليهم ، بان علم أو ظن ان انكاره لا يفيد ، وان المنكر لا يزول به ، أو خاف بسببه مفسدة اعظم ، أو على نفسه الهلاك أو شديد الاذى ، فانه يسقط عنه وجوب الانكار ، ويبقى الجواز والندب فيما اذا أيس من الافادة أو توهمها ، لاظهار الشعائر ، والتذكير بامر الدين ، وكذا اذا شك فيها على ظاهر كلام ايمة المذهب ، وقيل : يجب فيما عدى الياس ، وقيل : يجب فى الجميع ، وعدم الجواز فيما اذا خاف مفسدة اعظم ، كما قاله ابن رشد وغيره ، أو الهلاك ، أو شديد الاذى ، كما يفيده قوله تعالى : « ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة » ، وقوله : « ولا تقتلوا انفسكم » ، ويفيده كلام القاضي عبد الوهاب ايضا ، وظاهر كلامه انه يبقى الجواز حيث خشى ما دون الهلاك ، أو الاذى الشديد ، ونقل الزرقانى فى شرح خليل عن القرافى : انه اذا كان يتأذى فى بدنه أو عرضه فانه ينتفى الجواز ، وأطلق فى ذلك ، وانظره .

وذهب جماعة من العلماء ، كالشيخ أبى حامد فى الاحياء ، الى الجواز والندب ولو خاف القتل ، لقوله تعالى : « وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك » ، ولحديث : « افضل الجهاد

كلمة حق عند سلطان جائر » اخرجه ابوداوود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه عن ابى سعيد ، وابن ماجه ايضا عن ابى أمامة ، والنسائى عن طارق بن شهاب البجلى ، وقال المنذرى بعد عزوه للنسائى : اسناده صحيح ، والله اعلم ، وقد اخرج الترمذى وصححه ، وابن ماجه والحاكم والبيهقى والطبرانى وغيرهم ، عن ابى ثعلبة الخشنى مرفوعا : « ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى اذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا موثرة ، واعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العوام ، فان من ورائكم أيام الصبر الصابر فيهن مثل القابض على الجمر العامل فيهن مثل اجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم » .

واخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل انه قال : يا رسول الله اخبرنى عن قول الله عز وجل « يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » قال : يا معاذ مروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، فاذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا، واعجاب كل امرىء برأيه فعليكم انفسكم، لا يضركم ضلالة غيركم ، فهو من ورائكم ، أيام صبر المتمسك فيها بدينه مثل القابض على الجمر ، فللعامل منهم يومئذ مثل عمل احدكم اليوم ، كأجر خمسين منكم ، قلت يا رسول الله ، خمسين منهم ، قال : بل خمسين منكم أنتم » .

وأخرج الحاكم وقال صحيح ، واقره الذهبى ، عن عبد الله بن عمر بن العاصى مرفوعا : « اذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم ، وخفت اماناتهم ، وكانوا هكذا ، وشبك بين انامله ، أى مختلطين يموج بعضهم فى بعض ، فالزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة امر نفسك ودع عنك امر العامة » أى اتركه ، قال فى التيسير : فاذا غلب على ظنك ان المنكر لا يزول بانكارك ، أو خفت محذورا ، فانت فى سعة من

تركه ، وانكر بالقلب مع الانجماع ه ، أى لان الانكار به فرض عين على كل أحد بلا شرط ، لا يسقط فى حال من الاحوال ، بل ذهب جماعة منهم احمد الى ان تركه كفر ، لقوله فى الحديث : « وهو اضعف الايمان » ، وقوله مع الانجماع ، أى الانكفاف عن حضور مواضع المنكر ، والاعتزال فى بيته حتى لا يشاهده ، قال فى الاحياء : ولا يخرج الا لحاجة مهمة أو واجب ، ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة، الا اذا كان يدفع الى الفساد، أو يحمل على مساعدة السلاطين فى الظلم والمنكرات، فتلزمه الهجرة ان قدر عليها ، فان الاكراه لا يكون عذرا فى حق من يقدر على الهرب من الاكراه ه ، وقال غيره من فقهائنا : تحرم الاقامة والسكنى بين قوم لا يتناهون عن المناكر ، ولا زاجر يزجرهم عنها ، وان لم يباشر هو معهم ما هم عليه، وتجب عليه هجرتهم، قال تعالى : « ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها » قالوا : وهو ساقط عن الامامة والشهادة بعدم الهجران ، وهذا اذا وجد محلا يتناهى فيه عن ذلك ، أو يوجد فيه زاجر عنه ، أو اقل مناكر أو فسادا ، من المحل الذى هو به ، أنظر كتب اصحابنا تستفد .

واخرج البيهقى فى الشعب وابن عدى فى كامله عن ابى امامة مرفوعا : « اذا رأيتم الامر لا تستطيعون تغييره فاصبروا حتى يكون الله هو الذى يغيره » ، اى يزيله ، يعنى فلا اثم عليكم حالتئذ ، إذ لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وهذا فى غير من بسطت ايديهم فى الارض ، والرجل فى أهله وخدمه ونحوهم ، وأماهم فهم قادرون على الامر والنهى ولا عجز معهم ، بل هم مستطيعون ، فان لم يفعلوا لحقهم الوعيد الوارد فى تركه قطعا ، ودل ذلك على نفاقهم ، وضعف ايمانهم ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

خاتمــة

خطاب جامع للامة الاسلامية :

فهذه هى أسباب هلاكنا أيتها الامة الاسلامية على سبيل الاجمال ، فى الحال والماضى والاستقبال ، فلنشمر عن ساعد الجد فى تركها ، ولنقم على ساق الاجتهاد فى قطعها ، ولنتبع سبيل المومنين ، والسلف الصالح اجمعين ، بترك موالاة أعداء الدين ، والتأهب لجهاد الكفرة المعتدين ، بعد جهادنا لنفوسنا ، ورد المظالم الى اخواننا ، وامرنا بما امر به مالكنا ، ونهينا عما عنه نهى سيدنا وخالقنا ، ان اردنا السلامة والنجاة ، والعصمة فى الحياة وبعد الممات ، والا فقد عرضنا نفوسنا لسخط الله ، وحلت بنا ، ان لم يتجاوز عنا ، عقوبة الله .

كان سفيان الثورى رحمه الله يقول : قحط بنو اسرائيل سبع سنين حتى اكلوا الميتة والاطفال ، فكانوا يخرجون الى الجبال ، فيتضرعون ولا يجابون ، فاوحى الله الى موسى عليه السلام : أن قل لهم لو عبدتمونى حتى صرتم كالسوط البالى ، ما قبلت لكم دعاء حتى تردوا المظالم الى اهلها ، واصابهم قحط مرة اخرى فاستسقوا فلم يسقوا ، فأوحى الله الى موسى عليه السلام : كيف استجيب لهم وقد خرجوا بابدان نجسة ، ورفعوا الى أكفا قد أكلوا بها الحرام حتى ملئوا بطونهم ، فلا يزدادون منى الا بعدا وقحطا ، فليتوبوا الى وانا ارفع عنهم القحط ، وكان اسحاق بن خلف يقول : ليس الخائف الذى يبكى ويمسح دموعه ، انما الخائف من ترك فعل الامور التى يخاف ان يعذبه الله عليها ، وقيل لسفيان الثورى لو دعوت الله ، فقال ترك الذنوب هو الدعاء ، وأخرج ابن أبى حاتم عن اسماعيل بن

رافع قال : ليس من الأمن لمكر الله اقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة .

فالبدار البدار عباد الله لتدارك ما فات ، بالتوبة والاقلاع عن المعاصى والمنهيات ، قبل ان يقال هيهات هيهات ، أو يحول بيننا وبين ما نريده الممات ، وجدوا فى الاهبة والاستعداد ، وارفعوا عن انفسكم الذلة بالرجوع الى الجهاد ، فان رغبتم عن ذلك ، وأبيتم من سلوك هاتيك المسالك ، فأين ما تقلدتموه من الدين ، وبايعتم الله عليه من سلوك سبيل المهتدين ؟ وأين اصحاب الهمم العالية ، وارباب الغيرة الاسلامية ؟ وأين أهل التقوى ، ومن يطلق فى ناديه لسان الدعوى ؟ واين النفوس العزيزة المستقيمة ، والطباع الابية الكريمة ؟ وأين العقول المنورة السليمة ، والطائفة المشكورة العظيمة ؟ واين ايمة الاسلام ، وما امرنا به من اعلاء كلمة الله تعالى واذلال الكفرة اللئام ؟ أجعلنا بأجمعنا الكتاب والسنة ورا ، ورجعنا من ديننا القهقرا ؟ ام استولى على قلوبنا حب العاجلة ، ونسينا ما نلقاه غدا فى الآجلة ؟ كلا ، بل ران على قلوبنا ، وأخذنا بالدنية فى ديننا ، ورضينا فيه بالذل والهوان ، من القردة والخنازير وعبدة الصلبان ، وبما لم يرضه لدينهم اهل الباطل ، ولا يوافق على العمل به عاقل ، حتى صار احدنا يصاب فى دينه بل فى ايمانه فلا يشعر ولا يبالى ، فاذا اصيب بدنياه ، أو قل بيعه وشراه ، صدع الايام والايالى ، ويرحم الله القائل :

أبنى ان من الرجال بهيمة ... فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله ... فاذا اصيب بدينه لم يشعر

والقائل أيضا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... وللمشترى دنياه بالدين اعجب
واعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين اعجب

وبالله عليكم معاشر الاسلام ، وخصوصا الامراء والولاة ، ومن له بالدين اعتنـاء واكتراث ، كيف الحياة مع العقارب والحيات ، ومن يجهر بالشرك والتثليث وانواع الكفر والضلالات ؟، أم كيف تشرق علينا شموس الاسلام ، اذا علتها من كل جانب سحائب الجهل والغواية والظلام ؟ فلنفق من سكراتنا ، ولنستيقظ من منام غفلاتنا ، ولنستعن بالله فى تحصين بلادنا وساحتنا ، وحياطة ديننا وملتنا ، ولنبادر عايل الاسلام قبل أن يموت ، ولنتدارك من الدين ما عسى ان يفوت .

أعظم تجارة تنجى من عذاب الله ، الايمان بالله ، والجهاد فى سبيل الله :

فهذا كتاب الله بين أيدينا ، وألسنة آياته تنادينا ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قائمة بنادينا ، وعلى احياء الدين وانقاذه من غربته تدلنا وتهدينا ، « يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تومنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله باموالكم وانفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب وبشر المومنين » .

ذكر المفسرون ان المومنين قالوا لو نعلم احب الاعمال الى الله عز وجل لعملناه فنزلت هذه الآية ، قوله : (ياأيها الذين آمنوا) أى صدقوا بالله وبرسوله ، ووعده ووعيده (هل ادلكم على تجارة) استفهام فى اللفظ ، ايجاب فى المعنى (تنجيكم) تخلصكم (من عذاب اليم) أى مؤلم موجع ، وهو عذاب جهنم ، فمكثوا ما شاء الله يقولون ليتنا نعلم ما هى ، وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : أنهم قالوا : لو علمنا ما هى ، لأعطينا فيها الاموال والأهلين ، فدلهم الله عليها بقوله : (تومنون بالله

ورسوله) أى تدومون على ايمانكم بهما ، لان الخطاب وقع لمن آمن (وتجاهدون فى سبيل الله) أى فى دينه وطريقه الذى شرع لكم ، بيانا لصحة ايمانكم ، ودلالة على صدقه وثباته واستمراره ، (باموالكم) أى بان تستعدوا بها لقتال الكفار ، وتشتروا بها ما تحتاجون اليه فى سفركم وقتالكم ، (وأنفسكم) أى بأن تخرجوا لقتالهم وتباشروه بالفعل ، وسمى ما ذكر تجارة لانهم يربحون فيه رضى الله عز وجل ، ونيل جنته ، والنجاة من عقابه ، والنصر على اعدائهم واعدائه ، والفتح لبلادهم وامصارهم ، وعن قتادة قال : لولا ان الله بينها ودل عليها ، لتلهف عليها رجال لم يكونوا يعلمونها حتى يطلبوها ، وقد دلكم الله عليها ، واعلمكم اياها ، وروى عنه ايضا انه تلا هذه الآية ثم قال : الحمد لله الذى بينها ، ثم قال تعالى : (ذلكم) أى ما ذكر من الايمان والجهاد ، (خير لكم) أى من اموالكم وانفسكم ، ومن تضييع ذلك والتفريط فيه (ان كنتم تعلمون) أى مضار الاشياء ومنافعها ، يعنى وان كنتم لا تعلمون ذلك فانتم والعدم على حد سواء ، بل عدمكم خير من وجودكم ، وقال الخطيب : ان كنتم تعلمون ، اى ان كان يمكن ان يتجدد لكم علم فى وقت ، فأنتم تعلمون ان ذلك خير لكم ، فاذا علمتم انه خير أقبلتم عليه ، فكان لكم به أمر عظيم ، وان كانت قلوبكم قد طمست طمسا لا رجاء لصلاحه ، فصلوا على انفسكم صلاة الموت هـ ، وكأنه قيل اذا فعلنا ذلك ، فما يكون لنا ؟ فأجاب : (يغفر لكم) أى اذا فعلتم ذلك يغفر لكم (ذنوبكم) أى يمح أعيانها و آثارها كلها (ويدخلكم) أى بعد التزكية بالمغفرة رحمة لكم (جنات) أى بساتين (تجرى من تحتها) أى من تحت اشجارها وغرفها وكل متنزه فيها (الانهار) فهى لا تزال غضة خضراء زهراء (ومساكن طيبة فى جنات عدن) أى بساتين اقامة وخلود ، (ذلك) أى المذكور من المغفرة وادخال الجنة (الفوز العظيم) اى السعادة

الدائمة الكبيرة ، (واخرى تحبونها) أى ولكم الى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب فى الاجلة ، نعمة اخرى عاجلة محبوبة اليكم ، ثم فسرها بقوله : (نصر من الله) أى لكم على اعدائه واعدائكم (وفتح قريب) أى عاجل لامصارهم وبلادهم (وبشر) اى يا محمد (المومنين) أى بهذا الثواب العظيم ، ليكونوا منه على يقين ، ويدوموا على ايمانهم ، ويقوموا بما امروا به من من جهاد عدوهم ، من غير تراخ ولا توان ، فى زمن من الازمان .

وكفت هذه الآية الشريفة ، لمن وفقه الله ، ترغيبا فى الجهاد وحثا عليه ، وزجرا عن تركه ، كيف وفيه من الآيات والاحاديث ما افرده الناس بالدواوين ، وقد واظب النبى صلى الله عليه وسلم عليه بعد الهجرة الى ان توفاه الله ، بل كانت ساعاته كلها موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ، وتلاه على ذلك الخلفاء الراشدون ، والامراء العادلون . « وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن عمل يعدله فقال : لا أجده » ، اخرجه البخارى وغيره عن ابى هريرة ، « وسئل أيضا عن افضل الاعمال فقال : ايمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله » اخرجه الشيخان عنه ، « وقال ابوذر : قلت يا رسول الله ، أى الاعمال افضل ؟ قال : الايمان بالله والجهاد فى سبيل الله » اخرجاه أيضا ، « وسئل اى الناس افضل ؟ فقال : مومن يجاهد بنفسه وبماله فى سبيل الله تعالى » اخرجاه أيضا عن أبى سعيد .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أقرب العمل الى الله الجهاد فى سبيل الله ولا يقاربه شىء » اخرجه البخارى فى التاريخ عن فضالة بن عبيد ، « وقال : ان افضل عمل المومنين الجهاد فى سبيل الله » اخرجه الطبرانى فى الكبير عن بلال .

موقف ساعة فى سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الاسود :

وقال : « موقف ساعة فى سبيل الله ، خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الاسود » ، اخرجه ابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة ، « وقال : غدوة فى سبيل الله أو روحة ، خير من الدنيا وما فيها » ، اخرجه الشيخان عن انس ، وعن سهل بن سعد الساعدى ، ومسلم ، عن أبى هريرة ، والترمذى ، عن ابن عباس ، قال السيوطى : وهو متواتر وقال : « غدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت » ، اخرجه مسلم عن أبى ايوب .

وقال : « ذروة سنام الاسلام ، الجهاد فى سبيل الله ، لا يناله الا افضلهم » اخرجه الطبرانى فى الكبير عن أبى امامة ، وقال : « رأس الامر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » ، أخرجه الترمذى عن معاذ ، وقال : « من اغبرت قدماه فى سبيل الله ، حرمه الله على النار » ، اخرجه احمد والبخارى عن ابى عبس ، قال المناوى : واذا كان ذا فى غبار قدميه ، فكيف بمن بذل وجهه ونفسه حتى قتل ؟ هـ .

وقال : « من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة فقد وجبت له الجنة » ، اخرجه الاربعة ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال صحيح على شرطهما عن معاذ ، وفى رواية لأحمد عن عمرو بن عبسة « حرم الله على وجهه النار » ، وقال : « مثل المجاهد فى سبيل الله ، كمثل الصائم نهاره ، القائم ليله ، حتى يرجع ، متى يرجع » ، اخرجه احمد والبزار والطبرانى عن النعمان بن بشير ، وقال خطابا لامرأة أتته فقالت يا رسول الله ، انطلق زوجى غازيا ، وكنت أقتدى بصلاته اذا صلى ، وبفعله كله ، فاخبرنى بعمل يبلغنى عمله حتى يرجع : « أتستطيعين ، ان تقومى ولا تقعدى ،

وتصومى ولا تفطرى ، وتذكرى الله تعالى ولا تفترى ، حتى يرجع ؟ ، قالت : ما أطيق هذا يا رسول الله ، فقال : والذى نفسى بيده لو طقتيه ما بلغت العشر من عمله » ، رواه احمد عن معاذ بن انس ، وقال : « أقرب الناس من درجة النبوءة اهل العلم والجهاد » ، اخرجه ابونعيم ، فى فضل العالم العفيف عن ابن ابن عباس مرفوعا ، وقال لرجل : « والذى نفسى بيده لو انفقت ما فى الارض ما ادركت فضل غدوتهم » ، يعنى المجاهدين فى سبيل الله ، اخرجه ابن المبارك فى كتاب الجهاد من مرسل الحسن . ولما نقل ابن يونس فى ديوانه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض اصحابه : « لو قمت الليل وصمت النهار ما بلغت نوم المجاهد » وفى الحديث الآخر : لم يبلغ غبار شراك نعاله ، نقل عن ابن قدامة قال : لأن أقف موقفا فى سبيل الله مواجها للعدو لا أضرب بسيف ، ولا اطعن برمح ، ولا أرمى بسهم ، أفضل من ان اعبد الله ستين سنة لا اعصيه ، وقال أبو هريرة : لحرس ليلة أحب الى من صيام الف يوم أصومها ، وأقوم ليلها فى المسجد الحرام ، وعند قبر النبى صلى الله عليه وسلم » .

وما ورد فى الجهاد من هذا ونحوه أكثر من أن يحصر، وقد تكفل ببيان بعضه الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ، ومن هذه الاحاديث ونحوها ، أخذ جماعة من العلماء ، منهم القرطبى ما ذكره من ان الجهاد أفضل الاعمال ، وانه لا يقاومه شىء منها ، قال المناوى فى التيسير : أعلا انواع التقربات الجهاد ، فالغدوة والروحة فيه خير من الدنيا وما فيها ه ، وهو صحيح من حيث أن به تعلو راية الاسلام ، وتكون العزة لأهله على الدوام ، وكلمة الذين كفروا سفلى ، وكلمة الله عليا ، سيما فى وقت وجوبه على الاعيان ، كما هو فى هذا الزمان ، وعبارة الفشنى فى شرحه للاربعين النووية : والجهاد اعلا أنواع الطاعات ، من حيث ان به يظهر الاسلام ويعلو على سائر الاديان ، وليس ذلك لغيره من

العبادات ، فهو اعلى بهذا الاعتبار وان كان فيها ما هو افضل منه أى باعتبار آخر ، قال : وعلى هذا يحمل قول بعضهم الجهاد لا يقاومه شىء هـ .

وفى زاد المعاد لابن القيم قال : الجهاد ذروة سنام الاسلام وقبته ، ومنازل اهله اعلا المنازل فى الجنة ، كما لهم الرفعة فى الدنيا ، فهم الاعلون فى الدنيا والآخرة . هـ ، وفى التوضيح فى باب الحج ما نصه : المراد بالجهاد ان تكون كلمة الله هى العليا ، والقيام بها أشرف من القيام بالصلاة ، لأن عدم القيام بالتوحيد كفر ، وعدم القيام بالصلاة ، ليس بكفر على المعروف هـ .

قلت : خصوصا فى هذا الزمان الذى علا فيه الشرك واهله ، واستذلوا المومنين ، وأخذوا كثيرا من بلادهم وحصونهم ، فلا يمكن ان يطيب لهم عيش ، أو تهنأ لهم حياة (1) أو أو يستقيم لهم شىء من الدين الا به ، وكذلك لا يرتفع عنهم ما هم فيه من الكروب والهموم والغموم والبلاء ، الا بفعله والنهوض له ، والاخذ بالثار من اعداء الله تعالى واعداء المسلمين ، وفى حديث البيهقى عن ابن عمر مرفوعا : « اذا الناس تبايعوا بالعينة ، واتبعوا اذناب البقر ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاء (أى ذلا وهما وغما) فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » ، وفى حديث الحاكم والطبرانى عن أبى امامة مرفوعا : « عليكم بالجهاد فى سبيل الله ، فانه باب من ابواب الجنة ، يدفع الله به الهم والغم » ، وفى زاد المعاد لابن القيم ما نصه : « وأما تأثير الجهاد فى دفع الهم والغم فامر

---

(1) لم يدرك المؤلف قيام دولة اسرائيل ، وما نال العرب من ذل وهوان بسببها ، يفوق ذل الاستعمار الغربى ، ومع ذلك طاب لهم العيش وحياة الترف والنعيم ، ولم يعد هناك من يفكر فى الجهاد ، او يذكر اسمه من المسؤولين العرب حتى على سبيل التهديد به ، فى عصر الجهاد الافغانى ، معجزة الاسلام فى راس القرن الخامس عشر الهجرى .

معلوم بالوجدان ، فان النفس متى تركت صائل الباطل وصولته واستيلاءه ، اشتد همها وغمها ، وكربها وخوفها ، فاذا جاهدته لله ، أبدل الله ذلك الهم والحزن فرحا ونشاطا وقوة ، كما قال تعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مومنين » ، ويذهب غيظ قلوبهم ، فلا شىء أذهب لجوى القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد هـ ، وفق الله المسلمين له ، واعانهم عليه بمنه وكرمه آمين .

دعوة كل قارىء وسامع لهذه النصائح للعمل بها :

فدونك أيها السامع والناظر لهذه النصائح ، فى كل قطر ، وكل بلد ، وكل اقليم ، فاقبلها قبول اذعان ، واعمل بها فان ذلك من علامات الايمان ، ولا ترفضها فتخسر خسرانا مبينا ، أو تعرض عنها فتضل ضلالا بعيدا وتكون مهينا ، وتب الى الله تعالى من عصيانك ، وصمم على ترك ما كنت فيه من غيك وبهتانك ، فقد قال تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجالهة ، ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم » ، وقال : « ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فاولئك مع المومنين » ، وقال : « من تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم » وقال : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، اخرجه ابن ماجة عن ابن مسعود ، والحكيم الترمذى عن أبى سعيد ، وابن النجار والديلمى عن أنس ، زاد البيهقى وابن عساكر من حديث ابن عباس : « والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه » ، وقال العلماء : ان توبة التائب من ذنوبه مقبولة قطعا على اظهر القولين ، الا فى وقت الغرغرة ،

وعند طلوع الشمس من مغربها ، وفقنا الله تعالى وإياك ، وأنالك من جهاد عدوه مقصدك ومتمناك ، بفضله آمين .

أولى الناس للعمل بهذه النصائح :
الامراء والعلماء وآل البيت الشرفاء :

وليعلم ان أولى الناس واحقهم بما ذكرناه ، وسطرناه فى هذه المقالة واصلناه ، الامراء والعلماء ، وآل بيته عليه الصلاة والسلام الشرفاء .

أما الامراء : فلان الله تعالى جعلهم خلفاء عنه ، وبسط يدهم فى الارض ، وحكمهم فى طولها والعرض ، واقدرهم على جبر الناس على الفعل والترك ، فكانوا أحق الناس بالاتباع ، وأولاهم بالانزجار والارتداع ، وبالرد الى الطريق الشرعى ، والمنهج القويم المرعى .

ولانه تعالى امر بطاعتهم كما امر بطاعته وطاعة رسوله ، وقرنها بطاعتهما فى قوله تعالى : « أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ، وحض نبيه صلى الله عليه وسلم عليها فى غير ما حديث ، كقوله : « من اطاعنى فقد اطاع الله ، ومن عصانى فقد عصا الله ، ومن اطاع الامير فقد أطاعنى ، ومن عصا الامير فقد عصانى » ، اخرجه البخارى ومسلم عن ابى هريرة ، فاذا لم يكونوا تابعين للمنهج الشرعى ، عاملين بالحق ، قائمين بالسنة ، أوقعوا الناس بطاعتهم فى العطب ، وضل الجميع والعياذ بالله تعالى .

ولانه قد تقرر فى الشرع ، وعند الحكماء ، أن صلاح الامة بصلاحهم ، وان فسادها بفسادهم ، ففى حديث البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة مرفوعا : « اذا صلح الملك صلح جنوده ، واذا فسد

الملك فسدت جنوده » ، وفى رواية لابى الشيخ فى العظمة ، وأبى نعيم فى الطب ، عن أبى سعيد ، والحكيم الترمذى عن عائشة : اذا صلح الملك صلحت رعيته ، وقال سفيان الثورى لابى جعفر المنصور : انى لاعلم رجلا ان صلح صلحت الامة ، قال ومن هو ؟ قال انت ، وقال الوليد بن هشام : ان الرعية لتفسد بفساد الوالى وتصلح بصلاحه ، وقال البرزلى فى كتاب الجامع من نوازله : احفظ فى تاريخ بغداد عن ابن عباس قال : من كانت له دعوة فليجعلها فى الملك ، فان صلاحه صلاح العامة ، وقالت الحكماء : منزلة الملوك من الرعية كمنزلة الروح من الجسد ، فاذا صفت الروح من الكدر ، سرت الى الجوارح سليمة ، فاستقامت الجوارح والحواس ، وانتظم امر الجسد ، واذا تكدرت الروح ، أو فسد مزاجها ، فياويح الجسد تسرى اليه وهى متكدرة منحرفة عن الاعتدال ، فيأخذ كل عضو قسطه من الفساد ، فتمرض الجوارح ، ويتعطل نظام الجسد ، ويجر ذلك الى فساده وهلاكه .

ولانه قد علم من نصوص السنة ، وأقاويل علماء الامة ، انه يجب عليهم الذب عن المسلمين ، وحياطتهم ، وحفظ ثغورهم وبلادهم ، وجهاد عدوهم ، وكف يد الظالم عنهم ، وتدبير امورهم بالشرع المطهر المبارك المحمدى فى الابدان والاموال ، والنفوس والاخلاق ، والاعمال والعقائد ، وتفريق أموال بيت المال فى مصارفها الشرعية ، وعدم الاستئثار بما فوق الكفاية والمعروف منها ، والمبالغة فى اصلاح السيرة والسريرة .

وهذه هى الامور التى شرع الله نصب الايمة لها ، فمن قام بها من الايمة والسلاطين فهو من اهل الاجتهاد للرعية ، والناصحين لها ، والذابين عن ساحتها ، وله على ذلك من الله تعالى الجزاء الاوفى ، والمرقى الارقى ، وكان قطبا من اقطاب الدين ، وركنا

من اركان اهل اليقين ، وملجئا للاسلام والمسلمين ، وصلاحا لجميع العالمين ، وتقارب درجته درجة الانبياء والمرسلين ، ويعد فى جملة الخلفاء العادلين ، وقد ورد فى الامام العادل : انه من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله ، وأنه من الثلاثة الذين لا ترد دعوتهم ، ويكون عند الله يوم القيامة على منبر من نور عن يمين الرحمان ، وانه احب الناس الى الله يوم القيامة ، وافضلهم عنده منزلة ، وادناهم منه مجلسا ، وان يوما من ايامه وساعة من ساعاته افضل من عبادة ستين سنة ، قيام لياها وصيام نهارها ، الى غير ذلك .

ومن اخل بشىء منها فهو غير مجتهد للرعية ، ولا ناصح لها ، بل هو غاش خائن ، لأحاديث وردت بذلك ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « ما من أمير يلى امر المسلمين ، ثم لا يجهد لهم وينصح الا لم يدخل معهم الجنة » ، رواه مسلم والطبرانى عن معقل بن يسار ، زاد الطبرانى : « كنصحه وجهده لنفسه » وقوله : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله تعالى عليه الجنة » وفى رواية : « فلم يحطها بنصحه ، لم يرح رائحة الجنة » ، رواه الشيخان عنه ايضا ، وقوله : « من ولى من امر المسلمين شيئا فغشهم فهو فى النار » رواه الطبرانى فى الاوسط والصغير عن أنس ، وقوله : « ما من امتى احد ولى من امر الناس شيئا لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه الا لم يجد رائحة الجنة » ، رواه الطبرانى فيهما أيضا عن ابن عباس ، وقوله : « ما من امام ولا وال بات ليلة سوداء غاشا لرعيته الا حرم الله عليه الجنة » ، رواه الطبرانى عن عبد الله بن معقل المزنى .

قال العلماء رضى الله عنهم : وعلى من كان واليا أو سلطانا ان يقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالخلفاء الراشدين فى جميع ما ياتى ويذر ، من قليل أو كثير ، جليل أو حقير ، لانه

خليفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعنهم ، وقائم مقامهم .

وعليه أيضا تقريب أهل العلم والفضل ، وتعظيمهم واحترامهم ، والمشاورة معهم فى الدين والدنيا ، وقد كان رسول صلى الله عليه وسلم يجالس أكابر الصحابة ويشاورهم فى اموره ، ويإذن لهم فى أوقات لا ياذن فيها لغيرهم كما هو معروف ، بل كان صلى الله عليه وسلم يخلط نفسه بكثير من الصحابة ، ويجلس الى اهل الصفة ، وهم فقراء المسامين الذين لا أهل لهم ولا مسكن ، وفى تقريب اهل الفضل فوائد جليلة : منها انه يجرى الامور على ما عندهم من النظر فيما فيه صلاح المسلمين ، فإن فضلهم يقتضى ذلك ، واما تعظيمهم واحترامهم ، فهو من حق المسام على المسلم ، ومن تنزيل الناس منازلهم ، كما ورد بذلك الدليل الصحيح ، وفى مفيد النعم للتاج السبكى : « ما رأيت اميرا ينتقص من جانب الفقهاء الا وكانت عاقبته عاقبة سوء » ، واما المشاورة معهم فلانها امر واجب على الامراء والولاة ، ومن لا يستشير أهل العلم والدين ، لا يصلح لولاية المسلمين فى شىء ، وفى المختصر فى باب القضاء : « واحضر (اى القاضى) العاماء اوشاورهم » ، ثم قال : « ونبذ حكم جائر وجاهل لم يشاور » .

وعليه أيضا مجانبة الاشرار ومن لا يخاف الله ، ولا غرض له الا فى جمع الحطام ، وتحصيل الشهوات ، فإن من هذه حالته لا يصلح لمجالسته أدنى رجل من المسلمين ، فكيف بمجالسة أمير المومنين ، وفى الحديث : « اذا اراد الله بالامير خيرا جعل لـه وزير صدق ان نسى ذكره ، وان ذكر أعانه واذا اراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسى لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه » رواه ابوداوود وغيره عن عائشة ، وفيه أيضا : « ما بعث الله من نبى ، ولا كان بعده من خليفة ، الا له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تالوه خبالا ، فمن وقي شرها فقد

وقي » رواه البخاری عن أبی ايوب ، وروی نحوه أيضا عن ابی سعيد الخدری وابی هريرة .

وعليه أيضا تسهيل الحجاب ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « من ولی أمر الناس ثم اغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذی الحاجة ، أغلق الله تبارك وتعالی ابـواب رحمته دون حاجتـه وفقره أفقـر ما يكون اليها » ، رواه احمـد وابو يعلی عن ابی السماح الازدی ، عن ابن عم له من أصحاب النبی صلی الله عليه وسلم ، انه اتی معاوية فدخل عليه فقال : سمعت رسول الله صلی الله عليه وسلم يقول : فذكره .

وعليه أيضا تفقد الضعفاء ، والبحث عن احوالهم ، بنفسه أو بثقات يرفعون حوائجهم اليه ، ويوصلـون اغراضهم الـی مقامه ، وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب رضی الله عنه يطوف بنفسه فی الليل عـلی الارامل والضعفاء والايتام ، ويسأل عـن احوالهم ، وينظر فی حوائجهم ، ويقضيها لهم حتی بنفسه .

وبالجملة فمعظم المقصود من نصب الايمة ، اقامة الدين ، وجهاد اعداء الله ، وتنفيذ أحكامه ، وكف أيدی المعتدين والظالمين ، وتامين السبل والبلاد ، والقيام بسنن خير العباد ، فمن كان منهم ناهضا بهذه الامور ونحوها،حصل به مقصود الامامة،وانتفع الناس بولايته غاية النفع دينا ودنيا ، وحصل له علی ذلك الاجر التام ، والرضی الكبير من الله تعالی ، ومن رسوله صلی الله عليه وسلم ، وحشر يوم القيامة مع النبيئين والمرسلين ، وكان معهم فی الجنة فی اعلا عليين ، ومن لم يكن ناهضا بها لم يحصل به المقصود ، وان كان عالما عابدا ، ولا ينفعهم كونه مريدا للصلاح ، واجراء الامور مجاريها الشرعية ، مع عجزه عن ذلك ، وعدم قدرته علی انفاذه ، وان كانت محبة الصلاح افضل بمراتب لا حصر لها من محبة الفساد ، والخوض فيه ، والسعی اليه .

وقد ذكر العلماء فى باب الامامة من كتبهم كثيرا من الاحكام السلطانية ، وافردها جماعة منهم بالتصنيف ، ونبه التاج السبكى فى (معيد النعم ومبيد النقم) على مهمات منها أهملها الملوك أو قصروا فيها ، ومن جملة ما ذكر فيه من وظائف السلطان : تجنيد الجنود ، واقامة فرض الجهاد لاعلاء كلمة الله تعالى ، فان الله تعالى لم يوله على المسلمين ليكون رئيسا آكلا شاربا مستريحا ، بل لينصر الدين ، ويعلى الكلمة ، فمن حقه الا يدع الكفار يكفرون بأنعم الله ، ولا يومنون بالله تعالى ولا برسوله صلى الله عليه وسلم ، فاذا راينا ملكا تقاعد عن هذا الامر ، واخذ يظلم المسلمين ويأخذ اموالهم بغير حق ، ثم سلبه الله نعمته ، وجاء يستعتب الزمان ، ويشكو الدهر ، أفليس هو الظالم ؟ وقد كان يمكنه بدل أخذ اموال الناس وظلمهم ، ان يقيم جماعة فى البحر يتلصصون على أهل الحرب ، وان كان هذا الملك شجاعا ناهضا فليرنا همته فى اعداء الله تعالى الكفار ، ويجاهدهم ويتلصصهم ، ويعمل الحيلة فى أخذ اموالهم حلا وبلا ، ويدع عنه اذية المسلمين ه المراد منه ، وراجعه وفق الله جميع الايمة ، واعانهم على ما فيه صلاح انفسهم وصلاح الامة ، بمنه وكرمه آمين .

وأما العلماء فلانهم أمناء الله فى الارض وورثة الانبياء ، وخلفاء الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ونواب نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحراس الدين ، وسرج الازمنة ، وقدوة الخلق ، قال عليه الصلاة والسلام : « العالم آمين الله فى الارض » اخرجه ابن عبد البر فى كتاب العلم ، والديلمى عن انس ، وقال : « العلماء امناء الرسل على عباد الله » اخرجه الديلمى وغيره عنه ، وقال : « العلماء امناء الله على خلقه » أخرجه القضاعى وابن عساكر عنه ايضا ، وقال : « العلماء أمناء امتى » اخرجه الديلمى عن عثمان ، وقال : « العلماء ورثة الانبياء » اخرجه احمد وابوداوود

والترمذى وآخرون عن أبى الدرداء ، وله طرق أخر ، وقال : « العلماء مصابيح الارض ، وخلفاء الانبياء ، وورثتى ، وورثة الانبياء » اخرجه ابن عدى فى كامله عن على ، وقال : « العالم سلطان الله فى الارض » أخرجه الديلمى عن ابى ذر ، وقال « العلماء قادة ، والمتقون سادة ، ومجالسهم زيادة » اخرجه الطبرانى عن ابن عباس .

واذا كانوا بهذه المثابة ، فهم احق الناس بعد الانبياء بالامر والنهى ، والدعاء الى الله تعالى والدلالة عليه ، والتبيين لشرائعه ، والحث عليها ، ولان الله تعالى امر بطاعتهم ايضا ، فى قوله : « وأولى الامر منكم » فانهم فسروا بأهل العلم ايضا ، وقد خصوا بمزية وفضيلة لا يشاركهم فيها غيرهم ، وهى ان الله تعالى يعبد بفتواهم ، ويعرف حلاله وحرامه بهم فصار كل من اطاع الله تعالى وعبده ، أو ترك معصية أو بدعة فى صحائفهم ، فاذا لم يكونوا على الصراط المستقيم ، ولم يامروا وينهوا انعكس الحال ، وانقلبت الطاعة معصية ، وضاع الدين ، ولما تقرر من ان بصلاحهم تصلح الامراء ، كما ان بصلاح الامراء تصلح الرعية ، فصار صلاح العلماء صلاحا للامة كلها ، قال أبو الاسود الدؤلى : ليس شىء اعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك ، وانشد بعضهم :

ان الاكابر يحكمون على الورى ... وعلى الاكابر تحكم العلماء

وفى الاحياء قال : فساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا ، لم يقدر على الاراذل ، فكيف على الملوك والاكابر ه وفى الحديث : « صنفان من الناس اذا صلحا صلح الناس ، واذا فسدا فسد الناس : العلماء والامراء » اخرجه ابن عبد البر ،

وابو نعيم فى الحلية ، والديلمى ، عن ابن عباس ، واخرج ابونعيم فى الحلية عن يحيى بن ابى كثير قال : العلماء مثل الملح هو صلاح كل شىء فاذا فسد الملح لم يصلحه شىء ، وفى معناه أنشدوا :

يا معشر العلماء يا ملح البلــد ما يصلح الملح اذا الملح فســد

والعالم اذا لم يراع حق الله تعالى ، وحق رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجانب الشريعة المطهرة ، واتبع الاهواء والاغراض كان علمه فى الحقيقة وبالا عليه ، ووصمة تجر النكال فى الدنيا والآخرة اليه ، وقد ورد : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه » اخرجه الطبرانى فى الصغير ، والبيهقى فى الشعب ، وغيرهما ، عن أبى هريرة ، وهذا هو العلم الذى كان السلف الصالح يستعيذون بالله منه واستعاذ منه قبلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول : « اللهم انى اعوذبك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » اخرجه مسلم وغيره عن زيد بن ارقم ، وكان الشيخ أبو اسحاق الشيرازى يقول : نعوذ بالله من علم يكون حجة علينا ، وينشد :

علمت ما حلل المولى وحرمــه فاعمل بعلمك ان العلم للعمل

ومن كتاب سير السلف للحافظ اسماعيل بن محمد بن الفضل الاصبهانى : قال ابراهيم الخواص : ليس العلم بكثرة الرواية ، انما العلم لمن اتبع العلم وأستعمله واقتدى بالسنن ، وان كان قليل العلم هـ .

وفى المدخل لابن الحاج : قال الفضيل بن عياض : لو ان أهل العلم أكرموا انفسهم ، وشحوا على دينهم ، وأعزوا العلم وصانوه ، وانزلوه حيث انزله الله تعالى ، لخضعت لهم رقاب الجبابـرة ، وانقادت لهم الناس ، وكانوا لهم تبعا ، وعز الاسلام واهله ، ولكنهم أذلوا انفسهم ، ولم يبالوا بما نقص من دينهم ، اذا سلمت

لهم دنياهم ، وبذلوا علمهم لابناء الدنيا ، ليصيبوا بذلك ما فى ايديهم ، فذلوا وهانوا على الناس هـ ، وفى معناه انشد القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى لنفسه من قصيدة ذكرها بتمامها فى معيد النعم :

ولو ان اهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن اذلوه فهان ودنسوا محياه بالاطماع حتى تجهما

قال التاج السبكى : فلقد صدق هذا القائل ، لو عظموا العلم لعظمهم ، قال : وانا اقرأ قوله لعظما بفتح العين ، فان العلم اذا عظم عظم، وهو فى نفسه عظيم، ولهذا اقول : ولكن أهانوه فهانوا، ولكن الرواية فهان ولعظم بضم العين ، والاحسن ما اشرت اليه هـ ،

وفى مراقى الزلفى للقاضى أبى بكر بن العربى : قال بعض السلف : من طلب العلم لوجه الله لم يزل معانا ، ومن طلبه لغير الله لم يزل مهانا هـ ، وفى بعض الاخبار : احذروا فتنة العابد الجاهل ، والعالم الفاسق ، فان فتنتهما فتنة لكل مفتون ، وفى القوت : كان ابن عباس يقول : ويل للعالم من الأتباع ، يزل الزلة فتحمل عنه فى الافاق ، وقال آخر : زلة العالم مثل انكسار السفينة، تغرق وتغرق الخلق هـ، وفقنا الله تعالى لطاعته ، وقر اعيننا باقتفاء اثر المصطفى واتباع سنته وجعلنا من العلماء العاملين ، وأهل الله الكاملين ، بفضله آمين .

وأما آل بيته الشرفاء ، فلانهم قومه عليه الصلاة والسلام وحزبه ، ولا فخر لهم فى الدنيا والآخرة الا بعلو دينه ، وانتصار شريعته ، وقد اجتمع فيهم حمية دينية ، وأخرى نسبية ، فكانوا أولى الناس بالقيام بالشرائع ، والتمسك بها ، والحض عليها ، وقد اخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى ، عن ابيه عن جده ، « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : ادخلوا على ولا يدخل على الا قرشى ، فقال : يا معشر قريش انتم الولاة بعدى لهذا الدين ، فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » .

ولان الناس تبع لهم فى كل شىء ، قال عليه الصلاة والسلام « الناس تبع لقريش فى الخير والشر » اخرجه احمد ومسلم عن جابر ، وقد كانوا متبوعين فى الجاهلية فى كفرهم ، بكون امر الكعبة بيدهم ، فكذلك هم متبوعون فى الاسلام ، بكون النبى صلى الله عليه وسلم منهم ، فاذا تمسكوا بالشريعة المطهرة ونصروها ، تبعهم الناس على ذلك ، والعكس بالعكس .

ولان جدهم صلى الله عليه وسلم امرنا فى غير ما حديث باتباعهم ، والتمسك بهم والاقتداء بجنابهم ، كقوله عليه الصلاة والسلام فيما اخرجه الحاكم فى المستدرك عن زيد بن أرقم : « أيها الناس ، انى تارك فيكم امرين لن تضلوا ان اتبعتموهما : كتاب الله وأهل بيتى عترتى » ، وهو بمعناه فى مسلم وغيره بالفاظ عديدة ، فاذا خالفوا امره ، واتبعوا غيره ، تحملوا بذلك اثمهم واثم من اتبعهم ، وان كان الاقتداء انما هو بأهل العلم منهم ، العاملين بعلمهم ، ، وهم باقون الى يوم القيامة ، حشرنا الله تعالى فى زمرتهم ، وأماتنا على محبتهم آمين .

وقد كتبت هذه النصيحة قاصدا بها جميع أهل الأفاق ، من كل المسلمين على الاطلاق ، وخصوصا اهل مغربى ، لكونهم جوار مكسبى ، وانا اعلم ان الوقت ولابد غير مساعد ولا راض ، وان الزمان زمن الامارات المؤذنة بالانقراض ، ولكن رجوت النفع بها ولو لبعض الناس ، ممن اراد الله تطهيرهم من الارجاس ، ولم

آيس من حصوله للجم الغفير ، أو القطر الكبير ، وربنا على كل شيء قدير .

وقصدت أيضا اظهار العلم ، والخروج من الكتمان ، وابداء عدم الرضى بما حل فى الزمان ، والأداء لبعض ما يجب من الانكار ، والتغيير والانذار ، على حسب الطاقة والامكان ، وهل يلام اذا ادى بعض ما عليه الانسان .

وأسأل الله باحسانه الينا ، وعظيم اياديه لدينا ، ان يمن علينا باللطف العميم ، ويرأف بنا انه جواد كريم ، وان يكرمنا فى الدارين بكرامة الدخول فى حماية نبيه وحبيبه المصطفى ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وكفى ، ويجعلنا من أهل حزبه وجماعته ، ويحشرنا فى الرعيل الاول من اهل شفاعته ، « ربنا لا تواخذنا ان نسينا أو اخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » ، « ربنا عليك توكلنا ، واليك انبنا ، واليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة لاذين كفروا واغفر لنا ربنا ، انك انت العزيز الحكيم » « سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » انتهى ووافق الفراغ من من نسخ هذه النسخة من خط مؤلفها صبيحة يوم السبت عاشر ربيع الأول عام 1326 بالمدينة المنورة ، على ساكنها افضل الصلاة والسلام ، ثم قوبل بها فصح ، الا ما زاغ عنه البصر .

قابله مؤلفه وجامعه محمد بن جعفر الكتانى كان الله له بمنه آمين ، وفرغ من مقابلته يوم الثلاثاء خامس وعشرى ربيع الثانى عام 1326 هـ

وتم طبعه بفاس فى 20 شعبان 1326 هـ
(17 شتنبر 1908 م)

ملحق خاص

بمؤلفات الامام شيخ الاسلام محمد بن جعفر الكتانى

كتب فى التاريخ والسيرة :

1 — (الازهار العاطرة الانفاس ، بذكر مناقب قطب المغرب وتاج مدينة فاس) فى مجلد ، طبع بفاس طبعة حجرية سنة 1314 .

2 — (سلوة الانفاس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس) ، فى 3 مجلدات ضخمة ، طبع بفاس طبعة حجرية سنة 1316 .

3 — (اسعاف الراغب الشائق بخبر ولادة خير الانبياء وسيد الخلائق) طبع بفاس سنة 1321

4 — (نيل المراد بمولد خير العباد) طبع فى الدار البيضاء ودمشق عدة طبعات وهو المولد الشعبى المقروء فى عموم المدن المغربية

5 — (اعلام ذوى النهى من سائر الاقاليم ، بحسن القيام للمولد النبوى ويمعنى طيه ص للعوالم) .

6 — (المطالب العزيزة الوفية ، فى تكلمه عليه السلام بغير اللغة العربية) .

7 — (نيل المنى وغاية السول بذكر معراج النبى المختار الرسول) نشرته مكتبة الشرق ومكتبة العالم الاسلامى سنة 1342 بدمشق وطبع ثانيا من طرف مكتبة عرفة .

8 — (الرحلة السامية للاسكندرية والحجاز ومصر والبلاد الشامية) .

9 — (النبذة اليسيرة النافعة ، التى هى لأستار جملة من احوال الشعبة الكتانية رافعة)

كتب فى الحديث :

10 — (نظم المتناثر من الحديث المتواتر) طبع بفاس سنة 1328 بأمر السلطان عبد الحفيظ ، واعيد طبعه بدار الكتب العلمية ببيروت سنة 1400 هـ 1980 م .

11 — (الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة) الفها باقتراح من السلطان عبد الحفيظ وطبعت 6 مرات بدمشق وبيروت .

12 — (الرسالة المختصرة فيما لا يسع المحدث جهله من كتب السنة المطهرة)

(الاقاويل المفصلة لبيان حال حديث الابتداء بالبسملة) .

13 — (مسلسلات حديثية) أولى وثانية .

14 — (شرح ختم الموطإ) .

15 — (شرح ختم البخارى) .

16 — (شرح ختم مسلم)

17 — (شرح ختم الشمائل)

18 — (شرح اول ترجمة من جامع الترمذى) .

19 — (تخريج احاديث الشهاب للقضاعى) لم يكمل .

20 — (اجازة) فيها أسانيد بالكتب الستة وغيرها .

21 — (اجازة) أخرى مشتملة على عدة من الشيوخ .

22 — (اجازة) أخرى مشتملة على عدة من الشيوخ وعلى بيان أسانيدنا فى كثير من طرق القوم .

23 — (اجازة) أخرى مشتملة على عدة فهارس والسند اليها .

24 —

كتب فى التفسير :

25 — (تفسير قوله تعالى : ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الآية .

26 — (تفسير مختصر للاخلاص والمعوذتين) .

27 — (رسالة فى البسملة على طريق الاشارة للجناب النبوى) .

28 — (جواب عن آية « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) .

كتب فى الفقه :

29 — (سلوك السبيل الواضح لبيان ان القبض فى الصلوات كلها مشهور وراجح) .

30 — (نصرة ذوى العرفان فيما احدثوه لذكر الهيللة جماعة من الطبوع والالحان) .

31 — (ارشاد العوام لما فيه العمل فى الصيام) .

32 — (رفع الملامة ودفع الاعتساف عن المالكى اذا بسهل فى الفريضة خروجا من الخلاف) .

33 — (الدعامة لمعرفة احكام سنة العمامة) نشرته مكتبة الشرق ومكتبة العالم الاسلامى بدمشق سنة 1342 .

34 — (رفع الالتباس ببيان ما للعلماء الاكياس فى مسالة الحرير التى وقع الخوض فيها بين الناس) .

35 — (اتحاف ذوى البصائر والحجا بما فيه بمسالة الحرير السرور والنجا) .

36 — (الاعلام بما فى المجانات المحلاة من الاحكام) .

37 — (حاشية على شرح ميارة الصغير للمرشد المعين) .

38 — (رسالة) فى حكم الجمعة فى حق من سافر دون مسافة القصر .

39 — (حاشية على شرح الجامع المنسوب للشيخ خليل للشيخ التاودى) لم تكمل

40 — (رسالة) فى عدة مسائل فقهية .

41 — (رسالة) فيما يعمل عليه فى رمضان من اقام فى بلدة من بلاد النصارى يتوالى فيها الغيم فى أكثر الاوقات حيث لا يتأتى فيها رؤية الهلال .

42 — (رسالة) فى وجوب تناصر المسلمين على اعدائهم الكافرين مع الامكان .

43 — (رسالة) فى حكم الاحتماء بالنصارى .

44 — (رسالة) فى بيان حقيقة الخز وحكم ما ليس بخز .

45 — (رسالة) فى بيان حقيقة الخز وحكم ما ليس بخز .

46 — (اعلان الحجة واقامة البرهان بمنع ما عم وفشا من استعمال الدخان) ذكر فيه 16 دليلا شرعيا على تحريمه وفتاوى العلماء بالتحريم من المذاهب الاربعة .

47 — (تنبيه الاغنياء والسادات على ما يجب عليهم وقت المجاعة من المواساة) طبع بفاس طبعة حجرية .

48 — (رسالة) فى حكم السيادة فى الاسم الاعظم اعنى اسم نبينا طى الله عليه وسلم .

كتب فى التصوف

50 — (جلاء القلوب من الاصداء الغينية ببيان احاطته عليه السلام بالعلوم الكونية) فى مجلدين كبيرين ، قال عنه المؤلف : اظن انى لم اسبق الى مثله وضعا وتحريرا وفوائد جمة بلسان القوم ، وبمطالعته يعرف قدره .

51 — (رسالة) فى مسائل تتعلق بسلب الارادة بالعين .

52 — (رسالة) اخرى فى مسائل ثلاثة تتعلق به ايضا .

53 — (رسالة) اخرى تتعلق بسلب الارادة وطريق القوم .

54 — (شرح) على ابيات للشيخ العارف بالله الحاج المفضل البقالى فى طريقته (خاصة الخاصة) .

55 — (رسالة) فى الختم المحمدى .

56 — (شرح) على دلائل الخيرات ، لم يكمل .

كتب فى موضوعات مختلفة :

57 — (نصيحة أهل الاسلام) طبع بفاس طبعة حجرية سنة 1326 .

58 — (شفاء الاسقام والآلام بما يكفر ما تقدم وما تأخر من الذنوب والاثام) طبع بالمطبعة الحسينية بالقاهرة سنة 1325 .

59 — (بلوغ القصد والمرام ببيان ما تنفر منه الملائكة الكرام) طبع بنفس المطبعة السابقة مع الكتاب السابق فى مجلد واحد .

60 — (الكشف والبيان لما يرجع لأحوال المكلفين من عقائد الايمان) .

61 — (شرح) كتاب للسلطان مولاى الحسن بن محمد العلوى كتبه الى بعض اشياخه بفاس .

62 — (خطب وادعية) جمعها عندما كان يخطب بجامع أبى الجنود بفاس نيابة عن والده .

63 — (رسالة) فى آداب الدخول بالزوجة .

64 — (تعجيل البشارة للعامل بالاستخارة) .

مصطلحات حديثية ومفردات لغوية

الحسن : يقصد به الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

أحمـد : يقصد به الامام أحمد بن حنبل .

الخليـل : يقصد به ابراهيم الخليل .

الصحيحان : صحيح البخارى وصحيح مسلم .

الشيخان : البخارى ومسلم .

الاربعة : البخارى ومسلم والترمذي والنساءى .

الحديث المرفوع : هو الذى أضيف الى النبى صلى الله عليه وسلم من قـول أو فعل أو تقرير أو صفة حقيقة أو حكمـا .

الحديث المرسل : هو ما سقط منه الصحابى ورفعه التابعي الـى الرسول صلى الله عليه وسلم .

الحديث المعضل : هو ما سقط من سنده اثنان فأكثر قبل الصحابى بشرط التوالى .

الحديث الغريب : هو الذى تفرد راويه بروايته ممن يجمع حديثه لضبطه وعدالته .

الجماعـة : من كان على ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من اتباع طريق الهدى والحق .

الآيـة : اى اقرأ تتمـة الايـة .

هـ : تعنى انتهى النص .

الخ : يعنى الى آخر النص .

الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير .

البندق : كل ما يرمى به من رصاص كروى وسواه ، ومنه البندقية أي البارودة .

الأهب : ج أهبة أى العدة .

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

نص الكلمة التى ختم بها الطبعة الحجرية الاولى مصححها العلامة الشاعر الشيخ عبد الرحمن الكتانى اخو المؤلف وتلميذه يومئذ نثبتها هنـا للتاريخ .

يقول مصححه العبيد الفقير الجانى عبد الرحمن بن جعفر الكتانى جعله الله ممن ليس له عن طاعته ثانى بجاه من أوتى السبع المثانى

الحمد لله الذى قيض لهذه الشريعة المحمدية فى كل عصر من يذب عنها بالبراهين الصحيحة ، ووفق من اراد به خـيرا لقبول النصيحة ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المؤيد بالمعجزات الصريحة ، القائل فيما رواه عنه الثقات : (الديـن النصيحة) ، وعلى آله واصحابه ، وكل منتسب الى عاى جنابه .

أما بعد فان الله تعالى لم يزل يقيض لنصرة الدين رجالا ، كلما وهى شىء من معالمه انتدبوا لتشييد مبانيه عجالا ، وان ممن اقامه الله تعالى فى هذا المقام فكان اسبقهم مجالا ، وتصدى لنصح أهل الاسلام ، فكان أوسعهم سجالا ، أخانا وشيخنا الشيخ الامام ، علم الاعلام ، شيخ الاسلام ، وبركة الخاص والعام ، الكامل الوصـف ، والواحد المعدود بالالف ، الفقيـه المحدث الصوفى ، الذى صافى فصوفى :

علامة العلماء واللـج الـذى ... لا ينتهى ولكـل بحر ساحـل
بين الشريعة والحقيقة جامـع ... متمسـك بدعائـم الفقهـاء

مولانا محمد بن شيخ المشايخ ، وطود المجد الشامخ ، شريف العلماء ، وعالم الشرفاء المتضلع بالعلوم النقلية والعقلية ، والمتقدم

فى العلوم المرضية الشرعية ، قدوة الانام ، ومصباح الظلام ، شيخنا ووالدنا أبى الفيض مولانا جعفر الكتانى منحنا الله بجاههما دار التهانى .

فحبانا حفظه الله تعالى ، وادام عليه نعمه تتوالى ، بهذه الرسالة الجامعة ، والنصيحة النافعة ، التى يحق لها ان تكتب بماء الذهب على صفحات القلوب ، ويسارع الى اقتنائها وقبولها من اراد تطهير صحائفه من أوساخ الذنوب ، وكفاه شرفا وفضلا، ودليلا على ما قام به من جميل الاوصاف وتحلى ، قيام سيادته بهذا الواجب على الاعيان ، سيما فى مثل هذه الازمان ، ولا غرو فى ذلك ، فانه الجدير بها هنالك ، وكيف يستغرب وجود الدر فى معدنه ، والفضل فى موطنه ، فالله يجازيه عن الاسلام واهله ، افضل ما جازى به احدا من فضله ، ولعمرى ان من وفقه الله تعالى للعمل بهذه النصائح . والقيام على ساق الجد فى التخلص من ورطة هاتيك الفضائح ، لجدير ان تتوالى عليه من الله تعالى الفتوحات والمنايح ، وينال بسبب ذلك عند الله افضل المتاجر والمرابح ، وفقنا الله لما فيه رضاه ، وارشدنا لاتباع شريعة خير خلقه وهداه .

وللحرص على عموم نفعها ، رغب سيدنا المؤلف حفظه الله فى طبعها ، فتسابق الى ذلك الشريفان الجليلان ، الماجدان النبيلان، الفقيه سيدى محمد التبر ومولاى على التامسانى ، أنالهما الله جميع الامانى ، وقد بذلت الجهد فى تصحيحها بقدر الاستطاعة ، ولم آل فى موافقة الفرع للاصل ، وان كنت مزجى البضاعة ، ثم بعد الطبع نظرت فيها ثانيا ، فوجدت ما أوجب ان اكون لعنان بيان الصواب ، ثانيا ، وقد نبهت على ذلك بعد هذا ، ليكون لقارئها عند الالتباس ملاذا .

وكان هذا الطبع الفائق ، على هذا الشكل الرائق ، بحضرة

فاس ، العاطرة الانفاس ، فى ظل الامام الذى تعطرت الافواه بثنائه ، والبدر الذى يقصر البدر عن مضاهاة سنائه ، جامع كلمة الاسلام بعد شتاتها ، ومحيى رسوم الخلافة بعد مواتها ، سلطان العلماء وعالم السلاطين ، المحفوظ ان شاء الله تعالى من نزغات الشياطين ، من القى اليه هذا القطر المغربى الرسن ، أمير المومنين مولانا عبد الحفيظ بن مولانا الحسن ، ادام الله تعالى صعوده ، ووالى عليه سعوده ، واشاد بنوده ، وأعز جنوده ، واحيا به سنة جده عليه الصلاة والسلام ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه على الدوام ، بالنبى وآله ، والبخارى ورجاله .

ولما تم طبعه على احسن وصف ، فى العشرين من شعبان عام ستة وعشرين وثلاثمائة وألف ، ارخته بهذه الابيات من بحر الطويل على حسب ما سمح به الذهن الفاتر العليل :

كتاب تبدى نوره فاكتسى الدجا	ضياء سناه دونه الشمس ضاحيه
ابان طريق الحق صادق فجره	وارشد من يقفوه فى كل ناحيه
تبدت معانيه لكل مطالع	كما احكم الشيخ الامام مبانيه
فلو نظر الاعمى اليه اهتدى به	وابصر ما لم تستطعه اليماميه
عليك به يا صاحب الحزم واقتفى	جلالته فالله يرشد قافيه
فما هو الا جنة فاح عرفها	قطوف جناها اليانع الغض دانيه
تفجرت الأنهار فيها بما تشا	وما فى مغانيها وحقك لاغيه
جزى الله عنا بالذى هو اهله	مؤلفه فى سره والعلانيه
وابقاه للاسلام يحمى جنابه	ويحرسه من كل باغ وباغيه
وارشد للخيرات من كان طبعه	بهمته حتى غدا متناهيه
وتاريخ هذا الطبع ينشد دونكم	اويل المعالى ذى النصائح كافيه

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم .

مراجع « النصيحة »

مستخرجة من ثنايا الكتاب ، ومكملة بالاستعانة بموسوعة المؤلف الخاصة بكتب الحديث : « الرسالة المستطرفة » ، ومصنفة حسب الموضوعات .

القرآن الكريم :

كتب الحديث :

الصحيح الجامع	للامام البخارى
الصحيح الجامع	للامام مسلم
الجامع	للترمذى
سنن	النسائى
سنن	ابى داوود
سنن	ابن ماجه
الموطأ	للامام مالك
سنن	الدارقطنى
سنن	الدارمى
سنن	البيهقى
صحيح	ابن حبان
المستدرك على الصحيحين	للحاكم النيسابورى
المعجم الكبير	للطبرانى
المعجم الاوسط	للطبرانى
المعجم الصغير	للطبرانى
شمائل	الترمذى
الادب المفرد	للبخارى
شعب الايمان	للبيهقى
دلائل النبوة	للبيهقى
نوادر الاصول فى أحاديث الرسول	الحكيم الترمذى
كتاب السنة	لابن ابى عاصم
كتاب السنة	للحافظ الالكائى
مسند	الامام احمد بن حنبل

زوائد المسند	لابنه عبد الله بن احمد
مسند	الطيالسى
مسند	ابى يعلى الموصلى
مسند	اسحاق بن راهويه
مسند	عبد بن حميد
مسند الفردوس	للديلمى
المسند المصنف	لابن أبى شيبة
المسند المصنف	لأبى بكر عبد الرزاق
مسند	سهل بن سعد الساعدى
مسند	القضاعى
مسند	البغوى
مسند	ابن أبى حاتم
مسند	البزار
مسند	الفريابى
مسند	ابن جميع
الترغيب والترهيب	للحافظ المنذرى
الزواجر عن اقتراف الكبائر	لابن حجر الهيثمى
المنتقى	لابن الجارود
القوت	لأبى طالب المكى
عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى	بدر الدين بن محمود العينى الحنفى
ارشاد السارى فى شرح صحيح البخارى	للقسطلانى
فتح البارى فى شرح صحيح البخارى	لابن حجر
شرح مسلم	للنووى
الفتن والملاحم	لنعيم بن حماد
الاسماء والكنى	للامام احمد
كنز العمال	لابن الهندى
الامر بالمعروف والنهى عن المنكر	لابن أبى الدنيا
الامر بالمعروف والنهى عن المنكر	لتقى الدين البابى الحلبى
التيسير بشرح الجامع الصغير	للمناوى
الكامل	لابن عدى
الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى	للقاضى عياض
البدر المنير	للشعرانى

كتاب الحجة	لأبى القاسم الاصبهانى
الاحاديث المختارة	للضياء المقدسى
المجالسة وجواهر العلم	للدينورى
الابانة عن اصول الديانة	لعبيد بن سعيد السجزى
النهاية فى غريب الحديث	لابن الاثير
المقاصد الحسنة فيما يدور من الحديث على الالسنة	للسخاوى
كتاب الجهاد	لعبد الله بن المبارك
كتاب التوبيخ	لأبى الشيخ بن حبان
مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح	لعلى القارى الحنفى
درر الغواص فى محاضرة الخواص	لابن فرحون
جمع الجوامع	للسيوطى
كتاب الاربعين	لعبد الرزاق
كتاب الاربعين	للخليلى
شرح الاربعين النووية	لابن حجر الهيثمى
شرح الاربعين النووية	للفشنى
جزء فى احاديث الوحدان	لأبى عاصم الضحاك
جزء فى احاديث الوحدان	لابن بشران
تذكرة الحفاظ	للذهبى
كتاب الغريب	لابى عبيد
احاديث خير البشر	للبدر الزركشى
معرفة السنن والآثار	للخطابى
فوائد	العجلى
فوائد	تمام الرازى
كتاب الافراد	لابن شاهين

كتب التفسير :

تفسير	ابن جرير الطبرى
تفسير	الزمخشرى
تفسير	الفخر الرازى
تفسير	القرطبى
تفسير	ابى حيان
تفسير	الخطيب الشربينى
تفسير	ابن كثير
تفسير	

	الخازن
تفسير	النسفى
تفسير	البيضاوى
تفسير	السيوطى
تفسير	ابن عطية
تفسير	النووى
تفسير	ابن المنذر
تفسير	
حاشية على الزمخشرى	للطيبى

كتب الفقه :

البيان والتحصيل	لابن رشد
المعيار	للونشريسى
التمهيد	لابن عبد البر
المدونة الكبرى عن مالك	رواية سحنون
الشامل	لبهرام
المختصر	لابن عرفة
المختصر	للشيخ خليل
شرح خليل	للزرقانى
التوضيح فى شرح مختصر ابن الحاجب	للشيخ خليل
المقدمات	لابن رشد
فتاوى	ابن تيمية
الفتاوى الكبرى	لابن حجر الهيثمى
نوازل	البرزلى
نوازل	الزياتى
شرح مختصر خليل	للمواق
شرح التلقين	للمازرى
شرح رسالة ابن ابى زيد القيروانى	للشيخ زروق
شرح مختصر خليل	للحطاب
شرح رسالة ابن ابى زيد	للفاكهانى
شرح رسالة ابن ابى زيد	للشيخ يوسف عمر
حاشية على الرسالة	للتتاءى
النوادر	لابن ابى زيد القيروانى (مخطوط نادر)
التلقين	للقاضى عبد الوهاب

القوانين الفقهيـة	لابن جزي
تكميل التقييـد	لابن غازى
شرح خطبة التنبيه	لابن جماعة
الجامـع	لخليل
كتاب الاموال	لابى عبيد
كشف الغمة فى اختلاف علماء الامة	للشعرانى
كتاب فى الفقه المالكى	لابن بشير (مخطوط 7 مجلدات)
كتاب فى الفقه	لابن مزيـن

كتـب السيـرة والتاريـخ :

زاد المعاد فى هدى خير العباد	لابن قيم الجوزية
الدر المنظم فى المولد المعظم	للعزفى (مخطوط)
المواهب اللدنية بالمنح المحمدية	للقسطلانى
شرح المواهب اللدنية	للزرقانى
كتاب الصحابـة	لابن شاهين
سير السلف	للحافظ اسماعيل بن محمد الاصبهانى
نفح الطيب	للمقـرى
ازهار الرياض	للمقـرى
حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة	للسيوطـى
الحليـة	لابى نعيـم
المـدارك	للقاضى عياض
الديباج المذهب فى علماء المذهب	لابن فرحون
تراجم رواة مالك	للخطيب البغدادى
سيـرة	الواقـدى
تاريخ قزويـن	للرافعـى
تاريخ اصبهان	لابى نعيـم
تاريخ دمـشق	لابن عساكر
التاريخ	للحاكـم
الدرة الثمينة فى اخبار المدينة	لابن النجـار
المقصد الاحمد فى مناقب سيدى احمد بن عبد الله	لعبد السلام القادرى
نزهة الحادى فى اخبار القرن الحادى	لليفرنـى

كتب التصوف :

المنن الكبرى	للشعرانى
الفتوحات	لمحى الدين ابن العربى
الاحياء	للغزالى
العهود المحمدية	للشعرانى
حادى الارواح	لابن القيم
رسائل	الشيخ ابى مدين
المعرفة	لابى نعيم
تنبيه المغترين	للشعرانى
المدخل	لابن الحاج
الحكم	لابن عطاء الله
كتاب فى التصوف	لرضوان الجنوى
اعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين	للشيخ زروق

موضوعات مختلفة :

سراج الملوك	لابى بكر الطرطوشى
الدر المنثور	لابى بكر الطرطوشى
بدائع السلك فى طبائع الملك	لابن الازرق
ما يجب على الملوك نحو آل البيت	لابن السماك
فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة	لمحمد عبد الهادى الحسنى
كتاب فى الجهاد	لابن النحاس (مخطوط)
حرز الامانى	الشاطبى المقرىء
كتاب الجهاد	للدمياطى
جمهرة الامثال	للعسكرى
مفيد النعم ومبيد النقم	للتاج السبكى
مراقى الزلفى	للقاضى ابى بكر بن العربى
شرح الجوهرة	للقانى
ديوان	ابن يونس

فهرس النصيحة

هذا الكتاب

* دراسة اسلامية – علمية – اجتماعية ، نادرة المثال ، لشرح أسباب وعوامل سقوط « جسم الدولة الاسلامية » من خلال الاوضاع التى ادت لاحتلال المغرب ، بعد 12 قرنا من السيادة المطلقة ، والاستقلال الكامل ، كتبها أحد أعلام المغرب الكبار ، عايش مرحلة اهتزاز « جسم الدولة المغربية » ، وشرح الاخطار المحدقة بها ، طيلة يوم كامل ، للسلطان المولى عبد العزيز ، بطلب من ممثلى العاصمة المهتاجين .

* تحدد ، بشكل دقيق ، فئات المجتمع المسؤولة مباشرة – اسلاميا واجتماعيا – عن انحطاط وتدهور المجتمع الاسلامى ، مع تقييم درجات هذه المسؤولية ، وتسلسلها .

* تقدم التفسير الاسلامى لتخلف المجتمع الاسلامى ، المرتبط بقانون العقوبات الالاهي ، الخاص بهذا المجتمع عندما ينحرف ، والذى يختلف عن قانون عقوبة غير المسلمين . هذا التفسير الذى تؤيده وقائع التاريخ والتجربة ، يتعارض مع نظريات العلمانيين ، الذين قضوا أكثر من نصف قرن ، فى البحث عن أسباب ما يعانيه العرب من تخلف وانقسام وهوان ، دون أن يصلوا الى نتيجة ، أو يهتدوا الى علاج . (قال عليه السلام : اذا ذلت العرب ذل الاسلام) .

* تشرح الشروط التى يجب توفرها فى المجتمع الاسلامى ، لترميم الخلل والعطب الذى اصابه ، واعادة بناء قوته المعنوية والمادية ، واحياء شخصيته الاسلامية ، الثقافية والاخلاقية .

* كانت (النصيحة) – ولا تزال – كخطة منهجية كاملة ، تهدف أساسا ، لمنع سقوط المغرب فى قبضة الاستعمار . ومع ذلك ، فقد ساهمت فى حرب التحرير الريفية ، ومعارك الأطلس البطولية ، وتاجيج حركة المقاومة الوطنية .

الثمن : 35 درهما